



جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم
الإنسانية
قسم التاريخ

السلطان سليمان القانوني (حياته، حروبه، إدارته)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ الدولة
العثمانية

إشراف

أ. د. كاميليا أبو جبل

إعداد

نورة عبد الرزاق العلي

٢٠١٠-٢٠١١ م

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	١
تمهيد تاريخي عن (نشأة العثمانيين)	٧
الفصل الأول:	
وضع للدولة العثمانية قبيل تسلم السلطان سليمان الحكم	٢٣
١- أوضاع أوروبا عند تسلم السلطان سليمان الحكم	٣٢
٢- حياة السلطان سليمان القانوني	٤١
- عائلة السلطان سليمان	٥٠
٣- قوانين السلطان سليمان:	٥٨
- قانون نامه	٥٨
٤- علاقة السلطان سليمان بالعلماء والمدرسين	٦٢
الفصل الثاني:	
الإدارة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني	٦٩
١- مهام السلطان	٧٠
٢- مهام الصدر الأعظم	٧٨
٣- الجهاز الإداري في عهد السلطان سليمان القانوني:	٨٦
- الديوان	٨٦
أ- قاضيا العسكر	٨٧
ب- الدفترداران	٨٨
ج- النشائجي	٨٨
د- مجموعة الكتب والتكرجية	٨٩
٤- أوضاع القوى العسكرية في عهده:	٩٣
أ- الإنكشارية	٩٤
ب- الأسطول	١٠٢

	الفصل الثالث:
١٠٩	حروب السلطان سليمان القانوني في أوروبا
١١٠	١- السيطرة على بلغراد
١١٣	٢- معركة موهاكس وإخفاق العثمانيين أمام أسوار فيينا ١٥٢٩م
١٢١	٣- تجدد الصراع مع النمسا
١٢٧	٤- حصار جزيرة مالطة
١٣٠	٥- السيطرة على سيجستوار
	٦- صراعه مع البرتغاليين
١٣٤	أ- تصدي السلطان سليمان للخطر البرتغالي
١٣٩	ب- الحملة البحرية الثانية تجاه الهند
١٤٢	ج- حملاته على اليمن للتصدي للبرتغاليين
	الفصل الرابع:
١٤٨	توسع الإمبراطورية العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني
١٤٨	١- التصدي لعصيان جان بردي الغزالي
١٥٢	٢- التصدي لعصيان لينال وجائم سيفي
١٥٣	٣- سيطرته على رودس وطرده القرمسان منها
١٥٧	٤- حملاته على إيران:
١٥٨	أ- الحملة الصفوية الأولى
١٥٨	- السيطرة على العراق / ٩٤١هـ / ١٥٣٤م /
١٦٢	ب- الحملة الصفوية الثانية / ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م /
١٦٤	ج- الحملة الصفوية الثالثة / ٩٦٠هـ / ١٥٥٣م /
١٦٨	٥- توسعات السلطان سليمان القانوني في الشمال الإفريقي
١٧٠	أ- تصديه لحملة شارلكان على الجزائر ١٥٤٣م
١٧٩	ب- تصدي السلطان سليمان القانوني لحملة شارلكان على تونس / ٩٤١هـ / ١٥٣٤م /
١٨٦	ج- السيطرة العثمانية على طرابلس الغرب / ٩٥٨هـ / ١٥٥١م /
١٩٥	الخاتمة
١٩٩	الملاحق
٢١١	قائمة المصادر والمراجع

المقدمة:

أجمعت معظم الدراسات التاريخية، أن قبيلة بني عثمان تعود بأصولها إلى قبيلة قايي (الحجر)، وأن القبيلة، لما دخلت الأناضول لم تكن تريد على أربعئة خيمة. ورغم ذلك تمكنت خلال فترة زمنية قصيرة، من البروز كأكبر قوة ضاربة في الأناضول، علماً أن السلطان السلجوقي علاء الدين أقطعها سكودا في الشمال الغربي من الأناضول، كمكافأة لها على موقفها معه ضد أعدائه المغول.

إن موت أرطغرل بك، زعيم القبيلة العثمانية سنة ١٢٨١م، هباً لخليفته عثمان بك، قيادة القبيلة من نصر إلى نصر. وبموت السلطان علاء الدين السلجوقي سنة ١٢٩٩م، سطع نجم القبيلة التي عرفت فيما بعد، بالقبيلة العثمانية نسبة إلى عثمان بك/ ١٢٨١-١٣٢٤م/ ثم الدولة العثمانية ثم الإمبراطورية العثمانية*. ورافقها هذا اللقب الشرفي حتى تهبأرها سنة ١٩٢٣م على يد مصطفى كمال أتاتورك.

إن سيطرة أورخان بن عثمان / ١٣٢٤-١٣٥٩م/ على بورصة سنة ١٣٢٤م، وجعلها عاصمة لدولته المنشودة، هباً لخلفائه استكمال هذه الدولة شيئاً فشيئاً. وتجمد هذا في عهد السلطان مراد الأول/ ١٣٥٩-١٣٨٩م/، إذ عمل على تطبيق نظام الدفترمة* الذي أسهم في إنشاء نظام الإنكشارية، فضلاً عن انتصاره على التحالف الأوروبي في معركة /أوصو/ سنة ١٣٨٩م، والتي قضى فيها نحبه غيلة، من قبل جندي صربي في أثناء تفقده القتلى والجرحى، وقد خلفه ابنه بلوزيد الأول بلدرم (الصاعقة) الذي واطب على مواجهة أعدائه. ولم يتمكن بلدرم من

* لقد جهد العثمانيون منذ المراحل الأولى، على اعتماد الحروب كأفضل حل لمواجهة الخصم. ولهذا كانوا يعقدون اجتماعاتهم على ظهور خيولهم، فضلاً عن رفضهم المطلق لأنصاف الحلول. غير أن سياستهم اتسمت في بعض الأحيان، باللين إذا وجنوا أنه يصب في مصلحتهم؛ ولهذا عمدوا إلى الزواج من خصومهم وتبادل الأراضي، بغية استكمال دولتهم.

* هذا النظام يخول السلطة القائمة جمع الطمان المسيحيين الذين تتراوح أعمارهم بين ٨-١٤ سنة، ثم أجاز للجنة المكلفة جمع أشبان من ١٤-١٨ سنة ومن ١٨-٢٠ سنة في حال عدم تأمين الأعداد المطلوبة، شريطة أن يكونوا من نوي الصحة الجيدة. محمود علي عمر، الدولة العثمانية تاريخ وثائق، دمشق، دار الرحاب، ط١، ٢٠٠١م، ص ٤٦.

متابعة حملاته في أوروبا الشرقية، لأن خطر تهمورلك بدأ يزحف باتجاه دولته من جهة الشرق. وقد التقى معه في معركة أنقرة سنة ١٤٠٢م والتي أسفرت عن هزيمة بيازيد الأول (يلدرم)، ثم أسره وموته قهراً سنة ١٤٠٢م.

إن موت بيازيد الأول (يلدرم) أضاع جهود آبائه وأجداده، لأن أولاده سارعوا إلى اقتسام مملكته، كل بحسب ما تمكن من الحصول عليه. وقد استمر نزاع الأخوة حتى سنة ١٤١٣م، حيث تمكن ابنه محمد الأول من محاربة أخوته وإعادة المملكة إلى ما كانت عليها. ولهذا لقبه المؤرخون الأتراك بنوح السفينة ومنقذ الأمة، واستمر يقاتل إخوته وأعداءه حتى سنة ١٤٢١م، فخلفه ابنه مراد الثاني/١٤٢١-١٤٥١م/ الذي تمكن من القضاء على أعدائه، الأمر الذي زاد من قوة الدولة العثمانية.

إن هذا الانقسام الذي واجهته الدولة العثمانية الناشئة، عقب موت بيازيد الأول بيلدرم، أسهم في تجميد حروبها وتوسعاتها. واستمر هذا الأمر حتى سنة ١٤٥١م، عندما تولى محمد الفاتح عرش السلطنة، خلفاً لوالده مراد الثاني، حيث ورث محمد الثاني (الفاتح) دولة قوية متماسكة، وهذا ما دفعه إلى مهاجمة عاصمة البيزنطيين (القسطنطينية). وهو حلم كان يراوده منذ طفولته، حيث عمل على تحقيق هذا الحلم سنة ١٤٥٣م، عندما تمكن من نك عرش البيزنطيين في خليج البوسفور ومضيق الدردنيل، وحول دولته إلى إمبراطورية. وقد استمر في توسيع حدود دولته، إذ بلغت مساحتها ٢٢١٤٠٠٠ كم^٢، ووصلت قواته إلى جزر بحرسفد (اليونان).

وإن وفاته سنة ١٤٨١م، خلفه ابنه بيازيد الثاني الذي لم يكن نشيطاً. فضلاً عن ذلك فقد كان يكره الحروب ويميل إلى السلام، ولكنه اهتم ببناء أسطول بحري ضخم. وفي سنة ١٥١٢م توفي بيازيد الثاني فخلفه ابنه سليم الأول /١٥١٢-١٥٢٠م/، وكان سليم محباً للحروب وشجاعاً، فاستطاع في سنة ١٥١٤م مع الصفويين في معركة جالديران، ثم توجه إلى محاربة المماليك وانتصر عليهم في معركتي مرج دابق ١٥١٦م والريدانية ١٥١٧م. وبعد أن حصل على لقب حام للحرمين الشريفين، عاد إلى بلاده تاركاً لابنه سليمان الأول (القانوني) دولة قوية الأركان، ذات هبة عالمية، بلغت مساحتها ٦٥٥٧٠٠٠ كم^٢.

وبفضل شجاعة هؤلاء السلاطين، تم بناء الدولة العثمانية؛ حيث أزالوا من الخارطة الدولية البيزنطيين والمماليك، لكنهم فشلوا في إزالة الدولة الصفوية رغم انتصارهم عليها. وبقي الصقيون عقبة كداء في وجه التوسع العثماني في العراق والخليج وشبه الجزيرة العربية، حتى المراحل الأخيرة من حياة إمبراطوريتهم.

تتناول هذه الدراسة جزءاً هاماً من تاريخ الدولة العثمانية. والواقع أن أحداث هذا التاريخ العثماني معقدة ومتشابكة وذات تكوينات سياسية متعددة. إنه التاريخ الذي احتوى أحداثاً متشابكة على مدى ستة قرون بين التاريخ الراسخ والتاريخ الحديث، والذي شكل دولة مترامية الأطراف، تفاعلت عليها عناصر متعددة، وشهدت بنى اجتماعية وقومية متباينة.

أما عن سبب اختيار فترة /السلطان سليمان القانوني: حياته، حربه وإدارته/ موضوعاً لهذه الدراسة فيعود إلى الصفات الإدارية والقانونية والعسكرية التي امتاز بها ذلك السلطان، والتي شكلت بحد ذاتها نهاية قوة وبداية تدرج إلى ضعف استمر لقرنين من الزمن، بالإضافة إلى حياته الشخصية التي عدت مادة دسمة ومثيرة، وملينة بالأحداث، تجذب اهتمام أي باحث في التاريخ العثماني.

لقد كانت فترة للسلطان سليمان من أهم المراحل في حياة هذه الإمبراطورية. وإذا كان السلطان سليم الأول/١٥١٢-١٥٢٠م/ قد حقق لها مكاسب مهمة، فإن السلطان سليمان القانوني جسد هذه المكاسب حقيقة واقعة، وأرغم أعداءه في الداخل والخارج على الاعتراف بقوة هذه الإمبراطورية. فلقد طبق القوانين وحدد معالم الإمبراطورية، مما أرغم ملوك أوروبا وأمراءها على التوافد إلى عاصمته، لتقبيل العتبة الهمايونية وتنفيذ رغباته، صاغرين.

ومن الأسباب الأخرى التي دفعتني إلى اختيار السلطان سليمان القانوني موضوعاً، لبحثي، عدم وجود دراسة علمية متكاملة توضح حياته ومسيرته ونشاطاته الإدارية والعسكرية. ولأنك أن معظم المصادر والمراجع العثمانية تناولت السلطان سليمان كدراسة جانبية، وبصورة غير متكاملة، ولا توجد دراسة عربية تناولت بشكل علمي ومتكامل، مرحلة السلطان سليمان القانوني. والجدير بالذكر أن دراسة شخصية كسليمان القانوني تخلو من الوثائق، فكيف يمكن أن تكون وثائق، وهو مصدر الأحداث. وكل ما لكتته المصادر العثمانية القديمة والتركية

الحديثة هو إصداره لفراماناته التي بلغت أكثر من ٢٠٠ فرمان. ولدى قراءة هذه الفرمانات نجد أنها تمحورت بمجملها حول تعيين الولاة وتحذيرهم من الاعتداء على الرعية وعدم ممارسة الظلم. ولهذا كانت الفائدة منها محدودة، لأن كل فرمائه شرحتها المصادر العثمانية، كما نرى عند أمثال جودت باشا في تاريخه، وقد تضمن كتابه ١١ جزءاً، وتاريخ عطا الله ٦ أجزاء، وتاريخ بجوى ٦ أجزاء، وتاريخ صولاق باشا زاده ٦ أجزاء، وتاريخ رضا نور ٨ أجزاء. وهذه المصادر بحد ذاتها، أسرفت في ذكر مناقب السلطان وشجاعته وحكمته بإصدار قانون نامة ومراقبته لولاته في تطبيق هذه القوانين التي أصدرها.

وبالطبع قد أخذت من تلك المصادر، ولكن بدقة، بعدما أجريت مقارنة فيما بينها، بغية تقديم بحث علمي متكامل عن هذا السلطان.

لاشك أن هذه المصادر العثمانية حفلت بكثير من المعلومات؛ غير أن صعوبات عدة واجهتني، من أهمها صعوبة الحصول عليها وضعف قراءتي للغة العثمانية. ولا ننفي أن بعض أساتذتنا الكرام قاموا بتقديم ملخصات عن بعضها، مؤكدين أن ما دونه الكتاب العرب يمكن الاعتماد عليه ولا سيما المترجم منها، من أمثال كتاب أكمل الدين إحسان أوغلو (الدولة العثمانية تاريخ وحضارة بجزأيه)، وكتاب يلماز أوزتونا (تاريخ الدولة العثمانية بجزأيه)، وكتاب محمد فريد بك المحامي (تاريخ الدولة العلية العثمانية)، و(تاريخ الدولة العثمانية العلية) لإبراهيم بك حليم، وكتاب شكيب أرسلان (تاريخ الدولة العثمانية)، وكتاب آصف بك يوسف (سلاطين آل عثمان) وغيرها من المؤلفات العربية. وقد عدنا إلى مدونات كتاب تركيا للحديثة ورؤيتهم للدولة العثمانية. ولا ننفي أن معظم الكتابات أشادت بشكل مطلق بحكمة سليمان وإدارته وقولتبه. غير أن بعض الدراسات حملته مسؤولية تدهور الدولة العثمانية. وقد أثرت الابتعاد عن الآراء المؤيدة والمعادية، معتمدة الدقة في بحث فترة سليمان القانوني، وأخذت بما يتطابق والواقع الذي كانت الدولة العثمانية تواجهه في فترة القرن السادس عشر، كما ابتعدت عن تجميل عصره، بمصطلحات القرن الحادي والعشرين.

لقد قسمت فترة السلطان سليمان القانوني التي امتدت /٤٦/ سنة إلى تمهيد ومقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

تطرق الفصل الأول إلى دراسة أوضاع الدولة العثمانية وحالة أوروبا قبيل اعتلاء السلطان سليمان عرش الإمبراطورية العثمانية. وبعد ذلك انتقلت إلى دراسة شخصية السلطان سليمان القانوني وزوجاته وأولاده وقوانينه وموقفه حيال العلماء والمدرسين موضحة دوره الأساسي في تشجيع العلم ومساندة العلماء.

أما الفصل الثاني فعالج الإدارة العثمانية في عهده، وهل أضاف السلطان سليمان قوانين وتعليمات وسعت من صلاحياته وصلاحيات حاشيته؟، وما المهام التي كلف بها الصدر الأعظم والجهاز الإداري الذي يساعده في إدارة دولة بل إمبراطورية تتوسع شيئاً فشيئاً؟، إذ غدت مجموع ولاياتها شرقاً ٣٤ ولاية ومجموع ولاياتها غرباً ٢٤ ولاية، وحكمت ثلاث قارات: أوروبا وآسيا وأفريقيا، وهل أدت القوى العسكرية برئاسة الإنكشارية، عماد الدولة آنذاك، دوراً إيجابياً؟ ثم ما هو الدور الذي أداه الأسطول وكيف تصدى للبرتغاليين الذين بدؤوا يتطلعون للسيطرة على الخليج والجزيرة العربية؟

أما الفصل الثالث فتناول حروب السلطان سليمان القانوني، علماً أن أوروبا بدأت تتخلص شيئاً فشيئاً من مشكلاتها. ولهذا كان عليه التخلص من الفرسان (فرسان القديس يوحنا) الذين سيطروا على رودس، وسعوا إلى مضائق سفن الدولة العثمانية. وفضلاً عن ذلك فإن المجر والنمسا وإيران الدول كانت تتحدى الدولة العثمانية، لذلك كان على السلطان سليمان القانوني أن يتصدى لأطماعهم وتطلعاتهم الرامية إلى استعادة بعض الأراضي التي حصل عليها العثمانيون. غير أن تحركات إدارة بلاد فارس أقلقحت حكام الدولة العثمانية. وإذا كان السلطان سليم الأول قد ألحق بهم هزيمة كبرى، فإن الأمر يقتضي من السلطان سليمان، شن حملات عدة لإسكات حكام فارس سياسياً واقتصادياً ودينيّاً، ومنعهم من الاقتراب من أملاك الدولة العثمانية.

في حين أوضح الفصل الرابع، ومن خلال المصادر، مدى قدرة السلطان سليمان على توسيع أملاك دولته إذ بلغت مساحة أراضيها في القارات الثلاث ١٤٩٨٣٠٠٠ كم^٢، ونجاحه في القضاء على حركات العصيان التي قامت في بلاد الشام ومصر، وكيف أنه مدّ الرئيس خير الدين باربروس بقوات بحرية وبرية لمواجهة الإمبراطور شارلكان الذي شنّ حملة على تونس سنة ١٥٣٤م، وارتكب مجازر بحق أهلها. ولم يكن بمقدور السلطان سليمان إرسال

قوات كافية لمحاربته، لأن قواته آنذاك كانت في المنة ذاتها، مشغولة بتحرير العراق من الصفويين. وعندما عمد شارلكان إلى مهاجمة الجزائر سنة ١٥٤٣م، تصدى له السلطان سليمان بقوات برية وبحرية أرغمت شارلكان على العودة إلى بلاده مهزوماً. ولم يكتف السلطان سليمان بملاحقة شارلكان في تونس والجزائر، بل عمد إلى ملاحقة فرسان القديس يوحنا الذين طردوا من رودس واستقروا في طرابلس الغرب، فكلف في سنة ١٥٥١م منان باشا وبيالي باشا بقيادة حملة لطردهم من هذه المدينة.

لقد امتازت فترة السلطان سليمان بالقوة والحكمة، فقاتل أعداءه على مختلف الجبهات، وواظب بشكل مستمر على محاربة الفرس. والحق يقال؛ إن قتال العثمانيين مع الفرس يعادل قتالهم مع بقية أعدائهم.

أما في الخاتمة فقد بينت أبرز النتائج التي توصل إليها البحث، حيث سلطت الضوء على إيجابيات السلطان وسليباته، ومدى تأثير قراراته وسلوكه على مسار الدولة العثمانية، موضحة من خلالها، الصورة النهائية للسلطان سليمان القانوني، التي خلص إليها البحث.

وفي الختام، أتوجه بالشكر الجزيل والعرفان لأستاذتي المشرفة الدكتورة كاميليا أبو جبل، على توجيهاتها السديدة ونصائحها المفيدة. فمن خلال تلك النصائح خرج البحث إلى النور، فلها مني فائق الاحترام والتقدير والامتنان.

وأتوجه بالشكر الجزيل إلى الأساتذة في قسمي التاريخ في جامعتي دمشق وحلب، وأشكرهم جميعاً على حسن صنيعهم، لأنهم لم يقصروا في مساعدتي وإبداء النصائح والتوجيهات العلمية لي. فلهم مني جزيل الشكر وفائق التقدير والامتنان، كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور محمود علي عامر الذي منحتني كثيراً من علمه ومعرفته، من خلال تقديمه لأهم المصادر والمراجع التي أغنت البحث، فله مني جزيل الشكر وفائق الاحترام.

تمهيد تاريخي :

نشأة العثمانيين:

لا يزال أصل الأتراك العثمانيين محاطاً بالغموض، وإن كان ظهورهم على المسرح السياسي قد ارتبط بشكل مباشر أو غير مباشر، بتوغل المغول وقائدهم جنكيز خان في القرن الثالث عشر الميلادي، واختراقهم سهوب آسيا الوسطى إلى البلدان المجاورة، حاملين معهم الخراب والدمار أينما حلوا .

أما ظهورهم بشكل ملموس على الساحة العربية، فكان بعد أن استعان بهم الخليفة العباسي المعتصم، إذ تمكنوا من خلال الخدمات والمناصب التي حظوا بها، أن يسيطروا بالتدريج على الخلافة العباسية وعلى مناطق في غربي آسيا، زمن هذا الخليفة^(١).

كما قُدر للأتراك بفضل الهجرات المتتالية، السيطرة على أجزاء من آسيا الصغرى التي كانت ساحة للقتال بين السلاجقة والبيزنطيين^(٢)، إذ كانت الدولة البيزنطية قد بلغت من الضعف درجة عجزت فيها عن استرجاع ما انتزعه السلاجقة منها، لتنتقل السيطرة على آسيا الصغرى للدولة السلجوقية التي تعرضت بدورها للضياع، وسط الأحداث المتسارعة التي تمثلت بالهجرات الكثيرة التي واجهتها تلك المنطقة، لتصبح بذلك آسيا الصغرى التي كانت تقتدر إلى وجود سلطة مركزية، ثمرة ناضجة لمن يستطيع أن ينالها ويظفر بها^(٣).

لقد تعددت الروايات حول أصل العثمانيين، وإن كان أغلبها يشير إلى انتمائهم إلى قبيلة قايي، إحدى قبائل الغز التركية التي توجهت غرباً إلى الأناضول، هرباً من تقدم المغول في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي^(٤). وكان زعيم هذه القبيلة هو أرطغرل بن سليمان شاه الذي

^١ - أحمد جودت باشا، تاريخ جودت، ج ١١، ص ١٣٠٨ هـ، ج ١، ص ١١٤.

^٢ - أحمد آق كوندز، سعيد أوزتورك، الدولة العثمانية المجهولة، استنبول، مكتبة amro turan، ٢٠٠٨م، ص ٤٩.

^٣ - جودت، المصدر السابق، ج ١، ص ١١٤.

^٤ - المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٥.

قرر التوجه نحو اسيا الصغرى بعد وفاة والده غرقاً/٦٢٩هـ/١٢٣١م/ عند اجتيازه لنهر الفرات. ولمّا دخل الأناضول شاهد جيشين يتقاتلان. وبغصة البدوي وقف إلى جانب الصغرى ومد له يد المساعدة، وحوله إلى متصرف^(١).

ولقاء المساعدة التي أسداها لوطمرن إلى السلطان علاء الدين السلجوقي^(٢)، منحه قطعة أرض في منطقة الثغور المقابلة للدولة البيزنطية، وهي منطقة سكود. وهذا ما ساعده على الاستقرار مع أفراد قبيلته في تلك المنطقة، دون أن يعلم ما يحمله القدر، وأن قبيلته هذه ستحول إلى دولة كبيرة، سيكون لها ورثها الكبير ودورها الفعال على الصعيد الدولي.

وبعد وفاة أرطغرل سنة /٦٨٠هـ/١٢٨١م/ تسلم رسم للقيادة ابنه عثمان الذي عينه السلطان علاء الدين السلجوقي، في هذا المنصب إكراماً لوالده. وفي عام /٦٩٩هـ/١٢٩٩م^(٣) وقعت أحداث قنزلها أن تعبر مجرى التاريخ بالنسبة لهذه القبيلة الصغيرة، حيث أغار التتار على اسيا الصغرى، وتمكنوا من القضاء على الدولة السلجوقية^(٤)، بعد موت السلطان علاء الدين السلجوقي ١٢٩٩م^(٥)، كما تحدى التتار قيام الدولة العثمانية التي تمكن عثمان من توطيد أركانها، هذا الحكم الذي نجح في توطيد أموره حكمه ولعب اداك بالعاري عثمان^(٦). وبموت السلطان علاء الدين السلجوقي تمكن عثمان بن أرطغرل من السيطرة على الحكم معلناً بذلك ولادة الدولة العثمانية^(٧).

^١ - أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني، القاهرة ، دار الشروق، ط٢، ص ١٣-١٤

^٢ - إبراهيم بك حليم ، تاريخ الدولة العثمانية الحلية التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العثمانية، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٩٨٨م، ص ٣١

^٣ - صابر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص ٢٣.

^٤ - زياد أبر غيممة، جرائب مصيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، عمان، دار الفرقان للنشر، ط٢، ١٩٨٦م، ص ١٩

^٥ - يلماز أورتونا، المدخل إلى التاريخ التركي، ج٢، ت: أرشد الهرمزي، الدار العربية للموسوعات، ط١، ٢٠٠٥م، ج١، ص ٣٤٩

^٦ - يلماز أورتونا ، المدخل إلى التاريخ التركي، ج١، ص ٣٤٩

^٧ - محمد هريدي بك لمحمي، تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق لحسن حقي، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٩٨١م، ص ١١٥

وقد نجح عثمان مؤسس الدولة العثمانية في الاستيلاء على كل الأراضي والأماكن في المنطقة ولقب نفسه بادشاه* آل عثمان أي (سلطان آل عثمان) وجعل مقر حكمه مدينة يكي شهر^(١١).

إذ يمكن التأكيد أن عثمان بن أرطغرل هو مؤسس الدولة العثمانية، هذه الدولة التي لم تكن سوى قبيلة صغيرة كتب بها بفصل سلاطينها الأول، أن تتحول إلى إمبراطورية كبيرة. وهذا ما أكده المؤرخ أحمد جوندت باشا بحديثه عن العثمانيين، إذ قال:

"مع أن الدولة العلية كانت في البداية دولة صغيرة، ولكن لكونها قبيلة قد جمعت في نفسها الصفات العالية للأثر الك مع التدبير والشجاعة الخاصة بالإسلام، حملت قابلية كونها مطهرًا ووسيلة لتوحيد أمة الإسلام. ولم تكن هذه الدولة العلية - كغيرها من الدول الأخرى - قد تبنّت من مجتمع ذي امتيازات لتجد أمامها أمة وولدًا، بل فتحت بلادًا وأراضي جديدة وكوت أمة واحدة من أهم ذات لجان وسلوك وخلق ولغات وثقافات مختلفة، ومجتمعاً مناصلاً هو خلاصة أفضل سلوك وأداب وفصائل الأمم المختلفة، كما كان أجداد هؤلاء من سلالة تركية أصيلة"^(١٢).

والتواقع أن عثمان زعيم هذه القبيلة الصغيرة، ظهر كسياسي محنك، قائد على إدارة دولته الصغيرة القائمة من خلال إقامة علاقات ودية مع الدول المجاورة، واحترامه للمواثيق والمعاهد التي قطعها على نفسه، وفي الوقت نفسه كان يستعبد الشدة والقسوة مع أعدائه^(١٣). وبعد وفاته سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م/ حلفه على الحكم ابنه أورخان سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م/، الذي كان والده قد عهد إليه قيادة الجيش سلفاً، وقد نجح في تحقيق انتصارات عدة أثناء تنهذه

* بادشاه، وهو لقب مكرّم من قسمين باد وتحي التحت أو العرش وشاه تعني السيد أو المصاحب. وباد شاه تعني السلطان أو الملك أو الحاكم. مصطفى بركات، الأتراك العثمانيون من خلال الوثائق والمخطوطات (١٥١٢-١٩٢٤م)، القاهرة، دار العريب، ٢٠٠٠م، ص ١٧

* يكي شهر، تلفظ الكف بواً فهي إذاً يني شهر و معناها المنبته الحديثه وتقع في الشمال لشرقي من بورصة هريد بك، المصدر السابق، ص ١١٨

^٢ كوندز، أوزتورك، مرجع سابق، ص ٤٨

^٣ - محمد قزاد كوبريللي، قيام الدولة العثمانية، ت: أحمد السيد سليمان، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ١٢١

العمليات العسكرية. ويعد وصوله إلى مدة الحكم عين أخاه علاء الدين وريراً، وكلفه بمس الفواتين والشرائع بما يناسب طبيعة الشعب الذي يحكمه، كما نقل مركز الحكم إلى مدينة بورصه وجعلها مركز السلطة^(١). هذا بالإضافة إلى نجاحه مع أخيه في سك أول عملة فضية، كان دليلاً على حسن ضبطهم وتنظيمهم للأموال الاقتصادية التي يرجع العصب فيها بالدرجة الأولى، إلى علاء الدين أحي السلطان أورخان^(٢)، ثم التفت السلطان أورخان بدوره إلى الناحية العسكرية بهدف توسيع ملكه، فشن حرباً على البيزنطيين، حيث انتزع منهم العديد من القلاع والحصون مثل (قلعتي سمندرة و يدوس) ومن ثم توجه نحو الدرنيل واستولى على العديد من المناطق فيها، حتى أصبح الطريق مفتوحاً أمام أوروبا، وعندها رأى السلطان أورخان أن مصلحة الدولة تقتضي تعيين ابنه سليمان المغامر والشجاع، قائداً للجيش بدلاً من أخيه علاء الدين الذي كان مسالماً بطبعه، وكان امتماحه منصباً على الأمر الإدارية. وبالفعل تسلم سليمان منصبه الجديد، ثم قاد جيوشه مباشرة نحو بحر مرمرة، وتمكن من اقتحام مدينتي طيب وغاليبولي والاستيلاء على العديد من المدن والقلاع الحصينة في بلاد اليونان^(٣)، فشب الدعر في اليونان من هذه الدولة الناشئة القوية التي اكتسحت أراضيها وسيطرت على العديد من ممتلكاتها. ولكن في عام/٧٦١هـ/ ١٣٦٠م/ مات السلطان أورخان بعدما انقطر قلبه حراً على وفاة ابنه سليمان^(٤).

حكم السلطان أورخان ٢٥ سنة قصاها في توسيع ملكه وتنظيم شؤون الرعية، وطبق الديمقراطية في إدارة البلاد، بالإضافة إلى أنه احتار أكثر أفراد العائلة تصحيه وشجاعه ليتسلم الحكم.

^١ - يوسف بك آصف، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، تقديم محمد ربيع محمد عرب، القاهرة، مكتبة مديولي، ط١، ١٩٩٥م، ص ٣٣-٣٤

^٢ - كزل بروكلمس، تاريخ الشعوب الإسلامية، ت: نبيه أمين فارم - منير البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٦٥م، ص ٣٤١

^٣ - محمود علي عامر، تاريخ الامبراطورية العثمانية: دراسة تاريخية واجتماعية، دمشق، دار الصفا، ط١، ٢٠٠٤م، ص ٢٤٩.

^٤ - توفي سليمان في أثناء تربيته على الجريد، صفط عن ظهر حصته فعهد بالسلطة لأخيه مراد الأول ١٣٥٩م. وبعد سنة توفي أي سنة ١٣٦٠. منحت سرت أوغلو، التاريخ العثماني المصور، انقره، ١٩٥٨م، ص ٢٣١

حلف السلطان أورخان لئنه مراد الأول/٧٦١هـ/١٣٦٠م/ وله من العمر ٣٥ عاماً. وقد عرف عنه كرم الاخلاق والشجاعة خاصة في المعارك، على الرغم من أنه لم يشارك بالمعارك في صغره^(١). وقد حقق العثمانيون في عهده بعداً استراتيجياً مهماً سنة /٧٦٣هـ/١٣٦٢م/ حين صموا إلى جسم دولتهم، مدينة أدرنة ذب الموقع الإستراتيجي المهم، والمكانة التجارية المميزة، بعلاقة تجارها الوثيقة مع التجار الأوروبيين^(٢).

ومنذ تسلمه الحكم، عمد السلطان مراد الأول إلى توسيع حدود مملكته على حساب أوروبا و اسيا، فعاد جيوشه باتجاه البلقان وحقق انتصاراً كبيراً على ملوكها^(٣)، وتوَّج أعماله الإستراتيجية عندما استولى على مدينة سالونيك (سلانيك) عاصمة مقدونيا اليونانية، فحار بذلك على إحدى أهم المسارات التجارية التي غدت في القرن السادس عشر، مركزاً كبيراً للتجارة والحرفيين، مما وفر تحلاً كبيراً بحرية الدولة^(٤)، ثم وقَّع معاهدة مع ملك اليونان، ولكنها لم تستمر طويلاً لأن اليونانيين عقدوا اتفاق مع البوسنة والمجر والأفلاق، بهدف استعادة أدرنة من العثمانيين، فحاصرت هذه القوات المتحالفة أدرنة، ولكن القوات العثمانية كانت لها بالمرصاد، إذ تمكنت من فك الحصار وإحراق الهزيمة بهم. وقد تابع السلطان مراد الأول مسيرته بعد أن زوّج ابنه بيلازيد من ابنة حاكم قرمان، بهدف إقامة تحالف مع حكام اسيا الصغرى^(٥).

وبينما كان السلطان مراد الأول في الأناضول، وردّه خبر قيام تحالف أوروبي مؤلف من صربيا وبلغاريا والبوسنة في البلقان صده. ولكن رده جاء مريعاً إذ عبر البحر باتجاه أوروبا

^١ -صاف، مصدر سابق، ص ٣٥-٣٦

^٢ - جابر الصباح، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية "الحرب والسلام بين العثمانيين والصغريين"، بيروت، دار النفائس، ط١٩٩٩م، ص ١٠١

^٣ - عامر، تاريخ الامبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٢٥٣.

^٤ - الصباح، المرجع السابق، ص ١٠١

^٥ - عامر، المرجع السابق، ص ٢٥٣

والتقى الطرفان في أرسوف، وتمكن من الانتصار على التحالف الأوروبي. وبذلك نجح العثمانيون في توطيد أركان دولة ناشئة استطاعت أن تثبت وجودها في الأناضول والبلقان^(١).

وبعد انتهاء المعركة، وفي أثناء تجول مراد الأول بين جثث القتلى، غافله شاب صربي و طعنه بخنجر، فسقط على الأرض قتلاً. ونقل جثمانه إلى مدينة بورصة سنة/٧٩٠هـ/١٣٨٩م^(٢).

تولى الحكم بعد مراد الأول ابنه بيياريد الملقب بلدرم (أي الصاعقة)،/٧٩١هـ/١٣٨٩م^(٣). وله من العمر ثلاثون عاماً*^(٤) وقد بدأ حكمه بقتل أخيه يعقوب خوفاً من أن يستزع الحكم منه^(٥).

أما على الصعيد العسكري، فقد أحصع السلطان بيياريد مملكة الصرب بشكل كامل، ثم تابع تحركاته العسكرية حيث سيطر على ما تبني من الثغور والإمارات السلجوقية في الأناضول، ثم كان عليه أن يواجه حملة عسكرية بقيادة ملك المجر وبمباركة من البابا. وقد تمكنت هذه الحملة من استعادة الكثير من المدن التي استولى عليها العثمانيون سابقاً^(٦).

ولكن القوات العثمانية بقيادة السلطان بيياريد، تمكنت من مواجهة هذه الحملة الصليبية وإلحاق الهزيمة بها. وببما كل السلطان بيياريد يتصدى لهذه الحملة، هرجى برحف

^١ - خليل إنجليك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ت محمد م. الأربازوط، بيروت، دار المدور الإسلامي، ط١، ٢٠٠٢م، ص ٢٨

^٢ - علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٤، ٢٠٠٢م، ص ١٧

^٣ - شكيب أرسلان، تاريخ الدولة العثمانية، جمع أصوله وحققه حسن السمحي سويدان، بيروت، دار ابن كثير، ط١، ٢٠٠١م، ص ٦٥

اصناف، مصدر سابق، ص ٣٨

* وسبب تغييه بهذا الاسم هو أنه عرف ببراعته وسرعته في ميدان الحروب ولشجاعته أمام الأعداء. حليم، مصدر سابق، ص ٤٦

^٥ - عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص ١٣٤

^٦ - عامر، تاريخ الإمبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٢٥٣

تيمورلنك^(١) الذي كان يتجه كالعاصفة المدمرة بحر شرق الأناضول، بعد أن انصم إليه العديد من أمراء الأناضول الذين فقدوا إماراتهم^(٢)، وقد نجح بالاستيلاء على العديد من المدن، ثم قام بقتل بن السلطان بيازيد ويدعى أرطغرل، مما كان من السلطان بيازيد إلا أن توجه لملاقاته ليصنع هدأً لتعدياته للسفيرة. وكان ذلك في سهل أنقرة، فقبل الطرفان سنة/٨٠٤هـ/١٤٠٢م/ وانتهت هذه المعركة بهزيمة بيازيد ووقوعه مع ابنه مصطفى، أسيرين بيد تيمورلنك، الذي أحسن معاملته في بادئ الأمر. إلا أن محاولة الفرار التي قام بها السلطان بيازيد أدت إلى تغيير معاملة تيمورلنك له، فأصبح يعامله بقساوة واحتقار، كما أنه وصعه في قفص من الحديد لمدة ثمانية أشهر. ونتيجة شعور السلطان بيازيد بالدل والهوان، اردادت حالته سوءاً، مما أدى إلى موته في قفص تيمورلنك، ثم نقل جثمانه إلى مدينة بورصة، فدفن هناك^(٣).

وبعد هذه الصربة القاسية التي تعرضت لها الدولة العثمانية الفتية على يد تيمورلنك^(٤) الذي لولا وفاته لتمكن من القضاء عليها^(٥)، ثارت العديد من الممالك البلغارية مثل بلغاريا والصرب ورومانيا، كما استعاد الكثير من أمراء الأناضول استقلالهم^(٦). وعليه فإن آثار هزيمة العثمانيين انعكس على مسرح الأحداث داخل الدولة العثمانية، إذ كان موت السلطان بيازيد إيذاناً ببداة الخلافات بين أبنائه حتى وصلت إلى حد القتال فيما بينهم^(٧)، فعمت الفوضى

* تيمورلنك بك الكبير حاكم أترلك الشرق (تركستان) أسس إمبراطورية عظمى تمتلك أكبر جيش و دولة في العالم آنذاك امتدت من الصين الى مصر يلماز أورتونا، تاريخ الدولة العثمانية، استانبول، منشورات مؤسسة الفصيل للتنزيل، ١٩٨٨م، ج ١، ص ١٠٩

١ - عامر، تاريخ الامبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٢٥٣

٢ - كوندر، أورتورك، مرجع سابق، ص ٩٠

٣ - عامر، تاريخ الامبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٢٥٣

٤ - حصور، مرجع سابق، ص ٢٢

٥ - عامر، تاريخ الامبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٢٥٣

٦ - حصور، المرجع السابق، ص ٢٢

٧ - نغولو ياربارو، الفتح الإسلامي للقسطنطينية (يوميات الحصار العثماني) ١٤٥٣م، ت حاتم عبد الرحمن

المطحاوي، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٢٩-٣٠

في البلاد على الأصعدة كافة^(١)، إلى أن تمكن أصغر أبنائه محمد جلبي (الجميل) الأول /٨١٦هـ/ ٤١٣م/ من أن يصع حداً لهذه المشكلات وأن يعيد الأمور إلى نصابها^(٢).

لقد نحلى السلطان محمد جلبي الأول بصغات أخلاقية رفيعة، فهو الذي جمع شمل ممكة والاه بعد تمرقها، فوحد صفوفها وقام بتثبيت أركانها، وقضى على كل الثورات المحلية التي قامت في عهده، وقاد جيوشه إلى العنبد من المعارك التي كان تتجتها النصر على أعدائه. وقد عذ السلطان محمد جلبي أول سلطان عثماني يرسل صرة من لذهب إلى أمير مكة لتوزيعها على الفقراء، كما عرف عنه حبه للعلم والعلماء^(٣).

بعد وفاة السلطان محمد جلبي، تولى الحكم ابنه مراد الثاني /٨٢٤هـ/ ٤٢١م/، وكان عمره سبع عشرة سنة. وقد عرف عنه حبه للسلم وابتعاده عن الحروب. ولهذا طمع الأعداء بدونه وبدؤوا يفتشون العهود التي كانت بينهم، وذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما جهز الأوروبيون حملة ضد الدولة العثمانية وسلطانها الجديد، استعانوا من خلالها الكثير من أملاكهم، وتعلبوا على العثمانيين في الكثير من المواقع، حتى وصلوا إلى مدينة فارنة* على البحر الأسود^(٤). وأمام هذا الخطر قام السلطان مراد الثاني بإعداد حملة قوامها ثمانون ألف مقاتل بقيادة الوزير شهاب الدين الذي نجح في إيقاف رحب هذه القوات الأوروبية، وأعاد بعض الاستقرار إلى البلاد. ونتيجة الصعوبات الكثيرة التي تعرض لها السلطان، اضطر أن يوقع على عقد صلح مع صربيا والأفلاق، عاد لهما من خلاله العبد من المدن والفلاع، كما حاول السيطرة على القسطنطينية، لكنه فشل نتيجة منعة أسوارها وصمود قواتها، توفي

^١ - روبير مانتزان، تاريخ الدولة العثمانية، ج٢، ت. بشير السباعي، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٣م، ج١، ص ٧٦

^٢ - عبد الكريم رافع، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون، دمشق، ط١٩٦٨م، ص ٣٩

^٣ - أرسلان، مصدر سابق، ص ٧٣

* قرية سنية تقع في بندرية على شاطئ البحر الأسود. حصون، مرجع سابق، ص ٢٣.

^٤ - حصون، مرجع سابق، ص ٢٣

السلطان مراد الثاني عام/٨٥٥هـ/١٤٥١م/ بعد أن تنازل عن الحكم لابنه محمد الثاني (العاتج) الذي أظهر مقدرة عالية وجبارة في إدارة شؤون البلاد^(١).

تولى السلطان محمد العاتج الحكم عام/٨٥٥هـ/١٤٥١م/. ومنذ وصوله الحكم، قرر أن يستولي على القسطنطينية رأن يصمها للدولة العثمانية، نظراً لأهمية موقعها الجغرافي، فهي التي تصل بين أسبانيا وأوروبا^(٢). وفعلاً بدأ بإعداد كل ما يلزم لهذه المهمة. ومنها بناء مجموعة من القلاع على شاطئ مصيقي القسطنطينية (اليوسفور)^(٣). لأنه كان يدرك مدى أهمية هذا المصيق كعامل مساعد في الاستيلاء على القسطنطينية. ومن هذه القلاع كانت قلعة رومييلي حصار التي تمكن من حلها أن يسيطر على مصيقي القسطنطينية، وبالتالي لم يسمح لأي سفينة بالمعبور إلا بناء على موافقة الدولة العثمانية^(٤) وأعد أيضاً المدافع الصخمة التي تقدم الحجارة على مسافات طويلة، إذ كانت حطته النهائية تقوم على ضرب حصار على مدينة القسطنطينية وقطع اتصالاتها مع كافة المدن المجاورة. كما أمر السلطان محمد العاتج بحد قائدته وهو طرخان باشا بأن يسيطر على كورنثة، لكي يمنع أخوة الإمبراطور من مساعدته^(٥). ولما علم ملك القسطنطينية بتوايا السلطان محمد العاتج، طلب المعونة من الدول الأوروبية المجاورة، واعدأ إياها باسم الكنيسة الشرقية إلى الكنيسة الرومانية، لكنه لم يلق أي استجابة من أي دولة أوروبية لأنها كانت حقة عليه^(٦)، ومن ناحية أخرى لم يكن لدى بيرنطة من المعدات الحربية أو حتى المال، ما يجعلها منافسة للدولة العثمانية^(٧).

^١ عاصر، مرجع سابق، ص ١٣٨

^٢ حسون، مرجع سابق، ص ٣

^٣ أصناف، مصدر سابق، ص ٤٨

^٤ كوندز، أوزتورك، مرجع سابق، ص ١٢٠

^٥ ريبدة عطا، بلاد الترك في العصور الوسطى. بيرنطة وسلاحفة الروم والعثمانيون، دار الفكر العربي، د.ف، ص ١٩٥

^٦ أصناف، المصدر السابق، ص ٥٠

^٧ - عطا، المرجع السابق، ص ١٩٥

وفي عام/٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م/ رحب السلطان محمد الفاتح إلى القسطنطينية^(١) بجيش كبير. وبعد حصار دام أكثر من خمسين يوماً تمكن من دخول هذه المدينة، وقتل ملكها الذي دافع عن عاصمته بشراسة^(٢). وبعدها توجه السلطان إلى كنيسة آي صوفيا وحوها إلى جمع قبل دخوله إليها^(٣)، ثم قرّر اتخاذ للقسطنطينية عاصمة لملكه^(٤)، فأطلق عليها اسم إسلام بول، أي مدينة السلام^(٥).

لقد عدّ إحصاء الدولة العثمانية للقسطنطينية من أهم الأحداث التاريخية، وكحد فاصل بين العصور الوسطى والعصور الحديثة. كما أن ملوك أوروبا تنبهوا إلى مدى خطورة هذه الدولة المتنامية التي تحولت خلال فترة قصيرة إلى إمبراطورية ضخمة، يهابها ملوك أوروبا ويسلبون ودها

كما أن نجاح الدولة العثمانية في القضاء على الإمبراطورية البيزنطية، كاهم قوة في العصور الوسطى، أدى إلى ظهورها على مسرح الأحداث، كقوة عسكرية جديدة يحسب لها حساب، لأنها تشكل خطراً يهدد كافة القوى الأخرى التي برزت أواخر العصور الوسطى، مثل سلطنة المماليك في مصر وبلاد الشام، بالإضافة إلى بعض الدول الأوروبية الأخرى.

ولابد من الإشارة إلى أن هذا الانتصار العسكري الكبير، قد شجع سلاطين بني عثمان الذين جاؤوا بعد السلطان محمد الفاتح، للسيطرة على المزيد من الأراضي في أوروبا وآسيا^(٦).

ومن الجدير ذكره إن طموحات السلطان محمد الفاتح العسكرية والتوسعية لم تتوقف عند القسطنطينية، حيث كان لديه حلم ببناء إمبراطورية ضخمة تشمل مناطق واسعة من الأراضي، لذا قرّر أن يتابع عملياته التوسعية التي بدأت عام/٨٦٥هـ/ ١٤٦١م، إذ استطاع أن يسيطر على مدينة أثينا عاصمة اليونان، وعلى إمارة طرابزون وإمارة قرمان،

^١ - سليمان بن خليل بن بطرس جادويش، التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية، بيروت، دار صادر، ط٧، ١٩٩٥م، ص ١٠

^٢ - أرسلان، مصدر سابق، ص ٨٩

^٣ - مانتران، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢٣

^٤ - أرسلان، المصدر السابق، ص ٦٩٢

^٥ - فريد بك، مصدر سابق، ص ١٦٤.

^٦ - باربارو، مرجع سابق، ص ٦٩

وأحصع بلاد الصرب والبومنة والهرسك، واستمر على هذا النشاط إلى أن وافته المنية عام/١٨٨٦هـ/١٤٨١م^(١).

لقد دام حكم السلطان محمد الفاتح إحدى وثلاثين سنة، استطاع خلالها أن يسيطر على اثنتي عشرة ولاية، وأكثر من مئتي مدينة وبنى العديد من المدارس والجوامع^(٢)، كما طبق سياسة التسامح الديني على السكان الأصليين للمدن التي سيطر عليها، ومنحهم الحرية الاقتصادية والفكرية، فترك لهم كنائسهم وممتلكاتهم، ولم يسمح لأكثر الك بالبقاء في القسطنطينية لكيلا يتأثروا بمفاتيح وجمال هذه المدينة ويعيها، فبتفاهوا عن تحقيق الهدف الرئيسي وهو بناء الإمبراطورية العثمانية^(٣).

وبعد وفاة السلطان محمد الفاتح، نشبت حرب أهلية في الدولة العثمانية، وكان سببها الخلاف بين ولدي السلطان محمد الفاتح بياريد الثاني وجم (جام) على الحكم، مع العلم أن السلطان قد أوصى بالحكم لابنه جم الذي كان يراه مناسباً للحكم أكثر من أخيه بياريد الثاني. وقد تم استدعاء جم الذي كان يقيم في قونية من قبل الصدر الأعظم محمد باشا، ليتسلم الحكم، بعد محاولته إخماد حبر وفاة السلطان محمد الفاتح عن الجميع. ولكن الإكشارية التي كانت تميل إلى بياريد الثاني قد علمت بالأمر، و قتلت الصدر الأعظم وعينت ابن بياريد قرقوص، نائباً عن والده حين وصوله^(٤).

ولما تسلم بياريد الثاني الحكم كانت أول حروبه الداخلية ضد أخيه جم، فتواجه الأخوان واقتتلا بالقرب من مدينة بني شهر، وانتهت الحرب بانتصار بياريد الثاني، على أخيه جم^(٥) الذي هرب إلى مصر لفترة وجيزة^(٦)، ثم عاد مرة ثانية لمواجهة بياريد الثاني نتيجة الدعم الذي تلقاه من أنصاره في مصر. ولكنه انهزم مرة ثانية، والتجأ هذه المرة إلى قرس القنيس يوحنا في روس سنة/١٨٨٧هـ/١٤٨٢م، وعندها عرض بياريد الثاني عليهم مبلغاً من المال

^١ - عامر، تاريخ الامبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٢٥٨-٢٥٩

^٢ - رضا بر، عثماني تاريخي، ٨ مجلد، استانبول، ١٩٢٤م، ج ٢، ص ٣٥٠

^٣ - نور، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥١-٣٥٢

^٤ - محمد بن طولون، مفاكهة الحلال في حوادث الرمان، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٤٧

^٥ - فريد بك، مصدر سابق، ص ١٨٠

^٦ - اصناف، مصدر سابق، ص ٥٤

مقابل ألا بطلقوا سراح جم، فوافقوا على ذلك وأرسلوه إلى فرنسا ومن ثم نقل إلى روما. وفي روما حاول جم الفرار من أيدي الباب في أثناء هجوم ملك فرنسا شارل الثامن على إيطاليا. ولكن السلطان بيازيد الثاني كان قد أرسل مبلغاً من المال إلى بلبا روما اسكندربورجيه لكي ينس السم لجم ويقتله. وقد تم ذلك في نابولي عام/٩٠٠هـ/١٤٩٥م/ وبذلك تخلص بيازيد الثاني من أخيه جم^(١).

كان السلطان بيازيد الثاني يميل إلى الانزواء والعزلة والبساطة في حياته، حيث خصص وقته وأمواله لبناء الروايا والتكايا وإرسال الصدقات إلى فقراء مكة والمدينة. ولهذا عدت فترة السلطان بيازيد الثاني فترة جمود على صعيد التوسعات العسكرية^(٢)، ما أدى إلى ازدياد نفمة الإنكشارية عليه، إذ تعاونت بدورها مع أحد أبنائه وهو سليم، وقررت عزله عن العرش. وبالفعل تم ذلك، وتسلم سليم الحكم سنة /٩١٨هـ/١٥١٢م/ بدلاً منه، ويقال إنه دس السم لوالده وقتله^(٣).

لقد كان سليم أصغر أولاد السلطان بيازيد الثاني، وأطلق عليه لقب (ياور أي الفاطح). وبعد استلامه الحكم كان لا بد له من أن يهيئ الحلاقات الاسرية التي كانت قائمة آنذاك^(٤)، فعمل على تحية أكبر إخوته أحمد الذي كان يدعي حقه في ولاية العرش، وعين ابنه سليمان حاكماً على استنبول^(٥). ولكن تبين للسلطان سليم أنه كان لا بد له من مواجهة أخيه أحمد الذي هرب مع ابنه علاء الدين إلى مدينة بورصة^(٦). ولما علم أحمد بقدم السلطان سليم على رأس جيش هرب إلى ملاطية وأرسل ابنه إلى تبريز ليصبح تحت حماية لشاه إسماعيل الصفوي الذي كان بدوره ينتظر الفرصة المناسبة لمواجهة الدولة العثمانية^(٧) وفي أثناء ذلك توجه

أرسلان، مصدر سبق، ص ١١٥

^١ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٧٦

^٢ - عمر، تاريخ لامبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٢٦١

^٣ - ابن محمد للحمي لإثبيلي، الدر المصان في سيرة المظفر سيم جل، تحقيق هانس أوست، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢م، ص ٢

^٤ - محمد سهيل طغوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، بيروت، دار الفعائن، ط ٢، ٢٠٠٨م، ص ١٤٧

^٥ - عمر، الدولة العثمانية، تاريخ ووثائق ص ١٤٤.

^٦ - طغوش، المرجع السابق، ص ١٤٧

السلطان سليم إلى مدينة بورصة وبعدها إلى ولاية صروجان التي كان أخوه قورقود قد استقر فيها، وتنازل بدوره لأخيه سليم عن كل حقوقه، وعلى الرغم من ذلك قام السلطان سليم بقتله وقتل أولاده جميعهم. لكن أحمد فرّ إلى الصوفيّين ثم المماليك لأنه كان يخاف من نواياه المستقبلية وذلك في عام/٩١٩هـ / ١٥١٣م^(١).

وجدير بالذكر أن السلطان سليم كان شكاكاً ولا يثق بأحد، ولذلك استخدم القتل لكي ينهي شكوكه تجاه أي شخص .

أما أحمد فقد أراد أن يواجه أخاه سليماً، وأن يصع حداً لهذا النزاع، فجمع جيشاً من أنصاره وجرى القتال في مدينة يكي (بي) شهر إلا أن أحمد خسر المعركة أمام السلطان سليم. ونتيجة هذه الهزيمة هرب ولدا أحمد، أحدهما إلى تبريز وهو الأمير مراد الذي التجأ إلى الشاه إسماعيل الصفوي^(٢)، أما الآخر وهو علاء الدين، فقد ذهب إلى السلطان قنصوه الغوري في مصر، فما كان من السلطان سليم سوى أنه طلبهم من هذين الحاكمين. ولكنهما رفضا تسليمهما، وهذا ما حزّ في نفسه فقرر أن ينتقم من هذين الحاكمين.

وبعد أن اطمأن السلطان سليم من انتهاء المشكلات على الصعيد الداخلي، عاد إلى أدرنة بعد أن قضى على كل مناقسيه في الحكم، ثم عقد اتفاقيات مع البندقية والمجر وروسيا، مهدداً بذلك لعهد من العلاقات السلمية مع دول أوروبا، لأنه أراد أن يوجه جلّ اهتمامه للجهة الشرقية، لمواجهة عداءه الصفويين والمماليك^(٣).

لقد ذكر جونت باشا أن فترة السلطان سليم الأول امتازت بنشاط حربي كبير^(٤)، وكما عرف عنه أنه راهبة بحس التصرف، وقارئاً متميزاً وشاعراً، ولكنه حاد الطباع وسفكاً للدماء؛ فقد لطمخ يديه بقتله الكثير من الأبرياء .

^١ - د. إ. قازان، سلاطين بني عثمان بين قتال الأخوة وفتة الإنكشارية، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط١، ١٩٩٢م، ص٤٦

^٢ - د. ج. يو. ريدون، تاريخ إمبراطورية من التأسيس إلى السقوط، عمل، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٣م، ص٧٧

^٣ - طعوش، مرجع سابق، ص ١٤٧-١٤٨

^٤ - جونت، مصدر سابق، ح٢، ص٤٥٠

لقد توفي السلطان سليم بعد أن حكم حوالي ثماني سنوات/٩٢٦هـ/١٥٢٠م/ و دور في استنبول^(١). وحلّفه في تولي العرش ابنه سليمان/١٥٢٠-١٥٦٦م/^(٢)، الذي عرف بالقانوني، والذي سعى إلى توسيع حدود دولته فوصلت في عهده إلى أوجها. فقد امتدت من نهر الدانوب إلى شلالات النيل، ومن العراق إلى جبل طارق، ليجعل من الدولة العثمانية أعظم إمبراطورية في ذلك الوقت^(٣).

وهكذا نرى أن السلاطين العثمانيين، بدءاً من المؤسس عثمان، حتى عصر التوسع والازدهار في عهد القانوني، لم يعتمدوا أنصاف الحول في خطواتهم التوسعية كافة؛ فضلاً عن ذلك فقد اعتمدوا أساليب عدة مكنتهم من إقامة دولتهم المتنقلة من سكودا إلى يني شهر فيورصة فاربسق فاربسق فاربسق، وما إن بلغوا استنبول حتى حولوها إلى إمبراطورية مترامية الأطراف، حيث حكمت قارات ثلاث^(٤).

ولكن وبالمقابل، لم يكن العثمانيون غائبين بالأحطار التي نواجههم، لأنهم كانوا مدركين أن فشلهم ولو جزئياً، قد يعرّضهم إلى الصياح الأبدي. ولهذا نرى أنهم استفادوا بشكل كبير من الظروف التي كانت قائمة آنذاك، والتي أسهمت إلى حد كبير في تحقيق إنجازاتهم. وقد تمثلت هذه الظروف بملي:

أولاً: وجود العثمانيين واستقرارهم بالقرب من حدود الإمبراطورية البيزنطية التي تعاني من التفكك والضعف، إذ إن سلطة الإمبراطور لم تكن تتجاوز أسوار القسطنطينية وكان هذا إيداعاً يروا هذه الدولة، التي أصابها التفكك داخلياً .

ثاني: إن معظم سكان الولايات المجاورة للعثمانيين، كانوا راضين بالتخلص من استبداد وظلم حكم القسطنطينية، ومن الفوضى التي تعرضت لها مناطقهم. فقد استغل هؤلاء المتمردون ظهور العثمانيين لمساعدتهم على نيل الحرية والاستقلال .

صامر، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، دراسة تاريخية واجتماعية، ص ٢٦٤

² - Impero ottoman, all about turkey – burak sansal, 23,2,2010,s2.

^٣ - مجموعة من المؤلفين، عصر السلطان عبد الحميد وأثره في الاقطار العربية، ج٢، دمشق، المطبعة الهاشمية، ط٢، ج٢، ص٩

^٤ - ISMAIL HAKKI UZUN ÇARŞILI, sarag teskilati, ankara, 1978, s 306-307

ثالثاً: إن عدم وجود منافس للعثمانيين، أسهم في لجوء سكان الإمارات والمسن المجاورة للإمبراطورية البيزنطية إليهم.

رابعاً: من أهم الأسباب التي أدت إلى بهوض العثمانيين وارتقائهم السريع، هو انصاف السلاطين الأوائل أمثال السلطان عثمان وأرخان، بالكرم والثبات وعدم التعصب وهذا ما جعل المسيحيين يطمئنون لحكمهم، كما أن الصرايب التي فرصت على الأهالي في بداية عهدهم كانت صئيلة نوعاً ما .

خامساً: إن الدولة العثمانية منذ تأسيسها، سعت إلى وضع الأنظمة والقوانين لمختلف فئات المجتمع، لأن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يسعون إلى تنظيم الدولة، -اخلياً، بعية التوسع خارجي.

وبهذا يمكن القول: إن اعتماد العثمانيين على النظام العسكري الصارم، منذ المراحل الأولى حتى العقد الأخير من القرن السادس عشر، أسهم في إقامة دولة عثمانوها بشكل يند في كنفها للعثمانيين من آلاف المسنين^(١).

الفصل الأول

وضع الدولة العثمانية قبيل تسلم السلطان سليمان الحكم.

١- أوضاع أوروبا عند تسلم السلطان سليمان الحكم.

٢- حياة السلطان سليمان القانوني :

- عائلة السلطان سليمان.

٣ - قوانينه

- قانون نامه.

٤- علاقة السلطان سليمان بالعلماء والمدرسين

وضع الدولة العثمانية قبيل تسلم السلطان سليمان الحكم :

لقد حلف السلطان سليمان والده السلطان سليم الأول/٩١٨-٩٢٦هـ/١٥١٢-١٥٢٠م/ الذي ترك لولده ملكاً كبيراً وواسعاً، تمثل بالأراضي التي سيطر عليها خلال فترة حكمه التي دامت ثمانين سنة تقريباً.

وكما ذكر سابقاً، فقد تعرض السلطان بييريد الثاني (والد السلطان سليم) في أواخر حكمه، لتمرّد أولاده الثلاثة، إذ تمكّن أحدهم من الإطاحة به وهو سليم، وذلك في عام/٩١٨هـ/١٥١٢م^(١)، وقد عرف بشراسة طباعه وحبّه لسفك الدماء^(٢)، " فقد قتل مائتين وخمسة عشر من أولاده حتى لم يبق منهم أحد"^(٣).

ولما تولى السلطان سليم عرش الدولة العثمانية، قرّر التوقف عن التوغّل في أوروبا، وفصل التوجّه بجيوشه نحو الشرق. وقد اختلف المؤرخون في تفسير هذا الأمر، فذهب بعضهم إلى أن الدولة العثمانية قد اكتفت من حروبها في العرب، ووصلت إلى مرحلة التّشبع في نهاية القرن الخامس عشر، وأنه يجب عليها أن تبحث عن ميادين جديدة للتوسع في القرن السادس عشر.

في حين يذهب بعض المؤرخين إلى أن الأحداث التي جرت في أوائل القرن السادس عشر، في الشرق، هي التي قرّصت على الدولة العثمانية التّوغل في ذلك الاتجاه، وذلك لحملة أسيا الصغرى. والمقصود بأحداث الشرق هو زحف القوات البرتغالية على حدود الشرق العربي وموافذه البحرية، وكذلك الحطر الإسباني الذي هدد المغرب العربي. وبعبارة أخرى: لقد أدرك العثمانيون أن هدفهم من إعلان الحرب على الدولة المملوكية هو حماية

١- عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٧٦

٢- عمر، الدولة العثمانية، تاريخ ووثائق، ص ١٤٤

٣- أصناف، مصدر سابق، ص ٥٧

الحرمين الشريفين والمدن الإسلامية المقدسة والعالم الإسلامي من البرتغاليين، الأمر الذي عجز عن تحقيقه المماليك^(١).

فصلاً عن ذلك، فإن العثمانيين لم يقبلوا بأن يمروا بالجهاد، والمماليك سرء الإمارة الإسلامية، ولا سيما بعدما تمكنوا من فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، إذ إن فتحها يعرف بالأهمية معركة عين جالوت التي انتصر فيها المماليك على المغول سنة ١٢٦٠م^(٢).

وبعد أن تمكن السلطان سليم من القضاء على إخوته، أعلن الحرب على الشاه اسماعيل الصفوي بإيران، ومن ثم سيطر على أمر المماليك. وكان سبب هذه الحرب أن السلطان سليماً ادعى أن الشاه اسماعيل الصفوي كان يعمل على بث المذهب الشيعي بين العثمانيين، على يد دراريش القرل باش، كما أنه كان يحاول دائماً إثارة الفلاقل في الدولة العثمانية، حيث بث بدور الفساد في كل أرجاء الدولة^(٣). وهذا ما سبب خلافاً مذهبياً حاداً بين الطرفين، بالإضافة إلى أنه كان يرغب في إنهاء التحالف الذي يجمع بين الصفويين والبرتغاليين وبعض الدول الأوروبية في العرب ضد العثمانيين، في وقت قد تزايد فيه الخطر البرتغالي.

لقد هدفت التحرك العثماني إلى قطع العلاقة التي تجمع بين المماليك والصفويين. وكان السلطان سليم على علم برغبة الصفويين بالسيطرة على الدولة المملوكية، في وقت اتجهت فيه أنظار العثمانيين إلى دولة المماليك أيضاً^(٤)، فقرر السلطان سليم وضع حد للخطر الصفوي واستئصال بذور الفساد. وذلك في عام/٩٢٠هـ - /١٥١٤م، إذ قام بمقد اجتماع في مدينة أدرنة جمع فيه الوزراء والقادة، وقرر إعلان الحرب على الشاه الصفوي اسماعيل^(٥).

١ - محمود محمد الحوري، تاريخ الدولة العثمانية في المصور الوسطى، القاهرة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ط١، ٢٠٠٢م، ص ٢٠٨.

٢ - أحمد رفيق عثمانلي تاريخي، الجزء ٦، استنبول، ١٩٢٦م، ج ٤، ص ١٧٥.

٣ - الميرالاي اسماعيل سرهنگ، تاريخ الدولة العثمانية، تقديم ومرجمة حسن قرين، بيروت، دار الفكر الحديث، ١٩٨٨م، ص ٦٦.

٤ - نائبة محمود مصطفى، العصر المملوكي (تصعيد الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية)، القاهرة، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٦م، ص ١٥٦ - ١٥٧.

٥ - سرهنگ، مصدر سبق، ص ٦٦.

وبالفعل قامت هذه الحرب بين الطرفين (العثماني والصعوي) وانتهت بانتصار العثمانيين في معركة جالديران^(١)، التي تعد نقصة تحول مهمة بالنسبة للدولة العثمانية بشكل عام، وللسلطان سليم بشكل خاص، الذي استخدم في هذه المعركة البارود والرصاص. وقد دهش المماليك من استخدام السلاح الناري، كما بدأ الأمراء والحكام في المصطفة نتيجة هذه المعركة، يأخرون حترهم من السلطان سليم ويخشون سطوته. وبعد تلك المعركة صم السلطان سليم إلى ملكه ولايتي ديار بكر وكرديستان، وكان قد احتل تبريز وأحد معه أبرر تجارها وعلمائها وحر فيهما إلى الأستانة^(٢).

بعد الانتصار على الصعويين، توجه السلطان سليم الأول للسيطرة على بلاد الشام والقضاء على سلطانها قانصوه العوري، الذي تحالف سابقاً مع الشام الصعوي لمحاربة الدولة العثمانية، حيث أرسى السلطان العوري بعض قوته كي تمتع وصول المساعدات والإمدادات لجيش سليم، وهذا ما أغضبه كثير^(٣)، ومما زاد الطين بلة أن قانصوه العوري استقى كلاً من سليمان بك وعلاء الدين بك ولدي شقيق السلطان سليم الأول في مصر. وعلى الرغم من أن المتية قد وافتهما نتيجة أصيبتها بالطاعون، إلا أن هذا التصرف أغضب السلطان سليم كثيراً. أما السبب المباشر الذي دفع للسلطان سليم الأول، إلى إعلان الحرب ضد قانصوه العوري، فهو هروب خوشقدم شاد الشون إلى بلاط السلطان سليم الأول، وهو من ممالك قانصوه العوري. وكان للعوري قد صادر أملاكه وأخذ أمواله، فما كان من خوشقدم سوى الهرب واللجوء إلى السلطان سليم العدو للندود لقانصوه العوري ولما أصبح خوشقدم في بلاط السلطان سليم بدأ يحرضه على قانصوه العوري، وأخبره عن أحوال مصر المتردية وعن

* معركة جالديران، وتكتب أيضاً تشالديران نسبة لاسم الموقع الذي جرت فيه قرب تبريز سنة/١٥١٤م. وانتهت بانتصار العثمانيين وصم ديار بكر وما حولها إلى أملاكهم. محمد بن مصود الجليبي الملقب بابن أجا، العراق بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير بشبك بن مهدي للدوادار، صبعة محمد أحمد دهماس، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٨٦م، ص ٢٣٠.

١ - ابن أجا، المصدر السابق، ص ٢٣٠.

٢ - عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية معتزلة، ج٢، القاهرة، مكتبة الأنكلو المصرية، ج١، ص ٢٥.

٣ - محمود مصطفى، مرجع سابق، ص ١٥٧.

الرشوة المتفشية بين قصاة مصر . ولم يقف خوشقدم عند هذا الحد، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما ساعد السلطان سليم على الاتصال بخاير بك نائب حلب، وجال بردي العرالي نائب حماة اللذين حانا قنصوه العوري عندما قنما المساعدة للسلطان سليم صده^(١). وبهذا أصبح السلطان سليم يملك للمموعات الكافية لإعلانه الحرب على المماليك وقتلهم العوري الذي بدأ يجهر جيشه، بعد أن علم باستعدادات السلطان سليم، ووصول الأساطيل العثمانية إلى شواطئ الإسكندرية^(٢).

وكما هو معلوم، فإن العلاقة العثمانية المملوكية كانت في وضع غير مرض وم يكن السلطان سليم الأول هو أول من احتك بالمماليك، فقد سبقه إلى ذلك/١٣٨٩ ١٤٠٢م/ السلطان يلدزم(الصاعقة) بياريد الأول الذي هجم إمارة دي القبر(العادر) ودخل عاصمتها ألبستان سنة ١٣٩٣م، ومنها تحرك إلى حلب، ثم قفل راجعاً إلى بلاده، لأن أخبار تحركات تيمورلنك كانت الحدث الأهم آنذاك^(٣).

وكما ذكر سابقاً، فإن السلطان سليم الأول تميز بقسوته ورفضه أنصاف الحلول. ولهذا عمد إلى كسر شوكة الصفويين، وبعدها توجه إلى تحطيم المماليك لأنهم استهزؤا كثيراً بالدولة العثمانية، وتجاهلوا رغباته وأيقوا أنهم رعماء المسلمين بامتياز، فلم يقدموا له المساعدة في أثناء محاربتهم الصفويين، واستقبلوا أحاه أحمد وقبلة جم. ولعطي عمله العسكري ضد المماليك الشرعية، جمع كبار قادته بحصور شيخ الإسلام علي الجمالي، وطرح عليه عدة أسئلة، وما يهما السؤال التالي (ما رأيك في أمة (يقصد المماليك) تكتب بيات الله على دنانيرها ودرهمها، وهي تعلم أن اليهود والنصارى يتداولونها هم وبقية الملاحدة من أهل الأهواء والنحل، فيدسوها، مرتكبين أفعاح الخطايا بحملهم إياها إلى أماكن الحلاء لقضاء حاجاتهم. فما الحكم الشرعي على هذه الأمة) وبالطبع لم تكن إجابة المفتي بأقل غرابة من حماقة السائل والسؤال، فلقد أباح المفتي علي الجمالي زيادة هذه الأمة، إذا لم تقلع عن ارتكاب هذا العمل الشائن^(٤).

^١ - ابن اجا، مصدر سابق، ص ٢٣٠-٢٢٩

^٢ - سرهك، مصدر سابق، ص ٧١

^٣ - جويت باشا، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٢٩

^٤ - محمود علي عمر، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، دمشق، دار الصفا، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ١١٤.

ولما حصل السلطان سليم على شرعية الجهاد توجه بجيوشه باتجاه حلب. وبعد معركة مرج دابق/٩٢٢هـ/١٥١٦م/ أرسل علماء حلب وأشرافها برسالة استسلام إليه، فأحصعت بذلك قلعة حلب وحماء وحمص وأنطاكية للدولة العثمانية، ثم دخل قيم بعد السلطان سليم إلى دمشق التي خصعت له أيضاً، وأظهر بعدها العبيد من شيوخ العرب فروص الطاعة له، وبذلك أصبحت بلاد الشام تحت سيطرته^(١).

أما عن أبرز أسباب انتصار السلطان سليم على المماليك هو دخوله هذه المعركة على رأس جيش كبير ودعمه لهذا الجيش بالأسلحة النارية التي لم تكن متوفرة عند عدوه، بالإضافة إلى الروح المعنوية المتأججة لدى الجيش العثماني نتيجة لانتصار لهم المتتالية سواء كانت في البلقان أو جالديران، وبالمقابل افتقر الجيش المملوكي إلى وحدة الصف^(٢)، بالإضافة إلى افتقارهم إلى الروح المعنوية بعد سماعهم بانتصارات العثمانيين، وأخيراً افتقارهم إلى الخبرة القتالية ورفضهم استخدام الأسلحة النارية، كما كان للحيانة دور بارز في هزيمة المماليك وتفويض دولتهم، سواء كان قبل معركة مرج دابق لم بعدها، إذ كان كبار رجال الدولة المملوكية قد حرصوا السلطان سليم سرّاً وشجعوه على غزو الدولة المملوكية^(٣).

أما بالنسبة للنتائج التي تمخضت عن حروب السلطان سليم ضد المماليك، صم شرق الأناضول إلى الدولة العثمانية، مما سهل السيطرة بشكل كامل على طرق التجارة الدولية التي تأتي بحريز إيران وغيره من منتجات الشرق الأخرى، وهذا ما أدى إلى ريادة كبيرة في دخل الخريفة العثمانية^(٤).

وبعد انتصاره في بلاد الشام تابع السلطان سليم سيره إلى مصر قلب العالم الإسلامي التي أصبح يحكمها طومان باي بدلاً عن عمه قانصوه الغوري الذي قتل في مرج دابق^(٥)، وهنالك من الإشارة إلى أن المماليك في تلك المرحلة قد وصلوا إلى درجة كبيرة من الصع

^١ - كوندز، أورتورك، مرجع سابق، ص ٢١٣

^٢ - ابن أجا، مصدر سبق، ص ٢٥٨

^٣ - المصدر نفسه، ص ٢٥٨-٢٦٠.

^٤ - الحريري، مرجع سابق، ص ٢٠٨

^٥ - أصعب، مصدر سابق، ص ٥٨

حتى إن العوصى والأتحال حجبتهم عن رؤية الحظر المحقق بهم، كما أن الحروب المتتالية صد المماليك من قبل العثمانيين أرهف المماليك وأفقدتهم الكثير من صباطهم وأمرائهم و أفراد جيشهم، فقد كانت سيباً وعاملاً مهماً في إضعاف المماليك.

ولما أصبح السلطان سليم على مشارف مصر أرسل إلى طومان باي يعرض عليه أن يصبح نائبه في مصر، وفي الوقت ذاته كان حابر بك الحائر يرسل إلى زعماء العشائر وأمراء مصر يطلب منهم أن يدخلوا في طاعة السلطان سليم^(١)، ولكن طومان باي رفض عرض السلطان سليم وأصر على موجهته مع أنه كان يعلم صمياً ضعف موقعه معارفة بقوة الدولة العثمانية^(٢)، فكانت المواجهة الحاسمة عام/٩٢٢هـ/١٥١٧م/ في معركة الريدانية^(٣)، التي احتدم القتال فيها بين الجيشين العثماني والمملوكي^(٤)، وكانت نتيجتها هزيمة ساحقة للمماليك وزعيمهم طومان باي وإلقاء القبض عليه وإعدامه على باب زويلة^(٥).

وقد وصف لنا المؤرخ ابن رجب اليوم الذي شهد مقتل السلطان طومان باي وإعدامه قائلاً:

" فلما وصلوا إلى باب زويلة وجدوا الحبل مريحاً، فأسرعوا به وأنزلوه من على البعثة، وصلبوه على غير مهلة، ثم بعد ذلك أنزلوه وساروا به في بعض إلى قبة السلطان العوري، فغسله القاضي أصيل الطويل، وكفنه من ثياب أرسلها له السلطان سليم الأول من خاص الموحي الربيع، ثم صلى عليه القاضي أيضاً كما أوصاه، ودفنوه في فسقية القبة المذكورة. وأرسل السلطان سليم ثلاثة أكياس من الفضة تصدقوا بها عليه^(٦).

^١ - الحريري، مرجع سابق، ص ٢١٩

^٢ - مصطفى، مرجع سابق، ص ١٦٣

^٣ - أحمد الزمال ابن رجب، آخره المماليك/٩٦٠هـ/١٥٥٧م/، تحقيق عبد المنعم طمر، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ١٢٢، ١٢٣

^٤ - الحريري، المرجع السابق، ص ٢٢٠

^٥ - ابن طولون، مصدر سابق، ص ٣٤٣.

^٦ - ابن رجب، مصدر سابق، ص ٢٥٣

وبإعدام زعيم المماليك طومان باي تنتهي دولة المماليك لتتحل مصر عهداً جديداً من تاريخها فقد تحولت من دولة مستقلة إلى ولاية عثمانية، ولما دخلها السلطان سليم أقام فيها حوالي ثمانية أشهر قام خلالها بجمع كل البائسين والنجارين والمهملين وصناع الأسلحة والكتب والنجار، وأرسلهم إلى الإسكندرية ثم بم تسفيرهم إلى العاصمة اسطنبول، وكانت نتيجة هذا التصرف أن تقهرت الصناعة في مصر إلى حد كبير^(١).

وبذلك تم للسلطان سليم السيطرة على مصر وبلاد الشام وتقبّل ولاء زعماء القبائل البدوية الكبرى وشريف مكة وبالتالي تمت له السيطرة على المشرق العربي^(٢).

ومن الجدير بالذكر أنه في أثناء وجود السلطان سليم في مصر، قدم إليه شريف مكة المكرمة يحيى ابن أبي البركات، ومنحه مغلّيج الحرمين الشريفين ومدد ذلك الوقت صار اسمه يذكر في المساجد، ويقال عنه (حادم الحرمين الشريفين)^(٣)، وودّي به أميراً للمؤمنين بعد أن تنازل له محمد المتوكل على الله آخر خلفاء بني عباس عن الخلافة الإسلامية^(٤).

ويبدو أن استيلاء الدولة العثمانية على بلاد المشرق ووادي النيل أكسبها السيطرة على البحر الأحمر والمحيط الهندي، وأسهم في انفتاحها على البحر الأبيض المتوسط وإفريقيا الشمالية، وهذا بدوره أدى إلى وفرة الموارد الاقتصادية والمالية التي تحتاجها دولة كبيرة في طور التوسع مثل الدولة العثمانية.

والواقع أن السلطان سليم كان يتربّس بشكل دائم الحركة التجارية بين أعظم المواقع على العالم، كما أنه كان على اطلاع بالتوغل البرتغالي وتعرّصهم لحركة التجارة القائمة بين المناطق المنتجة مثل الهند وماليزيا وبين الأسواق التجارية الكبيرة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط والبحر الأحمر^(٥)، فاستعانت الدولة العثمانية إلى حد كبير من الموارد التي

^١ - ابن أجا، مصدر سبق، ص ٢٩٨

^٢ - الحريري، مرجع سابق، ص ٢٢١

^٣ - سرهنگ، مصدر سبق، ص ٧٤

^٤ - قارن، مرجع سابق، ص ٤٧

^٥ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، أصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر

العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ص ١١٩

حصلت عليها من الجمارك المعروضة على التوابل والبضائع الثمينة، وكل هذا ساعد في إعداء الحرية العثمانية، وبفصل الضرائب والجباية التي تحصل عليها الدولة العثمانية من الأعيان المحليين، والذهب الذي تأتي به من السودان وإثيوبيا عن طريق نهر النيل، سيصاعف دخل السلطان إلى حد كبير وهذا كله سيساعد السلطان سليمان القانوني في تمويل حملاته العسكرية الواسعة^(١).

وبعد عودة السلطان سليم إلى استنبول من جولاته في المشرق، قام بتطعيم أمور بلاده^(٢)، حيث عمل على إحياء عمل الفخزمية بعد أن كانوا قد تفككوا عن عملهم بوعاً ما، كما حقق حلمه في تحديث الأسطول العثماني وتقويته، فبنى داراً لصناعة السفن في منطقة تدعى قاسم باشا على القرن الذهبي، ووسع دور الصناعة التي شيدت في غاليليو (جنوب إيطاليا)^(٣)، ولما عرض عليه حيدر الدين باربروس أن يصنع سفنه ورجاله تحت إمرته قبل السلطان سليم دون تردد، وهذا بدوره سيعير مصير الدولة العثمانية في البحر^(٤)، ولم توفي السلطان سليم سنة/٩٦٦هـ - ١٥٢٠م/ كانت كل دول جنوب نهر الدانوب وآشيا ومولدافيا* والروملي تحت السيطرة العثمانية، بالإضافة إلى ألبانيا وموربا وبلاد القرم^(٥)، وفي الشرق هزم الصغويين وقائدهم الشاه إسماعيل الصفوي ونجح في القضاء على المماليك

ويمكن القول إن الدولة العثمانية بجيشها القوي وأموالها الطائلة ستعرف أيام المجد والنصر في عهد السلطان سليمان القانوني.

^١ - أنثري كلو، السلطان سليمان القانوني، تحرير محمد الرزقي، تونس، دار التركي للنشر، ١٩٩١م، ص ٣٨

^٢ - محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة دمشق، دار الفلم، ط ٢، ١٩٩٩م، ص ٣٢

^٣ - كلو، مرجع سابق، ص ٣٨

^٤ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٩٣

*آشيا ومولدافيا، مقاطعتان من رومانيا احتلها العثمانيون - تقع الأولى في جهة الجنوب بين سلسلة جبال الكرباط ونهر الدانوب والثانية في الجهة الشمالية الشرقية على الحدود الروسية. كلو، المرجع السابق، ص ٣٨.

^٥ - كلو، المرجع السابق، ص ٣٨

وبالتالي فإن هذه الحملات التوسعية التي قادها السلطان سليم باتجاه البلاد العربية حققت لأولاده ملكاً قوياً وعرشاً متيناً. كما أنها حملت الدولة العثمانية مسؤولية الدفاع عن الشعوب الحصعة لسيطرتها، خاصة أن المسلمين بنووا يتطلعون إلى مساعدة العثمانيين لهم بعد أن اعتدى البرتغاليون على المس والموانئ الإسلامية في السواحل لأفريقية بالإضافة الى ملاحقة الإسبان للمسلمين الأندلسيين الهاربين إلى شمال افريقي، و بالتالي أعطت لدولتهم الناشئة طابعاً دينياً كان أبلاؤه وأجدانه يطمحون لتحقيق ذلك، بالإضافة إلى منح السلاطين العثمانيين ألقاباً إسلامية صممت لهم هيمنة بيئية على العالم الإسلامي^(١).

١ عامر ، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق ، ص ١٤٦

١ - أوضاع أوروبا عند تسلم السلطان سليمان الحكم :

حلال الفترة التي تسلم فيها السلطان سليمان القانوني للحكم، ظهر مجموعة من الحكام والملوك هدفهم والتوسع والسيطرة وكانوا يعدون عمالقة في العلاقات الدولية، سواء أكل ذلك في العرب الأوروبي أم في بلاد المشرق ومن أبرزهم :

١ _ الإمبراطور شارل الخامس (شارلوك) ملك إسبانيا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة.

٢ _ فرانسوا الأول : ملك فرنسا وكان ينافس شارل الخامس على عرش الإمبراطورية .

٣ _ هنري الثامن ملك إنكلترا الذي تمكن من تحويل إنكلترا إلى دولة قيادية، لعبت دوراً كبيراً على الصعيد العالمي من القرن السادس عشر حتى الحرب العالمية الثانية .

وفي الشرق ظهر أيضاً مجموعة من العمالقة الذين يعدون من بناة الدول والإمبراطوريات ومن أبرزهم سيم الأول وسليمان القانوني وإسماعيل الصفوي^(١).

ومن الواضح أن نظرية التوازن الدولي كانت مهيمنة على العلاقات الدولية في أوروبا كما أنها سيطرت أيضاً على حوال المشرق العربي، الذي ظهرت فيه، الدولة العثمانية التي كانت على استعداد تام لحماية البلاد العربية ولمواجهة البرتغاليين، في الوقت الذي فقدت فيه الدولة الصفوية القدرة على إقامة إمبراطورية في الشرق العربي، كما أنها لم تعد قادرة على الوصول إلى البحر المتوسط، لأن العثمانيين كانوا قد أغلقوا الطريق أمام الدولة الصفوية .

وبينما كانت الدولة الصفوية مستعدة للتحالف مع البرتغاليين والدول الأوروبية ضد الدولة العثمانية، كانت الدولة العثمانية قد تحالفت مع فرنسا على اعتبار أن عندهما مشترك وهو شارل الخامس (شارلوك) إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة^(٢)، ومن الجدير بالذكر أنه حتى عام/١٠٠٤هـ/١٥٩٦م كتب كل المسائل والقضايا على الصعيد الدولي تحسب العثمانيين^(٣).

^١ - عبد العزيز سليمان هواز، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار الفكر العربي، ص ١٢٧

^٢ - هواز، المرجع نفسه، ص ١٢٩ - ١٣٠.

^٣ - إيبالجبك، مرجع سابق، ص ٥٧.

الذين كانوا يفكرون بشكل جدي التوسع في لوررية بعية تحقيق حلمهم بإقامة إمبراطورية مترامية الأطراف.

فقد كان السلطان سليمان القانوني مطلعاً على أوصاع أوروبا وسياسات دولها منذ أن كان أميراً، والواقع أن حكام إسبانيا كفوا متورطين بالعديد من المشاكل في القرن السادس عشر فقد علم السلطان سليمان بالمناقشة الشديدة على تاج الإمبراطورية الرومانية، بين أسرتي آل فالو وعلى رأسهم فرانسوا الأول ملك فرنسا وآل هابسبورغ* وعلى رأسهم شارل الخامس (شارلوكا) ملك إسبانيا^(١).

بالإضافة إلى مشكلة نقل الثروة المعدنية من جبال الأنديز في أميركا وتصنيعها، ومحاولاتهم لإحصاء الثروات المتكررة في هولندية، وهناك مشكلة الحرب مع انكلترا، وكان تداعيل هذه المشاكل مع عملية تنظيم المقاومة ضد الدولة العثمانية معقد إلى حد كبير بالنسبة لحكام إسبانيا^(٢).

وهذا ما جعل السلطان سليمان القانوني مصمماً على تقسيم هذه الدولة وتشيتها، خاصة أن إسبانيا كانت الدولة الوحيدة اداك التي تمتلك أقوى جيش وأسطول، فضلاً عن امتلاكها مستعمرات كبيرة في أميركا أيضاً^(٣).

* أسرة هابسبورغ، أسرة حكمت النمسا من عام ١٢٧٦ - ١٣٣٦ هـ / ١٢٧٨ - ١٩١٨ م، في القرن الثاني عشر اقتطعت أراضي شاسعة في سويسرا وألمانيا ثم نالت عرش جرافيا سنة ١٢٧١ هـ / ١٢٧٣ م، مع دوقلدي هابسبورغ الذي احتل النمسا ومقاطعتي ستيريا وكارنيوب، ثم ضم حلفاؤه إلى المملكة بوهيميا والمجر وإسبانيا وهولندا وقسماً من إيطاليا ومقاطعات شاسعة من العالم الجديد (أميركا)، وابتداء من عام ٨٤٣ هـ / ١٤٤٠ م، إلى نهاية الإمبراطورية الرومانية المقدسة، من هذه الأسرة كل الأمراء الملوك الألمان يحتارون الإمبراطور الجرمانى - كلو. مرجع سابق، ص ١١

١ - طغوش، مرجع سابق، ص ١٧٩

٢ - بول كوليس، الإنتفاخ العثماني في أوروبا، ت: يوسف نعيمة وسليمان الحاج محمد، ط ١، ص ١٢٣

٣ - أوزتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦٧.

وكان السلطان سليمان القانوني على اصلاح بالحلاف القائم بين (البيا ليون العاشر^{*}) والراهب الألماني (مارتن لوثر^{*})، والاصطراحت التي كانت تعيشها بلاد المجر بسبب عدم الاتفاق بين امراها بالإضافة إلى صغر سن ملكها لويس الثاني، كل هذه الحلافات فتحت الأبواب أمام السلطان سليمان القانوني للتوسع في أوروبا^(١).

ولكن تبين للسلطان سليمان أن الطريق إلى أوروبا صار أكثر وعورة من السابق، وذلك بسبب ظهور عدة عوامل كانت سبباً في زيادة حدة الصراع مع القوى الأوروبية، من أبرز هذه العوامل :

أولاً: فتحاح أبواب جديدة للصراع مع العثمانيين وذلك نتيجة لالتفاف البرتغاليين حول الجزيرة العربية بالإضافة إلى تواجدهم في المياه الإسلامية .

ثاني: ازدياد قوة آل هابسبورغ في المجر والنمسا ودخولها إلى دائرة الصراع إذ كانت تحلم بإمبراطورية كبرى في شمال الاقنوب، كما أن شارل الخامس (شارلوكا) كان يطمح ليمسك لسيطرته على البحر المتوسط .

ثالث: الصراع المستمر بين فرانسوا الأول وشارل الخامس (شارلوكا) حول تركيا الإمبراطورية الرومانية في إيطاليا^(٢)

والعريب في الأمر أن السلطان سليمان تدخل في الصراع الدائر إلى جانب فرنسا حاملاً عنهما مسألة صراع حاد بينهما، ولم يكتف بذلك بل كلف بعض بحرته بمساعدة الأسطول

* ليون واسمه قبل أن يكون باب هو جان ده ميسني ولد في فلورنسا ١٤٧٥م وانتخب بابا سنة ١٥١٣م ومات سنة ١٥٢١م هيد بك، مصدر سابق، ص ٢٠٤

*مارتن لوثر، هو راهب كاثوليكي المذهب ألماني الجنسية ولد سنة ١٤٨٣م أراد إصلاح المذهب الكاثوليكي وقال بعدم شرعية النظام الكنائسي والرهبة على الإطلاق والإعتراف وتجسيد الفريال وغير ذلك من الأمور التي أقرها لمة المذهب الكاثوليكي منذ أجيال، فحرره البيا وحكم بمروقه عن النين، ولكن لوثر لم يكتف بذلك بهذه الإجراءات، بل استمر بشر مذهب ويؤيده بالبراهين حتى انتشر في جميع الأطراف وتبعه كثير من امراء ألمانيا وتوفي سنة ١٥٤٦م. هيد بك، المصدر السابق، ص ٢٠٤-٢٠٥

١ - هيد بك ، المصدر السابق، ص ٢٠٤-٢٠٥

٢ محمد عبد الطيف هريدي، الحروب العثمانية الفرسية وأثرها في إحسان المد الإسلامي عن أوروبا، القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط١٩٨٧م، ص ٥٩

الفرنسي، وعهد إلى الرئيس طرغوث باشا قيادة الصفر الإسلامية التي قاتلت إلى جانب الفرنسيين^(١).

إذاً لقد كانت هذه العوامل سبباً في توسيع دائرة الصراع بين العثمانيين والقوى الأوروبية، لأنها شملت كلاً من :

١_ الخليج العربي والمحيط الهندي والبحر الأحمر .

٢_ شرق ووسط أوروبا.

٣_ البحر المتوسط وجنوب غربي أوروبا .

أي أنها شملت تقريباً نصف الكرة الأرضية من حيث المساحة، لذا لم يكن من السهل على السلطان سليمان القانوني أن يتغلب على هذه القوى التي كانت تواجهه أحياناً بشكل فردي وأحياناً مجتمعة^(٢)، وفي الوقت ذاته كان عليه أن يواجه المشكلات الداخلية التي ظهرت عشية توليه الحكم ومنها ثورة جان بردي الغزالي في الشام^(٣).

ومن جهة أخرى وفي خصم الصراعات التي كانت تعيشها أوروبا أراد فرانسوا الأول ملك فرنسا أن يستغل قوة الدولة العثمانية ومكانتها ويكسبها لصالحه، لأنه اعتقد أن الدولة العثمانية هي التي ستحد من طموحات شارل الخامس (شارلوك)^(٤)، وقد حصل هد فعلاً بعد أن وقع الملك الفرنسي فرانسوا الأول أسيراً لدى الباب وذلك بعد معركة بهيا* سنة/٩٣١هـ/ ١٥٢٥م/ ^(٥) التي قامت نتيجة لربعة فرانسوا الأول بضم الولايات الإيطالية إلى فرنسا، ولكن الدول الأوروبية وقفت صده وكانت له بالمرصاد، ونتيجة لوقوع فرانسوا الأول في الأسر لجأت والدته الملكة الفرنسي الملكة لويزا دوسافراي إلى السلطان سليمان القانوني طالبة

^١ - عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ج٢، ت: محمود علي عامر، بيروت، دار النهضة العربية، ط١٩٨٩، م١، ج١، ص٢٣٥

^٢ - هريدي، مرجع سابق، ص٦٠

^٣ - أرسلان، مصدر سابق، ص١٥١

^٤ - أرسلان، المصدر نفسه، ص١٥٣.

* بقيا مدينة تقع في الشمال الغربي من إيطاليا، جنوب ميلانو. هريديك، مصدر سابق، ص٢٠٩

^٥ - إينالجيك، مرجع سابق، ص٥٧

المساعدة منه^(١)، فأرسلت رسالة إلى السلطان سليمان القانوني تطلب منه تقييم يد العون من أجل إطلاق سراح ابنه، ولكن فرانسوا الأول تمكن فيما بعد من أن يتخلص من الأسر بموجب معاهدة مدريد عام/٩٣٢هـ-١٥٢٦م/، ولكنه بقي صمياً مصراً على التحالف مع السلطان سليمان القانوني^(٢).

ويبدو أن هذه الهزيمة التي منيت بها فرنسا أخلت بالثقة الدولية في أوروبا، وألقت الدرع من جديد في قلوب الدول من تزايد نفوذ شارل الخامس (شارلوك) في أوروبا، فتألف حلف كوبليك/٩٣٢هـ-١٥٢٦م/ لإعادة التوازن في أوروبا، وكان هذا الحلف مؤلفاً من البابا كلمنت السابع وفرانسوا الأول وسعورر (وهو من الأسرة الحاكمة السابقة في ميلان) وإنجلترا والبنديقية وكان هدف هذا الحلف الظاهري هو التأكيد على امتلاك سعوررزا لميلان، عندها خشي شارل الخامس (شارلوك) من هذا التحالف القوي في وقت كان يعاني فيه من مشكلات داخلية، لأن جيشه قد تمرد بسبب تأخر المرتبات وقلة المؤن، والسلطان سليمان القانوني كان آنذاك على أبواب المجر وعلى وشك الانتصار، كما بيت الطبعة الحاكمة في مدينة البندقية لشارل الخامس (شارلوك) أنها مستعدة أن تكون تابعة للأتراك على أن تكون تابعة له، كل هذه الأمور جعلت شارل الخامس (شارلوك) في موقف لا يحسد عليه^(٣).

فقرر شارل الخامس (شارلوك) أن يوكل أخيه فرديناند (وهو زوج أخت لويس ملك المجر) مهمة منه في قيادة حملة الدفاع عن أوروبا أمام الريح العثمانية، وقد كن طموح فرديناند أن يصبح ملكاً على المجر وبوهيميا، أما شارل الخامس (شارلوك) فوجد نفسه أمام ثورة البلديات في اسبانيا ومجموعة الأحداث التي نتجت عن حركة الإصلاح الديني مما عرقل خطته بالقيام بحملة صليبية ضد العثمانيين^(٤).

١ - فريد بك، مصدر سابق، ص ٢٠٩.

٢ - أرسلان، مصدر سابق، ص ١٥٣-١٥٤.

٣ - عبد الحريز مصلي، تاريخ أوروبا والعالم الحديث من ظهور لبرجوازية إلى الحرب الباردة، ج ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م، ج ١، ص ١٦٨.

٤ - طغوش، مرجع سابق، ص ١٨٠.

وبهذا استمر الصراع بين القوى الأوروبية والدولة العثمانية لفترة طويلة من الزمن، وكانت كل بلد للشرق الأدنى ودول أوروبية نفسها معنية بهذه المواجهات^(١).

أما فرنسا فقد حاولت بشكل دائم أن تكون حليفة للدولة العثمانية بحجة حمايتها من خطر الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وفي ذات الوقت كان ملوك فرنسا بحاجة للدولة العثمانية بسبب المواجهات الدائمة مع أوروبا، أما الدولة العثمانية فرائت أن وجود دولة أوروبية قوية تقف إلى جاسها في مواجهة التطورات في المنطقة لأنه يصب في مصلحة الدولة العثمانية حتى يعلم إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أن هناك دولتين متحالفتين ضده (الدولة العثمانية وفرنسا)، وبالتالي فمن مصلحة الدولة العثمانية أن من مصلحتها أن تبقى فرنسا مصدر تهديد لإسبانيا لكي لا تصعد هذه الأخيرة حملاتها ضد مسلمي شمال أفريقيا وخاصة في الجزائر وغيرها من الولايات العثمانية، أما بالنسبة إلى المدن الإيطالية مثل جنوة والبيدقية فكانتا مضطرتين إلى للموارة بين الطرفين، بينما كان أمراء ألمانيا يتأرجحون بين استغلال ما يعرضه الأتراك من تولد في مراحلة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وبين رقصهم أحياناً الاستفادة من العروص العثمانية بوصفهم مسلمين^(٢).

ولما كان من مصلحة فرنسا أن تبقى الدولة العثمانية إلى جانبها وأن تكسب دعمها، اتحد الملك الفرنسي فرانسوا الأول خطوة كبيرة كان لها أبعاد مستقبلية خطيرة على الدولة العثمانية وتمثلت هذه الخطوة بعقد معاهدة بين سليمان القانوني وفرنسوا الأول عام/٩٤٢هـ/١٥٣٦م/ سميت (بمعاهدة الامتيازات العثمانية العرسية)^(٣).

ومن أهم نصوصها:

١- لقد منحت هذه المعاهدة حرية التحول و لا تجار و الريلة البحرية للسفن العرسية^(٤).

٢- أجازت المبادلات الاقتصادية بين الطرفين بدون صرائب.

١ - كنو، مرجع سابق، ص ٥٣

٢ - طغوش، مرجع سابق، ص ١٨٠

٣ - رقيق، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٥

٤ - هريد بك، مصدر سابق، ص ٢٢٣.

٣- لا يحق للدولة العثمانية أن تستخدم التجار الفرنسيين أو خدمهم أو سفهم أو حتى اللوازم الموجودة فيها ، في خدمة السلطان العثماني إلا بموافقتهم، ودون إجبارهم على ذلك^(١).

٣- كما صار للسفن الفرنسية الأحقية في أن ترسو في الموانئ العثمانية دون تفتيش إلا في أماكن معينة.

٤- أصبح من حق الفصل الفرنسي في الإسكندرية واستنبول أن ينظر في القضايا المدنية والجنائية التي يكون أطرافها من رعايا الملك الفرنسي.

٥- لا يحق للقاضي العثماني أن يحكم على التجار والرعايا الفرنسيين بناء على شكاوي الأهالي إلا بوجود الصدر الأعظم أو من يمثله .

٦ - لقد منح ملك انكلترا والبابا حق الاستفادة من هذه المعاهدة عند الرغبة ولكن بعد أن يتم تصديقها من قبل فرنسا^(٢).

٧- لقد منحت هذه المعاهدة للمقيمين على أراضيها من الأجانب الحرية الشخصية، إذ أعفهم من دفع الجزية ومنحتهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية^(٣).

وبعد قراءة نصوص هذه المعاهدة تبين لنا أن هذه الإمتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لفرنسا عام/١٩٤٢هـ/١٥٣٦م/ عت بقطعة تحول هامة وحظيرة في تاريخ الدولة العثمانية على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وحتى العسكري، لأنها فتحت الباب على مصراعيه لفرنسا والعديد من الدول الأخرى، كي تتوغل في جسد الدولة العثمانية وتتمكن فيما بعد من السيطرة عليها وشل حركة هذه الدولة واستنزاف خيراتها، والمؤال الذي يطرح نفسه هو

ألم يدرك السلطان سليمان القانوني انطلاقاً من حبرته السياسية الواسعة مدى خطورة وأبعاد هذه الخطوة التي قام بها؟

^١ فريد بك، مصدر سابق، ص ٢٢٦

^٢ أحمد ربيع، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٥٨

^٣-Zek Velidi Togan, Umumi Tarihi, Istanbul, 1981, s. 98.

أم أنه أراد أن يلفت لقطار أوروبا إلى تحالفه مع فرنسا بغية مهاجمة فيينا حلمه الرئيسي.

أم أنه كان يرى أن الوقت قد حان لتعريض قوة بلاده الاقتصادية على غرار القوة العسكرية التي تمتلكها دولته^١

ولكن يبدو أن السلطان سليمان القانوني عندما وقع على هذه المعاهدة لم يكن مدركاً أبعاد هذه المعاهدة ونصوصها التي كانت تحدم بشكل كبير الرعايا الأجانب وحكامهم على حساب السكان المحليين، لكن رصا نور يؤكد أن السلطان سليمان أراد من عقد المعاهدة مع فرنسا قيادة الانقسام الأوروبي، غير أنه وقع في تصوراتته التي اعتمد فيها على زوجته روكسلانة^٢.

وبسبب لنا أيضاً أنه لم تكن هناك قراءة كافية لهذه المعاهدة^٣ ربما لأن السلطان وقها قد بدأ يتخلى عن واجباته بالإشراف المباشر على شؤون الدولة ليلقي بالمسؤولية على عتق الصدر الأعظم الذي كان في أغلب الأحيان غير كفؤ بمنصبه، وإنما كل يستغله للقيام بالمؤامرات والمكائد، لتحقيق أهدافه بالتعاون مع نساء القصر أحياناً.

إذاً لقد أسهمت هذه الامتيازات في إثارة لفتن كما أنها أربكت الدولة العثمانية وشغلتها سنين طويلة، لهذا اتخذت الدول الأوروبية من هذه الامتيازات ذريعة لتتدخل في شؤون الدولة العثمانية بحجة حماية رعاياها وبالتالي لإحتلال والسيطرة على أراضي الدولة العثمانية فيما بعد.

وأشار بعض المؤرخين الأكثر أمثال جودت وعطا باشا وغيرهم، أن السلطان سليمان لم يوقع الإمتيازات بناءً على دراسة وإنما بناءً على رغبة زوجته روكسلانة، لأن فرنسا في تلك المرحلة كانت تشد الحاق على اليهود، وتذكر سجلات الديوان الهمايوني أن الوفد الفرنسي الذي زار استنبول سنة ١٥٣٥م لدى مقابله للسلطان سليمان كانت روكسلانة حاضرة في المجلس، وقد سأل الوفد الفرنسي عن حالة اليهود بالفرنسية، والسلطان سليمان لم يكن يعرف

الفرنسية، وأرفقت مؤالها بصحكة أصدعت الصمت الذي حلّ على القاعة، وقد فهم الرغد الفرنسي ما قصده زوجته السلطان^(١).

والمغت لأمر أن سجلات الديوان الهمليوني تكرت لنا جزءاً من الحادثة ولم تسعنا في إيصال ردود الوفد الفرنسي، نكن ما يفهم أن لليهود تواهدوا إلى استتبول بأعداد كثيرة ما بين ١٥٣٥-١٥٤٠م، بحجة الحرب الأهلية التي تواجهها فرنسا، وقد أسكنهم الميطان سليمان منطقتي البك أو غلو ومنطقة السليمان.

٢- حياة السلطان سليمان القانوني:

ولد السلطان سليمان بن سليم الذي عرف بالأول أو القانوني^(١)، في أول شعبان سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٥م^(٢)، وتولى الحكم في ٤ شوال سنة ٩٢٦هـ/١٥٢٠م^(٣).

ومن المرجح أن ولادته كانت في مدينة طرابزون* على ساحل البحر الأسود، التي تسلم فيها لأمبر سليم مهامه كوالٍ لهذه المدينة التي تقع بين اليونان والقوقاز^(٤).

لقد كانت طفولة سليمان القانوني تشبه إلى حد كبير طفولة كل أمراء آل عثمان، فقد كان في المراحل الأولى من عمره تحت إشراف وعناية أمه والنساء لقائمات على خدمتها، وقد عرف أن والده الحانوق حفصة كانت بنة حان لتتر* إذ عرف عن الحانات أنهم يروجون من شركسيات، ولوحظ أن السلطان سليمان قد ورث الملامح الشركسية عن والدته التي كانت على قدر كبير من الجمال، وكانت أمه في السابعة عشرة من عمرها عندما أنجبت سليمان، وعندما بلغ من السابعة من عمره أشرف على تربيته والده السلطان سليم الذي عرف بطباعه الحاد، حيث كان قاسياً وشديداً في تربية ابنه الذي لم يعيش معه سوى فترة قصيرة في أثناء صغره نتيجة إشتغاله بحملاته العسكرية، لقد تعلم سليمان القراءة والكتابة والقرآن والموسيقى

١ - رامبار، معجم الأسماء والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه ركي محمد حسن بك وحسن احمد محمود، بيريقي، دار الراشد العربي، ١٩٨١م، ص ٢٢٩

٢ - هريديك، مصدر سابق، ص ١٩٨

٣ - حليم، مصدر سابق، ص ٨٧

* طرابزون، مدينة في تركيا تطل على البحر الأسود، سيطر عليها السلطان محمد الثاني سنة ٨٦٤هـ/١٤٦٠م/ كلو، مرجع سابق، ص ٤١

٤ - كلو، المرجع السابق، ص ١٧

* غلب اسم التتر على جميع الأتراك غير العثمانيين، وهذا هو اصطلاح الروس واصطلاح الكثير من الأوروبيين وذلك بأن يسموا أتراك السلطنة العثمانية تركاً والأتراك الذين في روسيا الحالية تتراً. أرسلان، مصدر سابق، ص ٤٥ ٤٦.

والحساب، و أيضاً تدرب على الرمية بالقوس وتمارين رياضية تروض البدن كما أنه كان محباً للحيل حيث قصى ساعات طويلة برفقة الحبول في مزارع تربيتها^(١).

وبعد ختانه في سن الحادية عشرة ترك سليمان الجناح المخصص للحريم وأمه وأصبح له منزل خاص ومزود بالحنم، وعذاها بدأت مرحلة صقل شخصية سليمان الصقل، زوّد بالكثير من الكتب القيمة لكي تساعد على تنمية فكره، بالإضافة الى تعلمه العديد من اللغات مثل العربية، والفارسية.

وفي سن الخامسة عشرة عيّن جده السلطان بياريد والياً على ولاية قره حصار*، ولكن عمه أحمد الذي كان والياً للعهد رفض هذا القرار وطالب بقله الى مدينة بولي لكي يكون بعيداً عن مدينة أماسيا التي كانت عاصمة ولايته وتم له ذلك، ولكن يبدو أن عمه أبدى عدم رضاه أيضاً عن وجوده في مدينة بولي لأنه كان يعد سليمان منافساً له في الحكم، ولذلك أرسله أخيراً في عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٩م/ والياً على مدينة كفا (نيودوسيا) في بلاد القرم وبقي فيها ثلاث سنوات، ولما بلغ السابعة عشر من عمره عين من قبل والده والياً على استنبول وبعدها على معيسيا التي تقع على ساحل بحر إيجة، وبقي فيها إلى أن أصبح سلطاناً للبلاد^(٢).

لقد فجأ الموت السلطان سليم الأول، وتم إخفاء الأمر لفترة قصيرة من قبل حاشيته تقديراً لأي تمرد قد ينتج عن الإنكشارية عند سماعهم الخبر إلى حين قدم السلطان الجديد^(٣)، عندها أرسل كبير الحجاب بري باشا إلى سليمان القانوني رسالة يطلب منه القدوم بعد أن أخبره ب وفاة والده وكان فحوى هذه الرسالة (أن سيف آل عثمان ينتطره في الصريح خارج المدينة) ولكن يبدو أن رجال سليمان ومستشاريه كانوا قد شككوا بهذه الرسالة وأندروه بأنها قد تكون خدعة لجلبه إلى المدينة والقضاء عليه من قبل بعض المنافسين على الحكم من أقاربه، ولكن

١ - كلو، مرجع سابق، ص ٤٢.

* قره حصار أو شغرد حصار، مدينة صغيرة تقع شمال الأناسول الأوسط على بعد ١٠٠ كم من البحر الأسود. كلو، المرجع السابق، ص ٤٢.

٢ - كلو، المرجع السابق، ص ٤٢-٤٥.

٣ هارود ترامب، سلطان الشرق العظيم سليمان القانوني، ت. شكري نديم، دار العربية للموسوعات، ٢٠٠٧م، ص ١٦.

الرسول كان قد أكد أنه تسلم هذه الرسالة من يد الصدر الأعظم بري باشا وعدم تأكد سليمان من صحة ما ورد، توجه نحو العاصمة، ليقتلم الحكم وكان عندها لا يتجاوز الحامسة والعشرين من عمره، ولما وصل إلى العاصمة استقبلته الجماهير وسط ترحاب كبير، وبهذا يكون سليمان قد تسلم الحكم في القرن السادس عشر الميلادي، القرن العاشر للهجرة وهو الحاكم العاشر من آل عثمان، ولكنه كان وحيداً بلا إخوة ولم يترك له والده أوصياءً أحياء، بسبب قانون أسرته القاسي الذي ساه السلطان محمد الفاتح سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦١م/ الذي يحول السلطان الحكم قتل جميع إخوانه، وقد أرادوا من ذلك عدم قيام منافسة سرية على العرش، ويبدو أن الفاتح بقراره هذا قد كسر عصا السلطان الحاكم وجسد المسألة النبوية في بني عثمان^(١).

أول إجراء اتخذ السلطان سليمان الأول بعد تسلمه عرش الإمبراطورية العثمانية هو سحب جند الإنكشارية المحقة المالية بمناسبة تسلمه الحكم، فصلاً عن إصداره عفواً بحق تجار مصريين سجنوا لأنهم أعصبوا والده السلطان سليم^(٢).

وكان هدف السلطان سليمان من هذه الإجراءات أن يظهر للشعب أن حكمه سيقوم على العدل والتسامح^(٣).

وبهذا تولى القانوني العرش وسط تسامح وتعاؤل كبيرين^(٤).

وقد جاء في كتب الأعلام لقطب الدين النهراني نقلاً عن شكيب أرسلان وصف السلطان سليمان القانوني:

« كان سلطاناً سعيداً، مكناً ليد الله بنصر الإسلام تأييداً، ولي السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان سليم خان في سنة ست وعشرين وتسعمئة، وجلس على تحت السلطنة وما دمي ثوب أحد، ولا أريق في تلك محجمة من دم، ومولده سنة تسعمئة، واستمر في السلطنة تسعاً وأربعين سنة، وهو سلطان غازٍ في سبيل الله، مجاهد لنصرة دين الله، ورغم أنوف عداه، بلسان سيفه،

١- بجوي باشا، تاريخ بجوي، ٦ اجراء، استنبول، ١٣٣٧هـ، ج ١، ص ٢٤

٢- ترمب، مرجع سابق، ص ١٧-٢٨.

٣- كلو، مرجع سابق، ص ٤٦

٤- ترمب، المرجع السابق، ص ٤٦.

وسان قناه، كان مؤيداً في حروبه ومعازيه، مصنداً في أرائه ومعاريه، مسعوداً في معانيه ومعانيه، مشهوداً في وقلعه ومراميه، أيا سلك ملك، وأين توجه فتح وفك، وأين سافر سفر وسك، وصلت سرياه إلى أقصى الشرق والعرب، وافتتح البلدان الشاسعة والراسعة بالقهر والحرب، وأخذ للكفار والملاحدة بقوة الطعن والصرب، وكان مجند نبين هذه الأمة المحمسية في القرن العاشر، مع الفصل الباء، والعلم الزاهر، و الألب الغصن، الذي يقصر عن شوء كل أديب وشاعر، إن نظم فعقود الجواهر، أو نثر فمنتور الأزاهر، وإن نطق قلد الأعناق نفائس الدر الفاحر، له ديوان فلق بالتركي، وآخر عديم النظير بالفارسي، تداولهما بلعاء الرمن، وتعجز أن تتسج على موالهما فصلاء الدوران^(١).

ولما وصل خبر تربع السلطان سليمان القانوني على عرش السلطنة العثمانية، لتفق ملوك أوروبا جميعاً والبابا ليون العاشر على أن حملاً وديعاً قد خلف أسداً مقترساً، لأن سليمان شاب غير محرب، وكل شيء يند على الطمأنينة^(٢) هذا ما ذكره الطبيب باولو جيوفيو الذي كان يحلل للبابا ليون العاشر الأحداث العالمية المهمة^(٣).

أما عن الصفات الجسدية والنفسية للسلطان سليمان، فكثيرة هي الوثائق التي وصفت السلطان سليمان، ومنها وثيقة وصفه فيها سفير البندقية في استنبول بركلوميوكوبتاريبي الذي قال عنه " كان سليمان طويل القد لكنه حيل القائمة، ضعيف السية، وكان لأنفه بعض القوط في الطول، ولما لمح وجهه شيء من الرقة، فهو صغير الشارب، قصير اللحية، مليح العطف مع قليل من الشحوب"^(٤).

^١ - لسلان، مصدر سابق، ص ١٦٧

^٢ تر لب، مرجع سابق، ص ٣٠.

^٣ مارينو سفوتو، أدياريبي، فينقية، ١٨٨٩م. وثيقة منشورة في سليمان القانوني، كلو، مرجع سابق،

ص ٤٧.

كما عرف عنه أنه كان حاد الطباع ويحاول دائماً أن يخفي مزاجه الحاد بمسار من الصمت، وكان يادرأ ما يتسم كما أنه كان جاداً ووقوراً يتكلم قليلاً وبشكل حاسم، وربما قد ورث طبعه هذا من والده السلطان سليم^(١).

كما أنه كان رجلاً وقوراً، وصاحب لإرادة^(٢)، ويتألى عند إصدار القرارات ولا يترجع أبداً عن أي قرار يصدره^(٣).

وفي وصف آخر لسفير الإمبراطور النمساوي فريدريك الذي يدعى أوجير غيميلين دي بوسيك^{*} يقول: " إذا سألتني ما هي صفات سليمان كرجل فأقول :إنه كرجال اليهود القديمة، تقاطيع وجهه وهيكلك جسمه يحملان طابع العظمة، يليق بالعظمة السياسية التي يتمتع بها، إنه مقتصد معتدل في مأكله ومشربه، وذلك منذ شبابه، رغم أنه كان يمكنه أن يأخذ لنفسه حربة عطشى حسب قوانين دينهم"^(٤)، "ولكنه كان مغرماً بزوجه (روكسلانه)، وحبه المتزايد لها جعله يرصى بقتل ابنه مصطفى وحتى هذه النقيصة تسبب عادة إلى غلبتها عليه بجمالها الخلاب وإكسیر الحب"^(٥)، ومن المؤكد أنه بعد أن اختارها لتكون الزوجة الشرعية ورغم جمالها فقد كان سليمان شهوانياً، لا يسأم عن معاشرته النساء، وكانت روكسلانه تعلم حيله، لكنها لم تشأ أن تعانبه فتركته يسرح ويمرح في لهوه، وحيما عاتبت نوربانر زوجها السلطان سليم الثاني

^١ - برنارد لويس، استانبول حصاره الخلافة الإسلامية، تعريب سيد رضوان علي، الدار المعمودية، ٢٠٠٢م، ص ٥٤.

^٢ - İSMAIL HAKKİ UZUN ÇARŞILI, KAUNAK GEÇEN, s248.

^٣ - İSMAIL HAKKİ UZUN ÇARŞILI, KAUNAK GEÇEN, s 307

^{*} أوجير غيميلين دي بوسيك، كان سفير أرشوق النمسا فريدريك في بلاط السلطان سليمان في استنبول سنة/٩٦٢هـ-١٥٥٥م/ وبقي حتى علم /٩٦٩هـ-١٥٦٢م/، وتعتبر الرسائل الأربع التي كتبها خلال إقامته في الدولة العثمانية هي من أفضل الوثائق المعتمدة كون أنها كانت تعكس واقع الدولة العثمانية وبذقة في العرس السادس عشر، كمو، مرجع سابق، ص ٢٨. وقد ألف كتاباً عن الدولة العثمانية ونظمها العسكرية والسياسية باللغة اللاتينية وطبع هذا الكتاب في لندن ١٦٣٣م. لويس، مرجع سابق، ص ٥٤.

^٤ - İSMAIL HAKKİ UZUN ÇARŞILI, KAUNAK GEÇEN, s 307

^٥ - أوجير غيميلين دي بوسيك، وثيقة منشورة، في " استانبول حصاره الخلافة الإسلامية"، لويس، المرجع السابق، ص ٥٤-٥٥.

عن مجونه ولهوه، قال لها إن والدتي كانت رائعة الجمال ورغم تلك فقد كان لوادي العديد من المحظيات رغم أنفها، فهل تريد أن أكون أقل منه شأنًا؟^(١).

وفي وصف آخر للسلطان سليمان القانوني يقول براجاديتو صغير البندقية في استنبول:

"كان السلطان سليمان دقيقاً في أمور البروتكول. حريصاً على أداء صلوات الجمعة في مسجد ايا صوفيا . وكان السلطان يركب حصانه الأبيض الذي تزيهه الجواهر، ويحترق بموكبه المدينة إلى الجامع وسط حشود الأهالي. ويلبس السلطان سروالاً حريراً زاهي الألوان ، يعمله فرو الأرمين، وهو الفرر الأبيض للبائع النعومة .

ويضع على رأسه عمة بيضاوية عريضة تثبت فيها الجواهر حول ريشات الطاووس التي تحملها . وحنمه من حوله يعطرونه ويعطرون الطريق"^(٢).

لقد عرف عن السلطان سليمان أنه كان شاعراً وله ديوان كبير حمل اسم "محلصه محبي"^(٣)، كما أنه حاول أن يلخص يومياته في دفتر مذكرات خاص به يدعى (سيمان نامه) ، كان يدور فيه القليل من الأحداث اليومية التي كان يعيشها، ويعبر عنها أحياناً بكلمه راحياً بجملة صغيرة .

ومن هذه المدونات :

٧ تموز وردت أنباء عن احتلال سبلكس وقد وصلت المعسكر مائة رؤوس من جنود حاميتها لم يجوا مع الآخرين.

٨ تموز وصعت هذه الرؤوس على خط الزحف ، على بهر سافا، يجب بناء جسر فوق مياه الفيضان .

^١ هيرسون تولينشتي، عشق السلاطين، بيروت ، دار الروائع، د.ت، ص ١٧٥ - ١٨٠

^٢ حسين مؤنس، الجارية روكسلانة تتزوج السلطان سليمان القانوني، الإسكندرية، دار ومطابع المستقبل، د

ت، ص ٤٦

^٣ - أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٥٤

٩ تموز هنا كان السلطان سليمان يتكلم عن نفسه "يسكر في كوخ ليعدل في بناء الجسر بحصوره . السلطان يظهر نفسه بإستمرار قرب الجسر"

١٨ تموز كمال الجسر ، نهر صافا يرتفع إلى مستوى ملامساً الجسر .

١٩ تموز الماء يفيض فوق الجسر فيجعل العبور متعذراً، تصدر الأوامر للعبور بالفوارب المسطحة^(١).

ومن الجدير تذكركه عن السلطان سليمان القانوني خبيراً في مجال الحقوق لأدب ومحباً للعلوم، فكان يستبدل النود بالمخطوطات عاصاً عن دفع الجزية^(٢)، وكان يتحرى دائماً عن الفلاسفة البيرونيين ليتزجوا له كتب العلوم والجغرافية^(٣)، كان حطاطاً وله حبرة بالأحجار الكريمة، وأهم بقدر الكثير من الكتب عن تاريخ الدولة العثمانية في أوروبا، على سبيل المثال سنة/٩٣٦هـ / ١٥٢٩م/ نشر ٥٦ كتاباً، و ٥٩ كتب سنة/٩٣٩هـ / ١٥٣٣م/ والكثير من الكتب الأخرى.

بالإضافة إلى ذلك كان السلطان سليمان القانوني ماهياً في النواحي الدبلوماسية وإدارة الدولة. حيث جاء بعد السلطان محمد الفتح وأباه السلطان سليم من ناحية الدهاء العسكري. وصنف كحاكم نموذجي لا يقارن إلا بقليل من الشخصيات العالمية^(٤)، وقد تحدث عنه الكثير من الكتاب الأجانب فقد قيل عنه^(٥) لا يوجد أي حاكم في عصره حصل على تعليم أفضل من سليمان القانوني ولا نشأ نشأة علمية لامعة في إدارة دولة عظمى مثله^(٥).

^١ تراب، مرجع سابق، ص ٦١-٦٠

^٢ - أحمد مراد، عثماني تاريخي، ٦ أجزاء، استنبول. ١٣٣٤هـ، ج ٣، ص ٢٧٠

^٣ - تراب، المرجع السابق، ص ٧٢

^٤ - ورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٥٤

5 - S. n. fisher , a history of the middle east, New York, 1959, p222

وكتب عنه أيضاً " كانت شخصيته أعظم من شارل كوث*، طور الإمبراطورية العثمانية التي يحكمها وسلمها إلى حفة بدرجة من التكامل، لا يمكن قياسها مع تكامل أي دولة أوربية خلال المدة دلتها"^(١).

من الملفت للانتباه أنه أطلق على السلطان سليم الكثير من الألقاب، فأطلق عليه الأوروپيون لقب العظم والكبير أما العثمانيون فقد أطلقوا عليه لقب العاوي، انطلاقاً من الإصلاحات التي تمت في عهده والدقة في تطبيق القوانين والتطور التي انعكست على نظام الدولة^(٢).

وقد قال عنه رضا نور" لا شك بأن القانوني كان رجلاً عظيماً، غير أن عصره تميز بالعظماء من الشخصيات العسكرية والمسنية التي وقب إلى جانبه بشكل محتة ومحت دولته عظمة قلم يعرف التاريخ لها مثيلاً"^(٣)

ويبدو أن السلطان سليمان قد أطلق على نفسه أيضاً مجموعة لا بأس بها من الألقاب بصفته حاكماً للبلاد، هي المناسبات وحتى في مراسلاته مع الملوك والحكام كان يصطنع لنفسه الألقاب، ففي إحدى المخطوطات لقب السلطان سليمان نفسه (خليفة رسول رب العالمين وحير الإمامة العظمى وإرث الخلافة كائناً عن كائناً) وعندما قام السلطان سليمان بإنشاء وقفية لينفق من ريعها على كنوة الكعبة والمنينة المورة لقب نفسه (ظل الله في أرضه) ومن بين

*شارل كوث أو شارل الخامس، ولد هذا الملك سنة ١٥٠٠م، وورث ملك إسبانيا عن والدته جاسية هريساند وإيرابيل من ملك إسبانيا، وانتخب أميراً لألمانيا بعد موت جده لأبيه الإمبراطور مكسيمليان وقضى بامه في محاربة هانسوا الأول، وحارب خير الدين باشا أمير البحر العثماني الشهير بياريزوس، وقصد الإستيلاء على مدينة الجزائر فلم يفلح واضطهد البروتستانت إلا أنه استمر أميراً في سنة ١٥٤٧م لم يسمح الحربة الدينية بعد من حاربوه وانتصروا عليه، وفي سنة ١٥٥٦م ستم الملك فتازول عن إسبانيا لإبنة هليب الثاني وعن ألمانيا وما بها لأخيه هريساند واعتزل في أحد لأكيرة حتى توفي سنة ١٥٥٨م. هريديك، مصدر سابق، ص ٢٠٤

^١ -N. Iorga, voyageurs français dans l'orient, p21

^٢ - لكم الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية صالح السعدوي، ج٢، استنبول مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستنبول، ج١، ص ٣٥

^٣ - نور، مصدر سابق، ج٣، ص ٤٥٨

ألقاه أبصاً التي عثر عليها في إحدى المخطوطات (ظل للظليل على كافة الأمم) بالإصافة إلى (المجاهد في إعلاء كلمة الله).

وفي مقدمة الرسالة التي أرسلها السلطان سليمان القانوني إلى فرانسوا الأول ملك فرنسا سنة ١٥٣٣م كتب السلطان سليمان "من سلطان السلاطين وقيل الأقيال ومورع التيجان على ملوك المعمورة، من ظل الله على الأرض السلطان البادشاه حاقان البحر الأبيض والبحر الأسود والرومي والأناصول وقرمن وبلاد الروم وذي القدر وديار بكر وكرمنستان وأدرينجان وفارس وشمشوق وحلب والفاخرة ومكة والمدينة والفس وجريرة العرب كلها واليمن، وعديد من الأقطار الأخرى التي أحصعها بحد السلاح أسلافه الأمجاد وأجداده الأشاوس التي فتحتها أيضاً جلالته السنية بصلتها الوفاء وسيفها القاصع..."^(١)

ويبدو من خلال هذه الألقاب التي تنسب إلى السلاطين العثمانيين أنها كانت تتناسب مع إنجازاتهم التي تمثلت بالسيادة والسيطرة، كما أنها كانت ترصي عرورهم خاصة بعد الانتصارات التي حققها السلاطين العثمانيون الأوائل، ومنهم السلطان سليمان القانوني، حيث بلغت الدولة في عهده أقصى اتساع لها، وربما كان هذا سبباً كافياً ليطلق العنان في تلقيب نفسه بالقلب مختلفة.

وتفيد المصادر العثمانية أن السلطان سليمان القانوني من أكثر سلاطين بني عثمان ألقاباً، لدرجة أن فرماناته حملت بتلك الألقاب التي تؤكد هيبة الرمية والدينية، وإذا كانت مساحة إمبراطوريته قد بلغت ٤,٩٨٣,٠٠٠ كم^٢، فإن سكان تلك المساحة الأرضية كانوا باستمرار يرفعون أكف الصراخ إلى الله بدوام سلطانه وعزه، لأن فرماناته الموجهة إلى حكم الولايات كانت غالباً بمثابة تحذير لمن قد يرتكب الظلم بحق رعية هو حاميتها^(٢).

بركت. مرجع سابق، ص ٤٦

² - ISMAİL HAKKI JZUN ÇARŞILI, KAUNAK GEÇEN, s 480.

– عائلة السلطان سليمان :

أما بالنسبة لعائلة السلطان سليمان فقد ررق بعدد من الأولاد وهم :

ولي العهد شهرزاده* مصطفى/ ٩٢٨-٩٦٠ هـ / ١٥٢١-١٥٥٣ م.

شهرزاده محمد/ ٩٢٨-٩٥٠ هـ / ١٥٢١-١٥٤٣ م.

مهرماه سلطان السلطان/ ٩٢٨-٩٨٦ هـ / ١٥٢٢-١٥٧٨ م.

شهرزاده سليم الثاني / ٩٣٠-٩٨٢ هـ / ١٥٢٤-١٥٧٤ م.

شهرزاده بليريد / ٩٣١-٩٦٩ هـ / ١٥٢٥-١٥٦٢ م.

شهرزاده جهانكير / ٩٣٧-٩٦٠ هـ / ١٥٣١-١٥٥٣ م.^(١)

بالإضافة إلى شهرزاده مراد، أما بالنسبة لزوجات السلطان سليمان فقد تزوج السلطان من جارية جورجية تدعى مهدي إفر^(٢) وقد سماها فيما بعد كلبهار أي "زهرة الربيع"^(٣) و قد أنجبت له ولده البكر مصطفى، وتزوج أيضاً من فتاة ينفارية أنجبت له ولداً سماه مراد. و تزوج بعدها من فتاة يهودية ولدت في بولونيا ونشأت في روسيا واسمها روكسلان وأطلق عليها السلطان سليمان فيما بعد اسم حرم (أي السعيدة) وقد أنجبت له سليماً وبيازيد ومهرماه، وقد حصل عليها السلطان سليمان من ملك القرم الذي قدمها إلى السلطان سليم فأعجب حفصة والنسبة بخرم فزوجته إياها^(٤).

* شهرزاده ، في الأبناء الذكور من آل عثمان الذين ولدوا لإمهات من الحاسكيت والجراري، ويطلق على الواحد منهم اسم شهرزاده، وكان الأمير يعرف حتى عهد مراد الثاني باسم جبلي، ثم جرى على إطلاق اسم

شهرزاده . أوغلو ، مرجع سابق، ج ١، ص ١٥٧

١- بلماز أوزوتونا ، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٤٨

٢- عمر ، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، ص ١١٤

٣- تراسب ، مرجع سابق، ص ٣٣

٤- عامر ، السيرة العثمانية تتهم سلاطينها، ص ١٤

أما عن أقرب الشخصيات إلى قلبه في القصر فقد كان إبراهيم باشا*، حيث كانا أصدقاء منذ الصبا، وعندما أصبح سليمان حاكماً للبلاد عين إبراهيم باشا قائداً للجيش وتدرج هذا الأخير فيما بعد بالمناصب حتى أصبح صدر أعظم^(١).

ولكن يبدو أن قلب السلطان سليمان قد تعلق بروكسلانه فقد كان يحبها جداً، لدرجة أنه عندما كان يذهب للحرب كان يبقى على اتصال معها عن طريق الرسائل المليئة بالتي تعبّر عن شوقه لها، وكانت هي بالمقابل تبعث برسائل الشوق والحنين المليئة بالعاطفة.

لقد كانت روكسلانه جميلة جداً، وعلى درجة كبيرة من الذكاء، إذ استطاعت أن تسحر حب السلطان سليمان لصالحه، فهي التي أقتنعت السلطان سليمان أن تصبح قيادة الجيش من مسؤولية الصدر الأعظم، وهي التي زوجت ابنتها مهرماه من رستم باشا وعينته فيما بعد صدر أعظم، وفي عام/٩٦٨هـ/١٥٦١م/ تمكنت روكسلانه بالاتفاق مع ابنها سليم وبأسس اليهودي من قتل بياريد لتصبح ساحة العرش خالية من أي منافس لابنها سليم^(٢).

لكن تعدد الروجات لدى سلاطين آل عثمان أسرع من مشكلة كبيرة، حيث أدى إلى إشاعة العيرة والنفاق بينهم، إذ كانت كل أم ترغب في أن يكون ابنها ولياً للعهد، وعلى هذا تم تنفيد الكثير من المؤامرات من قبل الأمهات اللواتي كن يتعاون مع الحصار وفي بعض الأحيان كان الصدر الأعظم يتعاون معهن بدافع المصلحة المشتركة، وعادة تنتهي هذه المؤامرة بقتل ولي العهد الذي اختير من قبل والده^(٣).

وخير مثال على ذلك السلطان سليمان القانوني الذي لقبه الأوروبيون بالعظيم والكبير، ولكن يبدو أن هذا العظيم ارتكب أكبر خطأ في حياته وربما هي نقطة سوداء في مسيرته

* كان إبراهيم باشا مملوكاً صغيراً يوفّي الأصل وكان بكر السلطان بسطة واحدة، وقد ولد مسجوناً في بلدة باراجا بليونان، ثم احتفظه الفرصنة وبيع عبداً للسلطان، ثم تعلم اللغة والموسيقى والغسقة، وكان يتكلم اليونانية والتركية والعبرية والإيطالية والعربية، ثم تصم إلى حاشية السلطان سليم، وعاد تولي السلطان سليمان الحكم عام ١٥٢٠م جعل إبراهيم باشا وزير، مؤسس، مرجع سابق، ص ٢٣

^١ - مؤسس، المرجع السابق، ص ٢٣.

^٢ - عامر، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، ص ١١٤

^٣ - طغوش، مرجع سابق، ص ٥٧٠

البصاء، وخصوصاً عندما رصح لأوامر زوجته روكسلانه التي حاكت مؤامرة مع الصدر الأعظم رستم باشا "زوج ابنتها" لكي يتم تعيين ابنها سليم سلفاً للبلاد من بعد والده^(١).

و هذا ما يؤكد المؤرخ صولاق باشا الذي يقول :

" كان من العريب انتشار شائعات غير حميدة بين الجنود، كنت الحيام مملوءة بقول غير معقولة، وكان يقال في السر والعلن: إن السلطان قد تقدم كثير في العمر وبهك جسده، ولن يستطيع بعد الآن الخروج الى أي غزوة، لذا قام بتعيين رستم باشا قائداً للقواد في الأناضول، ويقال أن الأمير مصطفى كان يتهياً للجلوس على عرش والده، ولكن رستم باشا حال دون ذلك، وكانت هذه الشائعات يدرجة التواتر، وكما قيل في المثل "الأقاريل لا تكون كذب بل تكون خطأ"، والحقيقة أن الأمير مصطفى قد تجاوز الأربعين، وهو في مقدمة الأمراء من ناحية العلم والبطولة، كما أن الجيش والشعب يحبه ويريدانه، وقام بعض الحمقى عن حسن نية وبعضهم عن سوء نية بإيصال هذه الأقاويل إليه وحاولوا دفعه الى مرحلة العصيان^(٢).

وكانت بداية الفتنة على يد الصدر الأعظم رستم باشا حيث " انتهر هذا الوزير فرصة شوب الحرب بين الدولة العثمانية ومملكة العجم في سنة/٩٦٠هـ-١٥٥٣م/ ووجود مصطفى صمق قواد الجيش، وكتب الى أبيه بأن ولده يحرض الإنكشارية على عزله وتقصيبه^(٣).

وما أن وصل هذا الخبر الى السلطان سليمان الذي كان يحتفل بعيد ميلاده حتى صار من ساعته وصار مباشرة إلى بلاد العجم، بعد أن كانت روكسلانه قد أوعزت صدره وملائته بالحقن اتجاه ابنه مصطفى، ولما وصل السلطان سليمان وقد استدعى معه مفتي الإسلام محمد أبو السعود الاقدي حيث استدعى القواب وصباطها ومن جملتهم مصطفى ابنه، فسأل السلطان سليمان محمد أبو السعود قائلاً له "ما رأيك يا مولانا بتاجر إنتم عبده على مكانه وذهب سجد لقضاء الحج، وعندما عاد وجد عبده قد حانه، فما حكم الشرع عليه فأجابه يجب أن يرمى بالسهام، السهام إلى صدر مصطفى فصاح ماذا فعلت يا مولاي؟ ماذا فعلت يا أبي؟"، وبعد

١ - قارن، مرجع سابق، ص ٥١

٢ - صولاق باشا، مصدر سابق، ج ٣، ص ٥٢١ - ٥٢٢

٣ - هريد بك، مصدر سابق، ص ٢٤٦

موته حمّله على حمار، وبدأ التجول به ليكون عبرة لغيره، وما أن وصل استبول سلّته روكلاته عن صحة الخبر فقال لها لقد تحلّصت من الحاس^(١).

وبما إن مصطفى الإبن البكر للملطان سليمان القانوني كان محبوباً من قبل الإنكشارية فعند سماعهم خبر وفاته ثاروا وطلبوا بقتل رستم باشا الذي دبر هذه المؤامرة.^(٢)

وكنتيجة لصعصع الإنكشارية قام الملطان سليمان القانوني بعزل رستم باشا إرصاد لهم وعين بدلاً عنه أحمد باشا، ولكن لم يهدأ بال روكلاته (خزم) حتى أقعت الملطان سليمان بقتل أحمد باشا وإرجاع رستم باشا إلى منصبه، لأنها تحوّهت من أن يكشف السلطان ألاعيبها، ولم تكف بذلك، بل بدأت تحيّد المؤامرة لتعميق وجود اليهود في الدولة العثمانية^(٣).

لقد عد مقتل مصطفى من أبشع الأحداث التي جرت في عهد السلطان سليمان، لأن مصطفى كان صليطاً متميزاً ومحبوباً من قبل الإنكشارية، فضلاً عن ذلك فقد أثر بشكل مباشر في فقدان ابن الملطان سليمان الصغير جهانكير الذي مات حزناً على أخيه مصطفى، وبهذا بقي للعرش ورثا كانا يتنافسان على الحكم وهما سليم وبيازيد، وستكون الخلافات كبيرة بينهما على العرش^(٤).

وهي خصم الحديث عن الجرائم التي ارتكبها السلطان سليمان بمن يحبهم يجب أن لا نسي قتله لصديقه المقرب الصدر الأعظم إبراهيم باشا وكان ملك سنة/٩٤٢هـ/١٥٣٦م/١٥١١ أي قبل مقتل ابنه مصطفى، حيث عثر على جثته في العرقة التي ينام فيها كل ليلة بجوار عرقة السلطان سليمان القانوني، ويبدو أن قتل هذا الرجل وهو في أوج عزه أحدث صجة كبيرة بين الأوساط الشعبية، إذ تسائل الناس عن الأسباب التي دفعت السلطان إلى القيام بمثل هذه الجريمة بحق أعز أصدقائه وأقربهم له.

^١ - ريق، مصدر سابق، ج٣، ص ١٧٠. جوند، مصدر سابق، ج٥، ص ٣٧٤. وهولاق باشا، مصدر سابق، ج٢، ص ١١٤.

^٢ - عصر، الدولة العثمانية تزيخ ووثائق، ص ١٤٨.

^٣ - قارل، مرجع سابق، ص ٥٢.

^٤ - أوزتونا، مرجع سابق، ج١، ص ٣٥٠.

^٥ - ماغترار، مرجع سابق، ج١، ص ٢١٧.

خاصة أنه لم يتم العثور على أسباب أو مبررات مناسبة تدفع السلطان بقتل إبراهيم باشا فهو لم يرق بأي خيانة اتجاه الدولة أو حاكمها^(١)، ولكن من المؤكد أنها من تدبير زوجته روكسلان التي كانت وراء هذه الجريمة، خاصة أن العلاقة قد ساءت إلى حد كبير بينهما للأسباب غير معروفة^(٢).

حيث كتبت روكسلان مايلي:

"سيدي لقد أشعل غياك ناراً لا تطفأ في جوانبي، فأرحم معبودك المعذبة، وعجل بخطابك، حتى أجد فيها على الأقل بعض السلوان.

سيدي . عندما تقرأ كلمتي ستتمنى لو كتبت لي للتعبير عن شوقك، فعندما قرأت خطبك الأخير، وكان ابنك محمد وابنتك مهرماه إلى جانبي بدفعت الدموع من عيونهما، وقد أصابني دموعهما بالأسى، إنك تسأل لماذا أنا غاصبة من إبراهيم باشا؟، وبإذن الله عندما نجتمع معاً سأشرح لك، وستعرف السبب"^(٣).

لقد عرف عن إبراهيم باشا أنه كان شخصاً منعزلاً وأن إسلامه لم يكن حقيقياً، ومن الأسباب التي أثارت سخط الشعب عليه، أنه لما عاد من يودا جنب معه ثلاثة أصنام قديمة زين بها ميدان السباق، وهذا دليل على أن إبراهيم باشا عدّ خارج عن تعليم الدين الإسلامي، فتم اتهامه بالوثنية وهذا ما أغضب سكان استنبول إلى حد كبير.

فهجاه الشاعر فعلي جلبي قائلاً: "إن العالم عرف إبراهيمين: أحدهما قوّص الأضنام- ويقصد بذلك إبراهيم الحليل- والآخر رفعها " وهذا ما أغضب إبراهيم باشا و لذلك أمر بقتل فعلي جلبي بعد أن عذبه بطريقة مذلّة"^(٤)

كل هذه الأسباب أدت إلى نفور السلطان سليمان منه، ويبدو أن مصلحة الدولة بالنسبة للسلطان سليمان صارت تقضي بقتل هذا الرجل، وكما هو معلوم أن أبناء السلطان بيازيد

^١ - كلو، مرجع سابق، ص ١٢١.

^٢ - مؤنس، مرجع سابق، ص ٤٨.

^٣ وثيقة منشورة من أرشيف السراي - مؤنس، المرجع نفسه، ص ٤٩.

^٤ - كلو، المرجع السابق، ص ١٢٢.

وسليم دفعه ثمن حيلتهما لإنهما ثارا على والدهم، المتحكم برقاب رعياه^(١).

ولذلك قرر السلطان سليمان إنهاء حياته، فم له ذلك^(٢)، وبموت إبراهيم باشا تم الوصول إلى نقطة النهاية تقريباً في الحروب التوسعية للدولة العثمانية، ففي العرب والشرق لم يتم الاستيلاء على فيينا واحتلال أذربيجان بشكل نهائي^(٣).

والحق يقال إن الإدارة للحازمة التي قامت بتصريف أمور الدولة، إنما تؤكد على نجاح التعاون بين السلطان سليمان وصدره الأعظم إبراهيم باشا.

لتكون بذلك وفاة إبراهيم باشا والحملة المبهكة التي قادها السلطان سليمان على العراق ابتدأاً بـ انتهاء الفترة الأولى من عهد هذا السلطان.

وقبل أن تعود الأمور إلى مجراها الطبيعي بدأ سليم وهو ابن السلطان سليمان من "حرم" يحطط لتسلم العرش من بعد والده لأنه كان يحشى أن يوصي السلطان سليمان بالحكم لابنه بيازيد، فاتفق سليم مع لاله مصطفى باشا "مربي بيازيد"، حيث أغراه بالمال للتخلص من بيازيد، فكتب لاله مصطفى باشا إلى بيازيد يوضح له أن السلطان سليمان مصمم على تولية الحكم سليم من بعده على الرغم من أن بيازيد له الحق في تسلم الحكم، عندئذ كتب بيازيد رسالة إلى أخيه سليم تعرض فيها لوالده السلطان سليمان، فما كان من سليم سوى أن أرسل هذه الرسالة إلى والده سليمان الذي بدوره أرسل بطلب ابنه الذي كان حاكماً على قونية آنذاك، ولكن بيازيد حاف غدر والده وبالتالي تمرد عليه، فرد السلطان سليمان بأن أرسل جيشاً صده لوضع حداً لتمرده^(٤).

ولما انهزم بيازيد هرب مع أولاده إلى الشام الصغرى طهماسب الذي أحسن استقبالهم في بداية الأمر، ثم أرسل الشام طهماسب رسوماً من قبله إلى السلطان سليمان بطلب الشفاعة لبيازيد، فكان رد السلطان قاسياً مما أزعج الشام وجعله يرمي بيازيد وأبنائه الأربعة في

^١ - İSMAIL HAKKI İZUNÇARŞILI, KAUNAK GEÇEN, s 420.

^٢ - مؤسس، مرجع سابق، ص ٤٩.

^٣ - مافكران، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢٤.

^٤ - قارار، مرجع سابق، ص ٥٢-٥٣.

السجن، وبعد فترة قصيرة وصل إلى البلاط الصغري رسولان من قبل السلطان سليمان ومعهم رسالة يؤكدان فيها على استمرار صلح أماسية، كما طلب من خلالها استرداد بيه بياريد، فاستجاب الشاه طهمااسب لرسالة السلطان سليمان تأكيداً منه على المحافظة على الصلح، ووافق على تسليم بياريد ولبنائه ليرسل السلطان سليمان لكنه اشترط أن تهدم قلعة قارص الحد العاصل بين الدولتين، وبعد أخذ ورد بين الطرفين، تم الإتفاق على تسليم بياريد ولبنائه إلى ممثلي السلطان سليمان مقابل الإبقاء على صلح أماسية وهدم قلعة قارص^(١)، وبالفعل سلم للشاه الصغري بياريد ولبنائه للسلطان سليمان الذي قتلهم جميعاً سنة/٩٦٨هـ-١٥٦١م/، وهم بياريد وأولاده أورخان وعبد الله وعثمان ومحمود وكان لبياريد طفل صغير في مدينة بورصة تم قتله خنقاً^(٢).

وهناك أبيات شعرية تم تبادلها بين الأب سليمان وابنه الأمير بياريد، تلخص هذه المسألة، وتبدأ ببيت أرسلها الأمير بياريد باسم مستعار وهو "شاهي"^(٣) ويقول فيها :

يا والدي السلطان سليمان...سلطان العالم كله!

يا والدي الذي هو أحب إلي من نفسي!

أبطوعك قلبك على إيدء إبنك بياريد؟

الله يحلم أني بريء يا والدي السلطان

هيجيبه والده السلطان بشعر ربيعي أيضاً وتحت اسم مستعار هو "معي"

يا ولدي الذي كثيراً ما رفع راية العصيان والطغيان

ما كنت أود أن أعلق فرماناً على عنقك

أكان قلبي بطبوعني ضحك يا ولدي بياريد؟

^١ - عبد الرضا هوشك مهدي، تاريخ روابط خارجي ايران، تهران، مؤسسة انتشارات أمير كبير، ١٣٦٩هـ-ش، ص ٣٣-٣٤.

^٢ - قارن، مرجع سابق، ص ٥٣.

^٣ - أولياء جلبي، وقعة نوبس، استنبول، ١٣١٨هـ، ص ١٤٨.

لا تقل أني بريء تب على الأهل يا ولدي (١)

بتبادر إلى ذهن أي قارئ بعد ذكر أحداث هذه الجرائم المروعة عدة أسئلة تطرح نفسها، ترى أي دين أو قانون أو حتى عرف يبيح قتل السلطان لأولاده أو אחوته، هل هو القانون العثماني؟، هذا القانون الذي ابتدعوه بما يخدم مصالحهم وليس مصلحة الدولة كما يدعون، ولكن يبدو أن سلاطين الدولة العثمانية قد جعلوا من مقولة الغلبة تبرر الوسيلة شعاراً لهم وقانوناً لتحقيق أهدافهم

ويلاحظ من جهة أخرى أن السلطان العثماني عندما اعتلى العرش أعلن أنه حامي الإسلام ولكن الإسلام لم يكن يسمح بذلك لكنها نهوة الحكم، هذه النقطة الأولى من النقطة الثانية لطالما عرف عن السلطان العثماني أنه كان قسياً ومقاتلاً ولكن أن يكون صعباً لهذه الدرجة أمم النساء فهذا يدعو للاستعراب (٢)

وبالتالي فإن هناك تناقضاً كبيراً في شخصية السلطان العثماني سواء كان سليمان أو غيره من السلاطين الذين أتوا من بعده، وبما أن الحديث عن السلطان سليمان فيمكن القول أن السلطان قد دق أول مسمار في نعش الدولة العثمانية عندما بدأ يرصخ لزوجته المتأمرة روكسلانة (حرم) التي استطاعت أن تسيطر على عقل وقلب السلطان سليمان.

وبالتالي سيطرت على مقاليد الحكم بشكل سري وبدأت تسيّر الأمور بما يخدم مصالحها والتي شحرت بشكل رئيس حول جعل ابنها سليم حاكماً للبلاد من بعد السلطان سليمان (٣).

ويمكن القول إن السلطان سليمان كان يبني ويعمر الدولة بيده اليمنى ويندم بيده اليسرى، ففي الوقت الذي وصلت فيه جيوشه الجزاراة إلى أبواب هيبا وتحدث العديد من الدول والجيوش سواء كان في الشرق أو في الغرب، كانت قراراته الصادرة عن زوجته قد أدت إلى دمار داخلي ممثلاً بالحروب الأهلية بين الأخوة والتي انتهت بالصعف الذي بدأ يحرر جسد الدولة العثمانية.

^١ كوندز ، أوزتورك، مرجع سابق، ص ٢٤٩

^٢ - مصطفى أوجرج، سليمان القانوني، استنبول، ١٣٣٤هـ، ص ٢١٤

٣- قوانين السلطان سليمان:

قانون نامه:

أما بالنسبة للتطورات الإدارية التي شهدتها الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان فقد تمثلت بإصدار (قانون بامه سلطان سليمان) وقد عدّ هذا القانون مكملاً لقانون السلطان محمد الفاتح الذي صدر سنة/٨٦٥هـ/١٤٦١م^(١)

وفي بداية الأمر لابد من الإشارة عن سبب وراء السلطان سليمان بالقانوني، تم إطلاق لقب القانوني على السلطان سليمان لقيامه بتطبيق القوانين على جميع الناس دون تمييز، و نجاحه في تدوين القوانين التي صدرت في عهد السلطان محمد الفاتح والسلطان بييريد الثاني والسلطان سليم^(٢)، هذه القوانين التي وصفت وفق لما خولته الشريعة الإسلامية^(٣)، أما السلطان سليمان فكان أفضل من قام بتحريرها، بعد أن صاف عليها الكثير من القوانين الأخرى، حيث وضعها مجموعة من الفقهاء والعلماء في عهده^(٤).

لقد وصفت هذه القوانين التي أصدرها السلطان سليمان القانوني بالتعاون مع شيخ الإسلام محمد أبي السعود أفندي بما يلائم مع الظروف الخاصة للولايات والمدن، ودر أن تتعرض مع أسس العقيدة الحنفي^(٥)، وقد بلغ عدد هذه القوانين التي صدرت في عهده حوالي مائتي قانون تقريباً^(٦)، وتميزت هذه المواد القانونية بأنها كانت متقدمة جداً، وسابقة لعصرها، لأنها شملت مختلف أوجه الإدارة، كما وصفت حدّ للزلاّ، وحدرت أياً منهم من ارتكاب مخالفات تصر بالعامّة، أما السمة الرئيسية للقانون العثماني فإنها وصفت على أساس عسكري^(٧)، ويسند على مبدأ رئيس وهو (أن الرعية والأرض تعود إلى السلطان)، إذ لا يحق

^١ - أورتونا، مرجع سابق، ج١، ص ٣٥٥

^٢ - أورتونا، كوندز، مرجع سابق، ص ٢٤٣-٢٤٤

^٣ - حسان الحطّار، الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط، دمشق، دار وحي القلم، ط١، ٢٠٠٦م ص ١٨٤

^٤ - أورتونا، كوندز، المرجع السابق، ص ٢٤٣-٢٤٤

^٥ - أورتونا، المرجع السابق، ج١، ص ٣٥٥

^٦ - أورتونا، كوندز، المرجع السابق، ص ٢٤٢

^٧ - حسون، مرجع سابق، ص ٤٠٤.

لأي شخص أن يمارس أي سلطة على الأرض دون موافقة السلطان، وهذا ما منح السلطان سيادة مطلقة في الدولة وفتح له المجال لوضع يده على كل القوانين في الولايات القنمية أو التي صدرت في عهده وإخضاعها لسيطرته إضافة إلى أن قسماً من هذه الصلاحية مستمدة أصلاً من أصول القبيلة وعاداتها^(١)، وكان هدف السلطان من هذه الإجراءات هو الحيلولة دون قيام المسؤولين الإداريين والعسكريين الذين عرفوا (بأهل العرف) بإصدار عقوبات إعتباطية على الناس أو فرض صرق بشكل عشوائي، أي لضمان سيادة القانون، وقد جاء في إحدى القوانين المؤرخة في سنة ٩٤٧هـ/١٥٤٠م/مايلي "وعلى أهل العرف أن يتجنبوا تجاوز هذا القانون، وينص هذا القانون أيضاً على ضرورة الرجوع إلى القانون في موصوع العرامات المالية المقرر تحصيلها من المذنبين، وعدم تجاوز المقادير المحددة فيه"^(٢).

كما سمح القانون للسلطان أن يقوم بمراقبة الأوقاف والملكيات الخاصة، وفي جانب آخر أدار القانون العثماني نظام السخرة وحدد لهذه الحالات بدلاً نقدياً، ليكون القانون العثماني بذلك قد نجح بإدخال نظام صريبي أبسط من الأنظمة التي سبقتة فيما يخص الخدمات^(٣).

وقد اهتم القانون العثماني أيضاً بتحديد حجم الصربية وكيفية جمعها مع وضع وقت محدد لها، كما منح القساوسة والأطفال والنساء والشيوخ إعفاء من دفع الضرائب^(٤).

أما بالنسبة للقانون الجنائي فكان يعدّ مكمل للشرعية الإسلامية^(٥)، حيث تضمن القانون على عقوبة الإعدام أو قطع يد المجرم المدان بجريمة قتل أو السرقة مع منع أي غرامة مالية كبديل عن تطبيق العقوبات^(٦)، وحير مثال على ذلك هذا النص القانوني الذي يصيء لنا جانباً من جوانب العدالة التي كانت مطبقة في المجتمع آنذاك "تطبق العقوبة الموصوعة بالنسبة للمجرم المعترف به على الأشخاص الذين اقترفوها مهم كانت ممرلتهم" (قانون باسمه سلطان

^١ - إينالجيك، مرجع سابق، ص ١١٦.

^٢ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٤١.

^٣ - ISMAIL HAKKI UZUN ÇARŞILI, KAUNAK GEÇEN, S 510.

^٤ - إينالجيك، المرجع السابق، ص ١١٨.

^٥ - العطار، مرجع سابق، ص ١٨٥.

^٦ - إينالجيك، المرجع السابق، ص ١١٨.

سليمان، الباب الأول، الفصل الأول^(١)، ويؤكد على ذلك النص القانوني التالي "تفصع يد من سرق دابة ويعرم مائتي أفجة إن تجاوز (أهل الحق) عن قطع يده" و"من قتل نفساً عمداً يقتل"^(٢) كما فرض القانون العقوبات أو العرامات التي لم تكرر وأصبحت في الشريعة الإسلامية، على سبيل المثال كان يعاقب سارق الحبل بقطع يده أو يدفع غرامة مالية قدرها خمس قطع ذهبية، وقد ورد في إحدى النصوص القانونية تأكيد لما ورد في السابق حيث يبين لنا هذا النص القانوني مايلي "من جرح بسهم أو سكين فاصطر الجريح أن يلزم الفراش، يعرم المعتدي إن كان غيباً بمئة ألف أفجة أو أكثر من مئتي أفجة وإن كان متوسط الحال مائة أفجة وإن كان شديد الفقر خمسين أفجة" *^(٣).

أما فيما يتعلق بالأمور العسكرية فقد كان أفراد الطبقة العسكرية يحاكمون أمام المجلس السلطاني في العاصمة، وكانت تعقد هذه المجالس برئاسة قائد العرقة التي ينتمون إليها.

وفيما يخص القضايا التي ترتبط بالنظام العام فقد كان يوسع السلطان أو وزرائه أو ولاته أن يصدروا للحكم دون أن يتقيدوا بقانون نامه، فصلاً عن ذلك، هتم القانون العثماني بمنح القضاة حرية التصرف، خاصة أن العرامات كانت هي التي ترشدهم إلى التصرف وفق للقانون الذي كان يطبق عادة في مثل تلك الحالات.

وقد ورد في قانون نامه سليمان^١ إذا كانت هناك حالة غير واردة في القانون نامه، يجب أن يرسلها بشكل رسمي إلى العاصمة، وحين يصل الأمر (من العاصمة) تحل القضية في صوته، ولا بد أن يسجل هذا الحكم في السجل، وأن يستند إليها في الحالات المماثلة *^(٤).

^١ - أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٥٥

^٢ - خليل ساحلي أرغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني (بحوث ووثائق وقوانين)، استنبول، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ٢٠٠٠م، ص ٥٥٣-٥٥٤

^٣ - أرغلي، المرجع نفسه، ص ٥٥٢

* الأتجة عثمانية ذهبية وفضية صكت سنة ١٣٢٧م هي عهد أورخان، واستمرت حتى سنة ١٦٨٧ وكان عيارها ٧٥,٥ قراط وفي عهد القانوني نقص عيارها إلى ٣,٤٠

Midhat Sert Oglu, Rseimli Osmanli Tarihi, Ankara, 1983, s. 10.

^٤ - إيبالجيك، مرجع سابق، ص ١١٨-١١٩

ومن الجدير ذكره أن العقوبة لا تطبق على أي متهم دون حكم خطي من قبل القاضي، حيث كان لا يستطيع الوالي أن يقوم بتطبيق أي حكم دون موافقة القاضي.

مع العلم أن الوالي كان يطالب بأن يتم إحصار المتهم أمام القاضي لكي يقرأ أمامه الحكم الصادر بحقه^(١). وجد في للدولة العثمانية قصة العسكر الذين عذبوا رؤساء الهيئة القضائية فكانت سلطتهم غير محصورة بالشؤون العسكرية بل تعدتها إلى الشؤون المدنية حيث كانوا ما يسمى بمحكمة الاستئناف العليا وبما أنها محكمة قوية فلا يحد من صلاحيتها سوى السلطان أو الصدر الأعظم.

أما من حيث المستوى فتم تقسيم القضاة إلى قسمين

١- كبار القضاة (ملا كبار) وهم قصة عسكر الأناضول والروميلي.

٢ صغار القضاة (ملا صغار) وهم قصة المدن العشر التي تأتي بالمرنية الثانية كمثل مرعش وبعداك والبوسنة وصوفيا وبلعراء وعيتاب وكوتاهية وقونية وغيرها من المدن، وكان صغار القضاة يتولون إدارة الشؤون الإدارية والبلدية والقضائية بصفتهم رؤساء المناطق الموجودين فيها.

ومن جدير بالذكر أن من أولويات الدولة العثمانية بعد الاستيلاء على أي مدينة أو ولاية هو أن يتم مباشرة تعيين قاضياً عليها بعية حل الراعت بين الناس وتحقيق العدالة، وكانت الهيئة للقضاة العثمانية تنوع على ثلاثة مناطق وهي الروملي والأناضول ومصر. وكان القضاة في منطقة الروملي تحت إدارة قاضي عسكر الروملي، أما القضاة في مصر والأناضول فكانوا تحت إدارة قاضي عسكر الأناضول^(٢).

وبالنسبة فإن قصة العسكر منذ نشوء الدولة العثمانية وحتى أواخر القرن السادس عشر مخولين بمنح مناصب الهيئة العلمية، وعليه فإن كتب القوانين (قانون نامه) بصت بشكل واضح على مهام القاضي ومسؤولياته ويمكن توضيح ذلك من خلال هذا النص "إنهم يتولون تنفيذ

¹ Yavuz bahadır oğlu, kanunı sultan suleyman, İstanbul, 2009, 5177

^٢ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٩٥.

الأحكام الشرعية، ويتتبعون الأقوال المختلف فيها عن الإثمة الحنفية، ويعملون بالأصح منها، ويقومون على أمر تحرير السجلات والصكوك، وتوزيع الصغار، وقسمة موارث الرعايا، وصبط أموال اليتامى والمفقدين وعزل ونصب الرصبي والنائب، وتحرير عقود النكاح، وتنفيد الوصايا وسائر الأمور الشرعية^(١).

وبهذا يمكن القول إنه ومن خلال النظر إلى (قانون نامة سلطان سليمان)، الذي بقي ساري المفعول حتى القرن التاسع عشر^(٢)، تمنع الرعايا بحقوق متساوية، كما أنه أثبت نجاح السلطان سليمان القانوني في ترك بصماته على مظاهر التقدم الثقافي والسياسي، وذلك من خلال تطبيقه القوانين والتي شملت رجاله وحاشيته، ولم يصعب إلا أمام زوجته روكسلانة، علماً بأنه أسرف كثير في معاشرته النساء، ولكن أياً مهن لم تحظ بما حظيت هذه المرأة التي قال عنها رصا نور " لقد كانت عقد الحل والربط في دولة القانون"^(٣) ولهذا يمكننا القول إن قوة السلطان سليمان كانت بالرجال الذين يحيطون به.

٣- علاقة السلطان سليمان بالعلماء والمدرسين:

لقد أجرى السلطان سليمان تعديلات كثيرة لم تقتصر على القانون وحسب وإنما شملت أيضاً نظام الدولة، وقد طالت هذه التعديلات مختلف أوجه الحياة ولاسيما المدارس وطبقة العلماء والمدرسين، لأنه اعتقد أن قوة الدولة تنبثق من علمائها ومفكرها^(٤).

حيث شهد النظام المدرسي في الدولة العثمانية تعبيراً كبيراً زمن السلطان سليمان القانوني^(٥)، إذ قام بتأسيس أربع مدارس علمية ومدرسين للدراسات المتخصصة حول جمع السليمانية، الأولى متخصصة في الطب والأخرى بالحديث، وذلك حول جامع السليمانية* الذي

^١ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦٠.

^٢ - أورتيو، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٥٥.

^٣ - نور، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤١٧.

^٤ - صفا باشا، تاريخ عطا، لجراء، استنبول، ١٣٠٢ هـ، ج ٣، ص ١١٦.

^٥ - فريد بك، مصدر سابق، ص ٢٥١.

* لقد كلفت المدرسة السليمانية شكل بظنه تحول هامة وكبيرة في الحياة العلمية عند العثمانيين، إذ كانت تمثل أرقى أنواع الجهاز التعليمي من حيث شكلها المعماري، ومن حيث إمكاناتها المادية التي تمتعت بها وعلى مكائنها وبرسجها التعليمية. أوغلو، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩١.

قام ببطله في امتحان حلال علمي/١٥٥٠-١٥٥٩م/، وعدت هذه المدارس من أرقى المدارس في الدولة العثمانية، بذلك أعطى السلطان سليمان الشكل النهائي للنظام المدرسي الذي استمر حتى نهاية الدولة العثمانية^(١).

لقد نجح السلطان سليمان بتطبيق المدارس^(٢)، حيث قسمها إلى اثنتي عشرة قسمًا وأطلق على كل درجة اسمها الخاص، وكل على كل طالب أن يحصل على إجازة قبل أن ينتقل إلى المرحلة التي تليها، هي المراحل التعليمية الأولى كل يطلق على الطالب المبتدئ في العلم تسمية (دانشمند)^(٣)، وعندما يصل إلى المرحلة السادسة أو ما يسمى بصحر الثمان (أي المرحلة السادسة العليا)، يسمح له بأن يعمل مساعد مدرس (أي معيد)، حيث يعيد مع الطلاب ما أخذوه مع أساتذتهم، وفي هذه المرحلة لم يعد اسم الطالب صوفته (أي متحرق للعلم)، وإذا رغب الطالب في أن يحصل على مرتبة عليا للوصول إلى النظام الفصائي كان عليه أن يدرس المراحل الستة المتبقية، وفي هذه المرحلة يحق له أن يتابع دراسته وهو معيد وبذلك يصبح مدرسا، فقد كان من واجبه أن يدرس في المراحل الدنيا ثم يصل تدريجياً نحو المراحل العليا، إذ كان عليه أن يجتاز المراحل التسع الأولى من أصل اثنتي عشرة درجة، ولا يحق لهذا الطالب أن يصبح مؤهلاً لمنصب (الملا)* أو الفاضي الكبير إلا بعد إجتيازه للمرحلة التاسعة من التدريس^(٤).

وبالتالي يمكن القول إن المتخرجين من المدارس السلطانية يقسمون إلى ثلاثة فئات:

١ - الفئة العليا. وتشمل للمدرسين الذين تخرجوا ابتداء من الدرجة التاسعة فما فوق، وهم مدرسو دار الحديث*^(٥) وهي تعد من أهم مؤسسات التعليم العليا في الدولة العثمانية^(٦).

^١ بنالبيك، مرجع سابق، ص ٢٥٩.

^٢ فريد بك، مصدر سابق، ص ٢٥١.

^٣ - حصون، مرجع سابق، ص ٤٠٥.

* (الملا)، يطلق هذا اللقب على الشخصيات الدينية في العاصمة، وهم مرتبون في درجات ومراتب. لوبس، مرجع سابق، ص ١٧٨.

^٤ - أوغلو، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣١٢.

^٥ - أوغلو، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣١٣.

* دار الحديث، أسسها السلطان مراد الثاني في أدرنة. بنالبيك، المرجع السابق، ص ٢٥٧.

^٦ أيبا لجيك، المرجع السابق، ص ٢٥٧.

٢ - الفئة الوسطى: وهم مدرسو الدرجات السادسة والسابعة والثامنة.

٣ - الفئة الدنيا: وهم المدرسون من ذوي الدرجة السابعة.

ولكن قلة من الدارسين تابعوا دراستهم في المراحل التعليمية العليا، لأن أكثرهم فصلوا الإنضمام إلى المدارس الملحقة بجامع السلطان بياريد المختصة بدراسة الفقه، وعد تخرجهم يصبحون (ملازمين) أي مؤهلين لوظائف مثل نائب القاضي (نائب الملا) أو قاضي عادي أو مفتي صغير في إحدى الأقاليم، وبالتالي فإن حرجي مدارس بياريد ليكنوا مؤهلين للتعيين يجب أن يلازموا أستاذ كبير، وإذا أرادوا أن يصبحوا وإذا أرادوا أن يصبحوا مدرسين كان عليهم أن يدرسوا سبع سنوات في المدارس العليا، وكان الحصول على الملازمة* أمراً صعباً، إذ كان لابد من وجود اهتمام ورعاية شخصية كبيرة في الهيئة العلمية للمؤهل للملازمة مثل مدرس في جمع السليمانية أو قاضي عسكر، وكانت أسماء هؤلاء الملازمين تسجل في سجل يسمى (مطلب)، والذي أوجد هذا النظام هو محمد أبو السعود أفندي قاضي عسكر الروملي^(١).

وعليه فإن الممارسة في الدولة العثمانية هي عبارة عن مؤسسة وقفية، وتمثل جزءاً من مجمع بصم الجامع ومنشآت خيرية أخرى، كما أنها مؤسسة مستقلة بحد ذاتها، حيث كان يعين المدرس فيها وفق لمرسوم سلطاني، وتمركزت هذه المدارس في المدن الكبرى، فعلى سبيل المثال كان يوجد في مدينة أدرنة سنة/٩٣٥هـ/١٥٢٩م/حوالي أربع عشرة مدرسة^(٢).

وفي الواقع لم تفرص الدولة العثمانية بطامها التعليمي على كل المؤسسات التعليمية في الولايات العربية إنما ألفت لها تقاليداً^(٣)، حيث كان لكل مدينة رئيسية مسجد جامع بصم كبار المدرسين والطلبة والعلماء مثل الجامع الأموي في دمشق والأزهر في القاهرة، وكل العلماء

* الملازمة، نظام في التعليم التركي العثماني، يعني المرحلة التي تمر بين إنهاء الطالب دراسته وحصوله على إجازته من مدرسة من المدارس وبين تعيينه القضي في عمله، خلال هذه المرحلة يكتب المرشحون للتدريس حيرة عملية، بحضورهم مجالس العلم، لتعلم الكبير الذي يلازمونه ومنها مجالس قضاء عسكر، ويخرجهم من كبار الهيئة العلمية، وهي الهيئة التي تصمم كبار العلماء في التدريس والعضاء. أوغلو، مرجع سابق، ج١، ص ٣١٢

١ - أوغلو، المرجع السابق، ج٢، ص ٣١٣

٢ - اينالجيك، مرجع سابق، ص ٢٥٩

٣ - أوغلو، المرجع السابق، ج٢، ص ٣١٤

كانوا خريجي تلك المدارس، وقد برز هؤلاء العلماء وأصبح لهم دوراً مهماً سواء كان في الجنب الاجتماعي أو حتى السياسي في الدولة العثمانية^(١).

وكان في مقدمة هؤلاء العلماء مفتي استنبول (شيخ الإسلام) حيث عد الرجل الثالث بعد الصدر الأعظم في الدولة العثمانية حيث كانت تُخضع له السلطات القضائية والدينية بعد السلطان^(٢)، وكان يمارس دوراً مزدوجاً في تطبيق وتفسير القوانين، إذ كان المفتي مسؤول عن تطبيق الشريعة الإسلامية أي كانت أعلى الماصب الدينية والقضائية متاحة له^(٣)، كما حصل أيضاً على ماصب تمنحه السلطة السياسية وخصوصاً عندما يطلب منه فتاوى ذات طابع سياسي مثل إعلان الحرب، لأن السلطان لا يتقدم على حرب دون أن يستصير من شيخ الإسلام فتوى يقر فيها بأن هذه الحرب لا تتناقض مع الدين^(٤)، وقد حرم السلطان سليمان على دعم منصب المفتي إلى حد كبير ففي عهده برز الكثير من العلماء الذين تولوا منصب الإفتاء بمباركة منه^(٥).

لقد مارس الكثير من العلماء مهمة التدريس حيث درّسو في أرقى مدارس الدولة العثمانية، ومن أشهر العلماء الذين برزوا في عهد السلطان سليمان القانوني كان المولى عبد القادر الشهير بقادري شلبي الذي تدرّج في الماصب حتى تولى منصب الإفتاء وكذلك الحال بالنسبة لسعد الله بن عيسى الذي تولى منصب الإفتاء أيضاً، أم سليمان الرومي فقد كان مدرساً بإحدى المدارس الشهيرة بأدرنة، وقد مات أثناء وجوده في مجلس خاص للعلماء وبوجود السلطان سليمان القانوني عندما كان يحتفل بختان أولاده، فضلاً عن معلم السلطان سليمان حيدر الدين الذي حظي باهتمام كبير من قبله^(٦)، وهناك المولى محي الدين محمد قطب الدين الذي عد من أشهر المعلمين زمن السلطان سليمان القانوني، و العالم الفاضل المولى محي الدين محمد بن الخطيب الذي كان من أشهر المدرسين في عهد السلطان سليمان، حيث

^١ - أوغلو، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٥٩-٢٦٠.

^٢ - حصون، مرجع سابق، ص ٤٠٥.

^٣ - لويس، مرجع سابق، ص ١٧٨.

^٤ - أوغلو، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٥٩-٢٦٠.

^٥ - حصون، المرجع السابق، ص ٤٠٥.

^٦ - أرسلاز، مصدر سبق، ص ١٦٩-١٧٤.

درس بمدرسة السلطان بيلايد ثم درس في إحدى المدارس التي بناها السلطان سليمان وقد عرف بحبرته في مجال التاريخ والحديث والتفسير وسائر العلوم الرياضية والموسيقى^(١)، وهناك عالم الرياضيات والهندسة علي بن ولي الذي أجرى أبحاثاً في علم أنساب الأعداد اللوغاريتم وقد سبق بهذا المجال الأوروبيين بعقود عديدة.

و الواقع أن المدارس في الدولة العثمانية أدت دوراً كبيراً شبيهاً بدور الجامعات في أوروبا طوال قرون عديدة، لأن الحياة الفكرية كانت محصورة في تلك المدارس، وعلمائها حيث أنفق الدولة عليهم أموالاً طائلة بالإضافة إلى أنهم كانوا يحطون بأرقى درجات الرعاية والاهتمام نتيجة لدورهم البارز والفعال في المجتمع^(٢).

إذاً كان السلطان سليمان القانوني رجل إدارة متميز وقد أظهر براعته في الإدارة عندما وسع التشكيلات الإدارية التي كانت منذ عهد السلطان محمد الفاتح وأدخل عليها بعض التغييرات، كما بلغت التشكيلات الإدارية للمقاطعات والأقاليم درجة عالية من التنظيم والنفذ وخبر مثال على ذلك القوانين التي صدرت في عهده التي سطمت معظم شؤون الدولة، وقد سعى السلطان سليمان القانوني من خلال هذه القوانين إلى ترسيخ مبدأ العدالة، ويمكن القول: إن التصور الذي شمل المجتمع جعل من القرن السادس عشر عصر السلطان سليمان القانوني بكل جدارة^(٣).

وبالمقابل صحيح أن السلطان سليمان القانوني كان له الفضل في إرساء دعائم الدولة وتوطيد أركانها من خلال العديد من الإنجازات التي سبق الحديث عن بعضها، ولكن والحق يقال كانت هناك بعض القرارات التي أجذب عليه وكانت نتائجها وخيمة وقد انعكست بشكل سلبي على الدولة العثمانية.

وهذا ما أكد عليه كوجو بك وهو موظف مسؤول في البلاط العثماني من أصل بلقاني عندما قُدم عام/١٠٣٩هـ- /١٦٣٠م/ مذكرة إلى السلطان مراد الرابع يوضح فيها نقاط ضعف

^١ - طشكيري، رداء الشقائق العثمانية في علماء الدولة العثمانية، ص ١٥٢

^٢ - كلو، مرجع سابق، ص ٣٣٣

^٣ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٥

الدولة العثمانية، والتي ظهرت في عهد السلطان سليمان القانوني على أمل أن يتفادى السلطان مراد الرابع هذه الأخطاء، لأنها كانت السبب في ضعف الدولة العثمانية وتراجعها، ومن بين هذه القرارات سماح السلطان سليمان للإكشارية بأن تقاوم تحت إمرة الصدر الأعظم بدلاً عنه، وهذا ما سبب في تقاعس أغلب السلاطين الذين خلفوه عن الخروج للقتال، كما أنه سمح للإكشارية بالزواج والإقامة خارج ثكناتهم مما أدى أيضاً إلى تقاعس الجنود عن الخروج للقتال، بالإضافة إلى كل هذا ألغى السلطان سليمان نظام الإشراف على أمور الدولة في ديوان الوزراء برئاسة، وأسند هذه المهمة إلى الصدر الأعظم والذي صار يعين في منصبه بناء على قربه من السلطان والقصر دون النظر إلى خبرته الإدارية وسيرته الدلتية، وهذا بدوره فتح الباب لتدسس والمكاند بين الصدر الأعظم^(١).

وقد حمل معظم الكتب والمؤرخين مسؤولية فساد الإكشارية إلى السلطان سليمان، ولا سيما بعد أن أسند الصدارة العظمى إلى صهره رستم باشا التي وصفته المصادر العثمانية بالكرواتي الصغير، وتفيد بعض المصادر الأخرى أن رستم باشا كان يهودياً، ولهذا تمسكت به روكسلاته بشكل كبير جداً^(٢).

لويس، مرجع سابق، ص ٢٠٨

^٢ - أورجل، مرجع سابق، ص ٣١١

الفصل الثاني

الإدارة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني:

١- مهام السلطان.

٢- مهام الصدر الأعظم.

٣- الجهاز الإداري:

- الديوان

أ- قاضيا العسكري.

ب- النفترارين.

ج- النشائجي.

د- مجموعة الكتب والتذكيرية.

٤- أوضاع القوى العسكرية في عهده:

أ- الإنكشارية.

ب- الأسطول.

الإدارة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني:

لقد كانت الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة التي جمعت تحت إدارتها الشرق الأدنى فترة طويلة من الزمن، وهذا ما عجزت عنه الكثير من الدول وفي مقدمتها الدول الأوروبية التي احتلت معظم دول الشرق الأدنى فيما بعد^(١).

وبما أن الدولة العثمانية كانت في حالة حرب شبه دائمة، هذا ما جعلها قد صبحت بصيغة عسكرية، ويبدو أنها حافظت على طابعها العسكري حتى النهاية^(٢).

هذا وقد بلغت الحصار العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني أرقى درجاتها، إذ تحققت في عهده أعظم إنجازاتها، كما نجح السلطان سليمان في منح الحصار العثمانية طابعها المتميز الخاص بها، مع الحفاظ على اتباع الشريعة الإسلامية في نظمها الإدارية مع بعض الاقتباس من النظم البيزنطية، والذي تجلّى بشكل واضح في النظم العمرانية وحصة القصور التي اهتم بها السلاطين العثمانيين بشكل كبير وفي مقدمتهم السلطان سليمان القانوني^(٣).

لنثبت بذلك أنه لم يكن قلداً عسكرياً فحسب، بل كان منظماً ناجحاً طور المؤسسات التي أوجدها أسلافه بنقطة متناهية^(٤).

وجدير بالذكر أن جهاز الإدارة العثماني حقق أعظم إنجازاته بين القرن الخامس عشر والسابع عشر الميلاديين، وفق تنظيم يتصدره في مركز الدولة الديوان الهمايوي بالإصافة إلى الإدارات التابعة له بشكل مباشر أو غير مباشر، إذ كانوا يتناولون فيه كافة المسائل السياسية والفصلية والاقتصادية والإدارية المتعلقة بأمور الدولة الداخلية أو العلاقات الدولية، وكل ذلك كان يتم من خلال نظم وبرامج محددة تسير على وتيرة سريعة حتى يتم الوصول إلى النتيجة المرجوة بعد تصديق السلطان على تنفيذ الإجراءات اللازمة لها^(٥).

^١ - أورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٣٢

^٢ - باغي، مرجع سابق، ص ٧٧

^٣ - عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص ٦٤.

^٤ - بروكليس، مرجع سابق، ص ٤٥٨

^٥ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٦٩

بداية لا بد من الإشارة إلى أن السلطة الفعلية للدولة العثمانية كانت تنبثق من القصر، والذي كان متمثلاً بالدرجة الأولى بالسلطان والصدر الأعظم ثم حاشية السلطان^(١).

١- مهام السلطان:

خلال مدة قرون تربع على عرش الدولة العثمانية ستة وثلاثين سلطاناً، وبموجب التقاليد الإسلامية يجب أن يكون السلطان ذكراً وفي سن الرشد وأن يتمتع بعقل سليم^(٢)، كما يشترط على السلطان الذي يتولى العرش أن يكون من البيت العثماني الحاكم^(٣).

وقد تلقب للسلطان العثماني بالعديد من الألقاب التي كانت تدل على عظمة وقوة وشجاعة صاحبيها، وكان السلطان سليمان القانوني واحد منهم، فكان لا يبحل على نفسه بهذه الألقاب^(٤)، ففي مقدمة قانون بامه للسلطان سليمان القانوني يصف السلطان نفسه (بسلطان العرب والعجم والروم)، إذ يبدو أنه ادعى السيادة العليا على ثلاثة من أكبر الشعوب آنذاك، ثم يلاحظ أنه استبدل في القانون ذاته لقب سلطان لروم بلقب بادشاه إسلام (حاكم الإسلام)^(٥)، واتخذ السلطان سليمان أيضاً لقب خاقان لأنه عد نفسه أكبر حاكم للأتراك، ولقب سلطان لأنه حكم مصر^(٦)، بالإضافة إلى أن كلمة سلطان كثر ذكرها في القرآن والحديث، مما جعل السلطان سليمان يعتبر لقب سلطان من أكثر الألقاب ذات الصفة الإسلامية^(٧)، ولا بد من ذكر أن السلطان حمل أهم النتائج الملكية نتيجة حصوع العديد من المدن تحت سيطرته مثل (المجر وصربيا وبلغاريا واليمن وتونس والجزائر)^(٨).

عامر، المونة العثمانية تاريخ ووثائق، ص ٦٦

^١ - بنالجبك، مرجع سابق، ص ٥٥

^٢ - طغوش، مرجع سابق، ص ٥٥٧

^٣ - أورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٧١

^٤ - لويس، مرجع سابق، ص ٦٩.

^٥ - أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٧١

^٦ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٤٩.

^٨ - أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٧١

وبالنتيجة كل هذا مهد له السبيل في أن يجمع في شخصه العبود من التجار والألقاب التي تتناسب مع وضعه كحاكم للعديد من الشعوب في العالم.

يتبع للسلطان حكاماً كثيراً خاصين له بشكل طوعي^(١)، خاصة أن السلطان كان يلجأ عادة إلى تعيين أولاده كأمرأء على مناطق الدولة وكان الهدف من ذلك تدريبهم على الحكم والتعامل مع الموظفين، وهذا ما جاء في واقع الحال بنتائج سلبية على السلطان^(٢)، برزت فيها فيها طموحات وأطماع لأولاد وتطلعتهم إلى السلطة، وهذا ما أضعف ثقة السلطان بأقرب الناس إليه^(٣)، والأمثلة كثيرة عن الأمراء الذين طمعوا بالسلطة مما دفعهم إلى حيلة أقرب الناس إليهم، ومنهم الأمير سليم الثاني ابن السلطان سليمان القانوني، الذي لجأ إلى التآمر للوصول إلى السلطة^(٤)، وكل ذلك تم بالتعاون مع والدته روكسلانة^(٥).

وهذا ما دفع بالسلطان محمد الفاتح إلى أن يصدر قانوناً يعد قسري على المستوى الإنساني، عندما سمح لخلفائه من السلاطين بقتل إخوتهم، حتى لا يبايعهم أحد على السلطة^(٦)، إذ قال "يسر الله السلطة لكل واحد من أولادي، ولأجل تأمين نظام العالم فمن قتل الأخوة مناسب، حتى أن أكثر العلماء أجازوه فليعمل به"^(٧)، وقد تمسك السلاطين الذين خلفوه بهذا القانون والتزموا به حتى أواخر القرن السادس عشر^(٨).

ومعهم من ذهب إلى أبعد من ذلك ونقصد بذلك السلطان سليمان القانوني الذي قتل اثنين من أولاده أولهما مصطفى والثاني بيازيد، وقتله لهم كان ظمناً كبيراً، لأنهم وقعوا ضحية دسائس ومؤامرات زوجته روكسلانة التي استطاعت أن تتزع السلطة لابنها سليم الثاني، وهذا

أوردته نا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٧٣

^١ - علي محمد إبراهيم، النظم الإدارية في الدولة العثمانية ١٥٢٠-١٦٨٧م (دراسة وثائقية تحليلية)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ لدولة العثمانية، إشراف أ.د محمود علي عامر، ٢٠٠٧م، ص ٤٤

^٢ - قازان، مرجع سابق، ص ٩

^٣ - ايبالجيك، مرجع سبق، ص ٥٥

^٤ - قازان، المرجع السابق، ص ٥١

^٥ - ايبالجيك، المرجع السابق، ص ٩٦.

^٦ - كوندز، لوزنورك، مرجع سبق، ص ١٢٩

^٨ - قازان، المرجع السابق، ص ٩

تظهر المفارقة العجيبة والمتمثلة بأم تحرص على القتل من أجل وصول إليها إلى السلطة، ولب يقتل أولاده خشية من صباغ كرسى السلطة والجاه منه

من ناحية أخرى عد السلطان سليمان القانوني رأس الهرم في التنظيم العسكري والإداري، وصاحب الكلمة الأولى كما أنه العقدة التي تنتظم عبرها شتى مراكز السلطة^(١)، فهو رئيس الدولة القائد الأعلى للقوات المسلحة فضلاً عن كونه رئيساً للهيئة الحاكمة (الدينية والمدنية)^(٢).

‘ فهو الذي يعين الوزراء ويفصلهم ويوجه الرتب والمأمورين ويثبت رؤساء الولايات المقررة لهم بحسب الإمتيازات المقررة لهم ويصك النفود وتقام الصلاة باسمه في الجوامع ويعقد المعاهدات مع الدول الأجنبية ويظهر الحرب ويعقد الصلح ويقود جيوش البر والبحر ويأمر بالحركات العسكرية ويعقد الشرع الشريف’^(٣)، وكانت له الهيمنة على رؤساء الملل المختلفة غير المسلمة في الدولة العثمانية، بالإضافة إلى عده حامي الشريعة الإسلامية ومنقدها^(٤).

‘ إن حصرة السلطان هو حامي الدين الإسلامي وحاكم جميع التبعة العثمانية وسلطانها’^(٥).

على الرغم من أن السلطان سليمان لم تحد من صلاحيته وجود طبقة أرستقراطية ذات امتيازات أوتحتى قانون مدني، إلا أنه لم يكن باستطاعته أن يتجاهل حدود الشريعة الإسلامية^(٦)، وقد كان مدركاً لهذا الأمر، فصحيح أنه كان يتمتع بالسلطتين التنفيذية والتشريعية والتشريعية إلا أن قراراته (فرماناته) كانت تأتي في المرتبة الرابعة بعد القرار والسنة والمداهب الأربعة، وقد كانت القرارات التي يصدرها السلطان التي كانت تتعلق بالمسائل الدينية والمدنية التي لم ينص عليها المصادر الأساسية مثل القرآن والسنة يسمى (قانون نامه)

١- حسن الصيفة، الدولة العثمانية الثقافة المجتمع والسلطة، بيروت، دارالمنتخب العربي، ١٩٩٧م، ص ٧٢

٢ - طغوش، مرجع سابق، ص ٥٥٧

٣ - أمين الخوري، القانون الأساسي، بيروت، مطبعة الآداب، ١٩٠٨م، ص ٤-٥

٤ - طغوش، المرجع السابق، ص ٥٥٧

٥ - الخوري، مصدر سابق، ص ٤

٦ - باغي، مرجع سابق، ص ٧٨.

أي كتاب قولي، وقد سجع السلطان محمد الفاتح ومن بعده السلطان سليمان القانوني في وضع القواعد الأساسية (إدارياً واجتماعياً وسياسياً) التي قامت عليها الإمبراطورية العثمانية^(١).

هذ بالإضافة إلى القواعد العرفية الثابتة التي كانت ليصاً تحد من تصرفات السلطان، ولابد من ذكر أن ادب البلاط والكثير من القيود التي كان يحرصها المجتمع كانت تحول دون تحقيق رغبات السلطان لاسيما في حياتهم اليومية^(٢).

فعلى سبيل المثال عندما كان السلطان سليمان يقوم بزيارة طفله النائم بجوار والنته (كلبهار)، كان عليه أن يلتزم بعبادات القصر الصارمة، فقد كان يشمل العبيد الأفارقة البكم مواقعهم حول غرفة النوم في الحرم، وترسل النساء الأخريات بعيداً خارج مدى السمع، وكان عليه عدم يترك زوجته وابنه أن يتسلل علناً إلى غرفة نومه الخارجية، وهناك كان على العلماء أن يديروا رؤوسهم بسرعة، وفيما عدا ذلك كان لا يرى زوجته كلبهار مطلقاً^(٣)، إلا أن الأمر كان مختلفاً نوعاً مع روكملته التي انتهت حريقاً قام في القصر السلطاني وكان ذلك سنة ١٥٤١م، وقد سبب هذا الحريق بدمار غرفتها، مما جعلها تطالب بأن تكون غرفتها بالقرب من غرفة نوم السلطان سليمان، وقد تحقق بها ذلك فلم تعد تسير مسافة طويلة للوصول إلى غرفة نوم السلطان^(٤).

وفي الواقع كان للسلطان سليمان الحق في ممارسة كافة الصلاحيات وعلى مختلف الأصعدة، وأن القرارات الإدارية والتنظيمية لا تصدر إلا إذا كانت محررة بتوقيعه^(٥)، والتي والتي كان يطلق عليها الطغراء*^(٦)، فكل القرارات التي تعرض عليه يتم دراستها في الديوان فإذا صادق عليها تتحول إلى فرمان الذي حمل طابع الإلزام، ولهذه القرارات أو الأوامر

١ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١٠٧

٢ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٥١

٣ - تزامب، مرجع سابق، ص ٣٥

٤ - مؤسس، مرجع سابق، ص ٥٣

٥ - كوندر، أورتودك، مرجع سابق، ص ٥٩٦

* الطغراء هي علامة ترسم على الوثائق والمسكوكات السلطانية. كلو، مرجع سابق، ص ٣٦٦.

٦ - عامر، الدولة العثمانية تاريخ وثائق، ص ٦٧

التحريرية الصادرة من السلطان عدة مسميات ومنها (فرمان - براءة - منشور)^(١)، وللسلطان الحق في عزل وتعيين جميع الموظفين مهما علت مراتبهم الإدارية^(٢)، مثل الصدر الأعظم وكبار موظفي الدولة، بالإضافة إلى كل الصلاحيات اسبابة، فإن للسلطان صلاحيات قضائية، حيث وقف على رأس السلطة القضائية^(٣).

وبالمقابل لم يكر السلطان سليمان يتدخل بالشؤون الدينية لأنها كانت من اختصاص المفتي، الذي كان يعمل على مساعدة السلطان في الأمور الدينية وبعض الأمور الإدارية أيضاً^(٤).

وهذا ما أكدته المفتي أبو السعود أفندي في بعض الفتاوى المتعلقة في إدارة الدولة بقوله لا يصح الأمر السلطاني فيما لا يقره الشرع^(٥).

ومن الواضح أن سلاطين الدولة العثمانية وفي مقدمتهم السلطان سليمان القانوني قد استغلوا هذه الصلاحيات وصلوا على تسخيرها في سبيل الحصول على الولاء الديني والسياسي^(٦)، وقد كن من مصلحة السلاطين وللحفاظ على حكمهم أن يكسبو ود الإنكشارية، ويبدو أنه لم ينجح بالسيطرة عليهم بشكل فعلي سوى السلاطين الأقوياء^(٧)، لأن الإنكشارية لم تكن لتتجراً على شق عصا الطاعة إذا كان السلطان قوياً^(٨)، مثل السلطان سليم وابنه السلطان سليمان القانوني^(٩) الذي سعى للظهور أمام الشعب على أنه حامي الشريعة الإسلامية والحرمين الشريفين وطرق الحج وبالطبع حماية دار الإسلام وتوسيعها، بالإضافة إلى سعيه

^١ - كوندز، أورتورك، مرجع سابق، ص ٥٩٦.

^٢ - عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص ٦٧.

^٣ - كوندز، أورتورك، المرجع السابق، ص ٥٩٦.

^٤ - ياغي، مرجع سابق، ص ٧٩.

^٥ - جوبت، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٨٥.

^٦ - جيس الصباح، العلاقات العثمانية الصفوية ٩٠٧-١١٤٨هـ/١٥٠١-١٧٣٦م، رسالة أهدت لنيل شهادة

شهادة الدكتوراه، إشراف د. حسن حلاق، بيروت، ١٩٩٦م ص ٢٤٣.

^٧ - اينالجيك، مرجع سابق، ص ١٠١.

^٨ - عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص ٦٧.

^٩ - اينالجيك، المرجع السابق، ص ١٠١.

لبناء المؤسسات الدينية ودعم القائمين عليها، وهذا ما أكسب السلاطين العثمانيين بشكل عام والسلطان سليمان بشكل خاص شرعية تاريخية ومعنوية كبيرة^(١).

فترى السلطان سليمان يقوم ببناء جامع حمل اسمه أي (السليمانى) ويعدّ من أكبر الجوامع وأجملها وكان يحيط به مجمع كبير من المستشفيات والمدارس ومأوى للعجزة ومؤسسات خيرية، كما أمر السلطان ببناء الشاهزاد جامع (جامع الأمراء) إحياء لتكري ابنه محمد وجهانكير، ويمكن القول إنه في عام /٩٢٧هـ/ ١٥٥٠م/ بلغ عدد الجوامع في مدينة استنبول وحدها حوالي ٣٠٠ جامع^(٢).

صل في خدمة السلطان سليمان طبيب خاص يدعى رئيس الأطباء بالإضافة إلى مجموعة من الأطباء باختصاصات متنوعة، اندرج هؤلاء تحت اسم العرفة الخاصة للبادشاه، وإيضاً هناك السلاحدار ومهمته إعلام السلطان عن كل الأمور التي تحدث في الدولة صغيرة كانت أو كبيرة^(٣).

أما بالنسبة لمرافقي السلطان فأطلق عليهم اسم جاوش حيث قاموا بأمور التشريفات، وفي أغلب الأوقات كان يتم إرسالهم إلى الدول الأخرى بصفتهم سفراء، لأنهم يجيدون عدة لغات^(٤)، وإذا خرج السلطان سليمان في موكب، كان يرافعه حامل المعاتيح والأحتام وحامل السيف ورئيس خزانة الملابس، وحامس معطف المطر كان يحمل نهاية ثوبه عند من العبيد^(٥).

إما إذا خرج السلطان للتتال فقد أحيط به عدد كبير من الحرس والحاشية، فيسير خلفه ثلاثة مماليك يتبعونه كطله ويحملون له الماء والأسلحة، بالإضافة إلى الفرسان الذين

الصباح ، مرجع سابق، ص ٣٤٣

^١ - كلو، مرجع سابق، ص ٢٣٨

^٢ - عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص ٦٧-٦٨

^٣ - أوزتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣١٨

^٤ - مؤنس، مرجع سابق، ص ٤١

كانوا يحملون الأسلحة النارية وخلف هؤلاء الفرسان رجال المدفعية، الذين كانوا يلزمون مدافعهم الثقيلة ويعانون من نقلها من مكان لآخر^(١).

وقد كان ولاء هؤلاء الجنود للسلطان سليمان مطلقاً لا يعرف حداً إذ كانوا على استعداد تام لعداء السلطان بأرواحهم، حيث أحاطوا به مكويين سوراً مذبذباً لا يمكن احتراقه، وبالمقابل ولكي يبرز السلطان سليمان على الصلة الروحية التي تربطه بكتبته المعصية، سجل اسمه في قائمة اسمائهم على أنه جندي مثلهم^(٢).

وبالنسبة لدخل السلطان سليمان فلأبد من الإشارة إلى أن للسلطان سلطة مطلقة على جميع موارد الدولة^(٣)، وقد كان دخل السلطان يشكل عام ضخماً جداً، مصادر هذه الدخل متنوعة، وبمجموعها تذهب إلى حراسة الأندرون المعروفة في القصر باسم (الحرانة الداخلية)^(٤)، وأهم هذه الدخل كان يأتي من الضرائب^(٥)، ومن لإقطاعات المعروفة باسم (مالكانه) أي الأملاك و(خصر) ومن الحدائق السلطانية، وهناك أيضاً العوائد التي تأتي من مصري خراجها السنوي^(٦).

لقد أولى السلطان سليمان القانوني باشوية مصر عناية خاصة^(٧)، وانصب على وجه الخصوص بالسويس والإسكندرية ودمياط، لإنهاء تعدد الأبواب التي يتم منها الدخل إلى مصر^(٨).

وقد عهد السلطان سليمان القانوني نفسه المالك الوحيد لأرض مصر، إلا أنه لم يحرم الفلاحين من حقوقهم في الأراضي فكانوا يتمتعون بصيبتهم منها، ولكنهم كانوا مبرمين بالعمل فيها دون أن يكون لهم الحق في التصرف بها^(٩).

^١ - مؤسس، المرجع نفسه، ص ٢٤

^٢ - كلو، مرجع سابق، ص ٣٠

^٣ - حصون، مرجع سابق، ص ٣٩٦

^٤ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٥١

^٥ - حصون، المرجع السابق، ص ٣٩٦.

^٦ - أوغلو، المرجع السابق، ج ١، ص ١٥١

^٧ - جرجي زيدان، مصر العثمانية، تحقيق د. محمد حرب، دار الهلال، بيروت، ١٩٩٤م، ص ١١٣

^٨ - زيدان، المصدر السابق، ص ١١٧

لقد اهتم السلطان سليمان بتنظيم إدارة مصر، حيث طبق عليها نظاماً إدارياً دقيقاً، وذلك بإنشائه ديوانين أحدهما يدعى بالديوان الصغير والآخر بالديوان الكبير، ومن واجبات الديوان الكبير النظر والإقرار على الأمور والأشغال العامة التي لا تتعلق إدارتها بالباب العالي (الوزارة) مباشرة، أما الديوان الصغير فكانت جلساته تعقد يومياً وكانت مهمته النظر في الحوادث اليومية^(٢).

وببقى أن يؤكد أن عى السلطان سليمان القانوني كان أكبر من أن يوصف، حيث وجد الذهب والعصاة في كل أنحاء قصوره، كما كان السلطان سليمان لا يلبس ملابسهم مهما ارتفعت قيمتها مرتين، فضلاً عن تلك كانت المائدة والأطباق المجهرة في غرفة الطعام مصنوعة من العصاة أيضاً ومرصعة بالجرار^(٣).

وبعد أن اطمأن السلطان سليمان القانوني إلى قوة ملكه، انصرف إلى حياة اللهو والترف، حيث بنى أجنحة في قصر الطوب قاضي، وراى عدد العاملين فيه إلى ٤٨٨ عاملاً، وأصبح القصر يصم حوالي ١٣٧٠ شخصاً، يتقاضون رواتب مقدارها ٢٥٣٦ أقة سنوياً، وقد ارتفع عدد العاملين في قصر السلطان سليمان بين عامي ١٥٣٩-١٥٤٠م/ إلى ٢٠ ألف عامل وكان على القصر أن يقدم الطعام والشراب لهم، هذا وقد ارتفعت مصروف القصر من ٢٠ ألف أقة ذهبية إلى ٥٠ ألف أقة ذهبية أي ما يعادل صربية مصر السنوية^(٤).

مما سبق يمكن القول أن مركز السلطان وما يحتصر به من موقع متميز داخل السلطنة العثمانية، هو جزء لا يتجزأ من كيان الدولة العثمانية، كما أن عملية انتقال الكثير من الصلاحيات التي كان يملكها السلطان وتوزيعها على أطراف أخرى في جهاز الدولة العثمانية، أدى إلى انتقال السلطان من موقع المنحكم بالحر الك السيسى لقوى المجتمع إلى موقع المستهلك للسلطة ثم للمجتمع^(٥).

المصدر نفسه، ص ١١٨.

^٢ - زيدل، مصدر سابق، ص ١١٥.

^٣ - مؤنس، مرجع سابق، ص ٤١.

^٤ - عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص ٩٩ - ١٠٠.

^٥ - الصبغة، مرجع سابق، ص ٨٤.

٢- مهام الصدر الأعظم:

هو الرجل الثاني في هرم السلطة في الدولة العثمانية، وهو الوزير الأول^(١)، بالإضافة إلى ذلك أنه كان رئيس الديوان والمسيطر على شؤون الجيش حيث قاد المعارك الحربية عند الضرورة، وترأس المحكمة العليا بالاشتراك مع قضاة الشريعة الإسلامية^(٢).

أي إنه رئيس الحكومة في الإمبراطورية العثمانية وهو الذي يدير شؤون الدولة نيابة عن السلطان، مع العلم أن منصب الصدر الأعظم لم يكن موجوداً خلال فترة السلاطين الأوائل، إنما كان يدعى نائب السلطان بالوزير^(٣)، وغالباً كان الوزراء من العلماء^(٤).

ويمكن إجمال الصفات الواجب توفرها ليصل الشخص إلى مرتبة الصدر الأعظم بالتالي:

أولاً: أن يكون مسلماً.

ثاني: أن يتقن اللغة العثمانية.

ثالثاً: أن يكون قد تدرّج في مناصب للدولة حتى وصل إلى منصبه هذا.

رابعاً: يتم تعيينه من قبل السلطان (بإشارة) بصورة رسمية^(٥).

ويقيد الصدر الأعظم بشروطين في تنهيد صلاحياته المفوض بها.

أولاً: عرض خلاصة إجراءات النعيين وأمور الدولة المهمة على السلطان سليمان، ويقوم باقي الموظفين بعرض كل أعمالهم على الصدر الأعظم، وفي حال غياب السلطان يحق للصدر

^١ - إبراهيم، المرجع السابق ص ٨٩

^٢ - باغي، مرجع سابق، ص ٨٠

^٣ - عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص ٦٩.

^٤ - اينالجيك، مرجع سابق، ص ١٠٣

^٥ - أورتنونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٣٤.

الأعظم أن يمارس صلاحياته، وإذا كان هناك ما يجب طرحه على السلطان من قبل موظف كبير أو وزير، فهذا الطرح أو العرض يجب أن يتم عن طريق الصدر الأعظم.

ثانيًا: يجب على الصدر الأعظم أن يلتزم بالاحكام الشرعية والقوانين أثناء ممارسته لهذه الصلاحيات^(١).

وقد بين لطفي باشا* الصدر الأعظم للسلطان سليمان القانوني واجبات الصدر الأعظم والامور الواجب الالتزام بها في كتابه (اصف نامه)^(٢).

وبعدُ لطفي باشا من الشخصيات المميزة في عهد السلطان سليمان القانوني، وقد كان له مكانة خاصة عند السلطان لأنه صهره (أي زوج حنّه)^(٣)، حيث اشترك لطفي باشا في العديد من الحملات مع السلطان سليم الأول ثم مع السلطان سليمان القانوني، وخاصة حملاته في أوروبا، ثم تعيينه صدرًا أعظم سنة/٩٤٦هـ-١٥٣٩م/، وظل في منصبه حتى أقيل منه عام/٩٤٨هـ /١٥٤١م/، لوقوع خلاف مع زوجته، فاستقر بعدها في صيغة تدعى ديمتوقّة* ففرغ للبحث وكتابة التاريخ، ولكن عندما مارس لطفي باشا صلاحيات الصدر الأعظم في الدولة العثمانية، وجد أن الديوان السلطاني يعاني من الفوضى وعدم التنظيم، وهدم جعله يبذل جهداً كبيراً خلال السبع سنوات التي قصاها في الوزارة لتنظيم شؤونها^(٤).

لكن بعد إقالته تفرغ لكتابه (اصف نامه) الذي عرض من خلاله النصائح والتوجيهات الواجب اتباعها في هذا المنصب الكبير، مبيّناً من خلاله الصفات المطلوبة في الصدر الأعظم، وكتب كل ذلك من خلال تجربته، فيقول من المهم قبل كل شيء أنه ينبغي ألا تكون للصدر

^١ - كوندز، أوزتورك، مرجع سابق، ص ٦٢٠

* لطفي باشا، من أصل ألباني، جدّه هي الحمة العثمانية عن طريق النعمانية، تخرج من مدرسة القصر إلى خدمة القصر، حيث كان على التوالي جوقه دار (حامل الملابس) ومتفرقه وهم كبار الصباط من أبناء المماليك، ورئيس حراس الباب وحامل راية السطانية. لويس، مرجع سابق، ص ١١٧

^٢ - كوندز، أوزتورك، المرجع السابق، ص ٦٢٠

^٣ - لويس، المرجع السابق، ص ١١٧

* ديمتوقّة، وتقع بالقرب من مدينة أنقرة، ولا تزال ضمن الدولة التركية ولكن في القسم الأوروبي منها.

لويس، المرجع السابق، ص ١١٨

^٤ - لويس، المرجع السابق، ص ١١٨-١١٩

الأعظم أهداف وغايات شخصية، ويجب أن يكرر كل ما يفعله الله، وفي الله، ولوجه الله، لأنه ليس فوق هذا (أي رضا الله)، منصب يطمح إليه، كما ينبغي أن يصدق السلطان دون خوف أو تستر، وإن الأسرار التي يشترك فيها الوزير الأعظم مع السلطان يجب أن تحفظ ليس من الرجال من الخارج فحسب بل من الوزراء الآخرين أيضاً^(١).

ولعل من أهم واجبات الصدر الأعظم إضافة إلى ما ذكر سابقاً، هو تأمين نظام السلطنة وتبديد أحكام الحبس والسبي والإعدام وسماع الدعاوى، وتطبيق الأحكام الشرعية والعرفية وإدارة البلاد ورفع الظلم^(٢)، وعندما يتسلم الصدر الأعظم قيادة الجيش يطلق عليه تذاك لقب (سردار أكرم)*.

وجدير بالذكر أن خروج الصدر الأعظم كقائد للجيش في عهد السلطان سليمان القانوني قد أصبح شبه دائم، بعد أن تتصل السلطان من قيادة الجيش والخروج للمعارك، وفيما بعد أصبح هذه الخطوة التي اتخذها السلطان سليمان عادة اقتدى بها كافة السلاطين من بعده.

ويبدو أنه من تاريخ فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح / ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م^(٣)، حتى وسط القرن السابع عشر، كان يتم اختيار الصدور العظام من رجال الدفشيرومة (الدفشرومة) بمستثناء وزير أو وزيرين، لأن عناصر الدفشيرومة عرف عنهم الطاعة العمياء، نتيجة للتربية العسكرية الصارمة التي تربوا عليها^(٤)، وقد كانت عملية انتقال مركز الصدر الأعظم إلى طبقة الدفشيرومة بمثابة تحويل هذا المنصب من وزير تفويض إلى وزير تنفيذ^(٥)، وقد عرف عن الصدر الأعظم حتى منتصف القرن السادس عشر أنه شخصية قوية،

^١ - لويس، مرجع سابق، ص ١٢٠

^٢ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧٨

* سردار أكرم، مصطلح فارسي عربي وتعني لقائد الأكرم. الصباح، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية 'الحرب والسلام بين العثمانيين والصغويين'، ص ٢٥٠

^٣ - الصبيح، مرجع سابق، ص ٨٧

^٤ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧٧.

^٥ - الصبيح، المرجع السابق، ص ٨٨

واسع التجربة في شؤون الدولة، وخصوصاً بعد أن أدى السلطان دوراً هاماً في اختيار وتعيين الصدر الأعظم ذوي الكفاءة العالية^(١).

وعندما تولى السلطان سليمان القانوني حرق هذه القاعدة عندما عين إبراهيم باشا صدر أعظم وهو الذي كان رئيس غرفته الحليفة، ومنذ ذلك الوقت حدث خلعاؤه حتى في تنصيب من يرغبون من الرجال في هذا المنصب، وهدف السلطان سليمان من ذلك هو صمان ولاء وطاعة هؤلاء الرجال^(٢).

ولابد من التوضيح أنه قام أيضاً بتعيين رستم باشا صدر أعظم فقط تنفيذاً لرغبة زوجته روكسلانة، على الرغم من قلة خيرته وسوء سلوكه.

لقد عد الصدر الأعظم الوكيل المطلق للسلطان، وكانت بيده صلاحيات واسعة، إلا أنه لم يكن بإمكانه أن يعير أحكام القصي، إلا إذا كانت هذه القرارات تتعلق بأمر الدولة^(٣)، هذا وقد كان للصدر الأعظم نظام التشريفات الخاص به^(٤)، ولتي كانت محددة بدقة ولو أنها لم تكن بدرجة تشريفات السلطان^(٥)، فكان جميع الموظفين يقبلون بد الصدر الأعظم، باستثناء الوزراء والقضاة العسكريين فكانوا يقبلون رداءه، أما بالنسبة لذوي المراتب الصغيرة فكانوا يقبلون يده، أما للوزراء والقضاة العسكريين كبار السن فكانوا لا يعلنون يد الصدر الأعظم إنما يعانقونه فقط^(٦).

كما كان الصدر الأعظم يتكلم باسم السلطان في كثير من الأمور التي تخص الدولة سواء على الصعيد الداخلي «الحارجي»^(٧)، وكثيراً ما كان يترك السلطان سيمان الصدر الأعظم إبراهيم باشا في العصمة استبول ليدبر أمور الدولة في عياله، وقد عرف عن إبراهيم باشا أنه كان يحب الهدايا كثيراً فكان يصصر على ألا يبهي أمراً قبل أن يدل نصيبه من الهدايا،

^١ أوغلو، المرجع السابق، ج ١، ص ١٧٧

^٢ طغوش، مرجع سابق، ص ٥٦٥

^٣ أورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٣٤

^٤ بروكلمن، مرجع سابق، ص ٤٧٤

^٥ أورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٣٥

^٦ أورتونا، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٣٦

^٧ - الصباغ، مرجع سابق، ص ٢٥٠

ورهب إلى أبعد من ذلك، إذ كان يمنع ممثلي الدول الغانمين لزيارة السلطان سليمان القانوني، من مقابلته قبل أن يقابلوه ثم يقتلوا يده ويقدموا له الهدايا^(١).

ما عند غياب الصدر الأعظم فكان يكلف مكلف أحد الوزراء، وكان يطلق على الوزير اسم قائم مقام* ليقوم بمهام الصدر الأعظم^(٢)، وترددت صلاحيات الصدر الأعظم ومسؤولياته عندما يقوم بعمليات التفتيش التي تعد أحد أهم الأعمال التي يقوم بها والتي بقي معمولاً بها حتى القرن الثامن عشر، إذ كان يحرر الصدر الأعظم على رأس حاشية كبيرة، كان في مقدمتها قاضي استنبول وذلك لتفقد أحوال الحلق، وللاستطلاع عن أمورهم وأوضاعهم^(٣)، فيتجول في الأسواق^(٤)، ومحال البيع والشراء ويراقب أرباب الصناعات والتجار ويحرص على ضبط الأسعار، وكان يعاقب المذنبين مباشرة مما كان له تأثير كبير في باقي الفئات^(٥) وأكثر شي. كان يشغل الصدر الأعظم شؤون التعيين، لأن الوظائف كانت محددة بمدة معينة، ولذلك إذا جددت مدة الوظيفة عد نهايتها أطلق عليها اسم مقرر أو إبقاء*، ولكن في حال تم تسليم هذا المنصب إلى شخص آخر أطلق عليه اسم توجيه*، وكلفت التعيينات تجري عقب عيد الفطر أي في أوائل شهر شوال، لتشمل.

١- الوزراء وأمراء الساجق والبكلا بكية.

٢- رجال الدولة.

٣- الإنكشارية.

٤- كتاب الديوان الهمايوني.

^١ - مؤسس، مرجع سابق، ص ٤٧.

* قائم مقام مصطلح عربي الأصل تركي الصورة ويعني النائب. الصباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية الحرب والسلام بين العثمانيين والصغويين، ص ٢٥١.

^٢ - الصباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية الحرب والسلام بين العثمانيين والصغويين، ص ٢٥١.

^٣ - جوبت، مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٩٤.

^٤ - طغوش، مرجع سابق، ص ٦٥.

^٥ - جوبت، المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٩٤.

* لقد كانت الوظائف محددة بمدة معينة، فإذا تم تجديد مدة الوظيفة عد نهايتها أطلقوا عليها اسم (إفا) أو (مقرر)، إما إذا تم منح هذه الوظيفة لشخص آخر أطلقوا عليه اسم (توجيه). أوغو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧٩.

وبهذا يقوم الصدر الأعظم بإعداد قائمتين، إحداهما تصم أسماء الإبقاء، والأخرى تصم أسماء التوجيه، ثم يقدمها للسلطان للحصول على موافقته وتصديقه^(١).

أما عن موارد وبعثات الصدر الأعظم فقد كانت ضخمة، وقد عرف عنهم أنهم كانوا ذوي دخول عالية حيث تقاصروا محصنات كبيرة^(٢).

أما عند التقاعد فقد نص قانون نالمة فاتح على أن يحصل الصدر الأعظم على ١٥٠٠٠٠ أقة سنوياً^(٣).

وعلى الرغم من الدخل الكبير الذي يتقاضاه الصدر الأعظم إلا أنه بالمقابل كان عليه بعثات باهظة أيضاً، يأتي في مقدمتها هذه البعثات ما كان يصرفه على دائرته ورواتب العاملين فيها، حيث عمل بحب إمره حوالي خمسمائة موظف، وبالتالي كان عليه أن ينفق مبالغ طائلة على هؤلاء الموظفين^(٤).

وقد تطرق الصدر الأعظم لطغي باشا إلى الوضع المادي للصدر الأعظم قائلاً " إن الفئام بمنصب الوزير الأعظم يملك إقطاعاً يدر عليه دخل ١٢٠٠٠٠٠ أقة وله ثياب وحبول بقيمة مئتين ألف أو ثلاثمائة ألف أقة من قبل الأمراء الأكراد، وغيرهم من الأمراء الأقوياء. وهكذا فلا بد أن يكون دخله السنوي العام حوالي مليونين وأربعمائة ألف أقة، وهذا بفصل الله العلي للقدير منحة كافية من الدولة العثمانية، وكنت أعتقد أنا شخص مليون ونصف مليون أقة سنوياً على مطبחי وموظفي، ونصف مليون في الصدقات، وأوفر أربعمائة أربعمائة ألف الأخرى في حريتي، إن الطمع طريق الشر، ولا تهلية له، والقناعة كثر لا يعي"^(٥).

ولكن رغم هذه الصلاحيات التي تمتع بها الصدر الأعظم، إلا أنه في السنوات الأخيرة من حكم السلطان سليمان القانوني صار خاضعاً لنساءس ومؤامرات نساء القصر، وأكبر مثال

أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧٩

^١ - لورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٣٥

^٢ - أوغلو، المرجع السابق، ج ١، ص ١٨٢

^٤ Yavuz Bahadır Oğlu, KAUNAK GEÇEN, 5179.

^٥ - لويس، مرجع سابق، ص ١٢٠

على ذلك سيطرة روكسلانه على الصدور العظام، سواء كان ذلك برضا السلطان أو بدون رضاه.

وخير مثال على ذلك الصدر الأعظم إبراهيم باشا الذي اعتيل سنة /٩٤٢هـ/ ١٥٣٦م/ بأمر من صديقه السلطان سليمان القانوني وبتهريص من زوجته روكسلانه، ويضاف إلى ذلك الصدر الأعظم الكرواتي الأصل رستم باشا الذي كانت له اليد في مقتل مصطفى ابن السلطان سليمان القانوني وتم ذلك بالتعاون بين رستم باشا وروكسلانه، مع العلم أن رستم باشا تولى منصب الصدر الأعظم بمساعدة روكسلانه التي زوجته لينها مهرماه^(١)، ويبدو أن السلطان سليمان قد ترك تصريح أمور الدولة له، ولم يعد يدوم على الظهور في المجالس الرسمية، وجبر بالسكر أنه عندما توفي الصدر الأعظم رستم باشا، ترك وراءه ٨١٥ صيعة، و ٤٧٦ طاحونة، ١٧٠٠ عبد، والكثير من الكتب والملابس والذهب^(٢).

لقد حفل تاريخ الدولة العثمانية بهذا النوع من الصدور للعظام، الذين وصلوا بطريقة غير شرعية إلى منصبهم، فبعضهم من كان خادماً في القصر أو مربياً للسلطان أو لأولاده.

وقد حامت الشبهات حول نزاهة الكثير منهم، فبعضهم من استغل نفوذه في ابتداع وسائل غير مشروعة لكسب العى السريع وذكر على سبيل المثال، صوفلي محمد باشا الذي شغل منصب الصدر الأعظم في أواخر عهد السلطان سليمان القانوني^(٣)، وظل في هذا المنصب حوالي خمسة عشر عاماً حتى قتل سنة /٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م/ في عهد السلطان مراد الثالث، وعلى الرغم من أنه كان صادقاً مع نفسه وكان موضع احترام في الدولة^(٤)، إلا أنه كان داهية عرف كيف يجيب نفسه المحاطر التي أطاحت بالصدر الأعظم إبراهيم باشا من قبله، وقد عرف عنه أنه كان حليلاً يقبل الهدايا الفخمة مما زاد في دخله وجعله واسع الثراء^(٥)، فقد حرص على حكام الولايات شراء مناصبهم كل عام، وكانت عملية الشراء تتم بتقديم الهدايا

١ - عامر، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، ص ١١٤

٢ - مؤسس، مرجع سابق، ص ٥٩

٣ - Yavuz Bahadır Oğlu KAUNAK GEÇEN, S180.

٤ - طغوش، مرجع سابق، ص ٥٦٦

٥ - بروكلمان، مرجع سابق، ص ٤٧٤

له^١، وإذا توفي الوالي كان الصدر الأعظم صو قللي باشا يعين من يدفع أعلى ثمر للمصب^٢.

وقد موه الصدر الأعظم لطفي باشا إلى مثل تلك اطرف المملوية والتي كان يلج إليها كل من الصدر الأعظم والوالي أو الموطف الذي يطمح إلى الترقية، محذراً من عواقب هذا المسلك الذي ستكون نهايته الدمار والفشل.

" يجب أن يقوم الوزير الأعظم بأداء الصلوات الخمس جماعه مع أصحابه في بيته، ويجب أن يكون بابه مفتوحاً (للجميع) بحيث يسهل على الناس مقابله وعطيه أن يرصيه في حدود الإمكان، ويبمي الانتباه إلى أنه لا يحق له أن يسمح للمحتالين، والسارقين بأن يشتروا طرقهم (لإرضائه) بالهدايا، لأن الفساد في موظفي الدولة داء ليس دواء حادوا حذاراً من الفساد، حفظنا الله منه"^٣.

كما أكد لطفي باشا على أنه من واجبات الصدر الأعظم أن تكون هناك مراقبة دقيقة فيما يخص التعيينات والترقيات في وظائف الحكومة، التي يجب أن تقوم على أساس الاستحقاق فقط، مع احترام قانون الأقدمية والأسبقية، وألا يحصع للتأثير أو الصعط الخارجي، مع العلم أن المسؤولية الأولى والأخيرة تكون للسلطان^٤.

إذاً يتبين لنا أن السلطة السياسية كانت قد انحصرت فترة طويلة من الزمن صلياً بيد السلطان، ولكن يبدو أن منصب الصدر الأعظم (الوزير) لم يكن في بادئ الأمر سوى المستشار الأول للسلطان ثم ما لبث أن أصبح بحكم نمو الإمبراطورية العثمانية السريع إلى منصباً خطيراً، تعاطمت خطورته وأهميته مع الزمن.

٣- الجهاز الإداري في عهد السلطان سليمان القانوني

^١ - طغوش، مرجع سابق، ص ٥٧٦

^٢ - بروكلمان، المرجع السابق، ص ٤٧٤

^٣ - لويس، مرجع سابق، ص ١٢٠

^٤ - لويس، المرجع نفسه، ص ١٢١

-الديوان:

إن الديوان منذ نشأته حتى القرن السابع عشر كان يشكل قمة الإدارة المركزية في الدولة العثمانية، فهو الذي يهيمن على المكاتب التي تشكل مجموعها الإدارة المركزية للدولة العثمانية^(١)، وهو المجلس الأعلى المخول بأعلى السلطات في النظام الإداري داخل الدولة العثمانية^(٢)، ويقصد بالديوان الهمايوني مجلس الوزراء لدى الدولة العثمانية، ويعني أيضاً المجلس الإمبراطوري العثماني أي بمعنى آخر هو يمثل الحكومة العثمانية^(٣)، ويعد الديوان بمثابة مجلس استشاري للسلطان، وكان يجتمع في هذا الديوان السلطان مع أركان دولته للنظر في أمور الدولة^(٤)، إلا أنه منذ عهد السلطان محمد القاتع صار السلطان ينصت إلى مداوالات الديوان من وراء الستار^(٥)، حتى عهد السلطان سليمان القانوني الذي تمتع عن حصور مداوالات الديوان وترك رئاسة هذا المجلس للصدر الأعظم، الذي بدأ بالظهور كشخصية مهيمنة على حكومة الدولة العثمانية^(٦).

كان يتم اجتماع الديوان في المبنى المسمى باسم (قبة آثي) أي تحت القبة، وهو يقع على يسار الباحة الثانية من سراي طوب قلبي والذي شيد من قبل الصدر الأعظم إبراهيم باشا من السلطان سليمان القانوني، وكان يجلس أعضاء الديوان في القاعة الأساسية بالقبة الأولى، وتوجد فيها أريكة يجلس عليها الصدر الأعظم وبالقرب من هذه الأريكة كانت توجد نافذة خشبية تطل على دائرة الحريم وتعرف باسم المقصورة (القفص)، التي كان يأتي إليها السلطان أحياناً، وفي أوقات غير معلومة ليستمع إلى مدكرات الديوان، وقد يتدخل أحياناً، وحصل أن تدخل السلطان سليمان في حكم صدر بحق رجل واعظ من قبل فاصبي العسكر^(٧).

^١ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١١٠-١١١.

^٢ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧٠.

^٣ - أورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٣٩.

^٤ - إبراهيم، المرجع السابق، ص ٧٦.

^٥ - عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ١١٠.

^٦ - لويس، مرجع سابق، ص ١١٦.

^٧ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧٣.

كان يدعى أعضاء الديوان بأركان الدولة، وهم^(١):

١- قاضيا العسكر:

وكان أحدهما من الروماني والآخر من الأناضول^(٢)، ومع أن رتبتهما متساوية إلا أن مقام قاضي عسكر روماني كان متقدماً على قاضي عسكر الأناضول، كانا معاودان لشيخ الإسلام الذي لم يكن عضواً في الديوان، كما كانا يعدان من صنف العلماء وترتيبهم بعد شيخ الإسلام، يضاف إلى ذلك أنهما كانا المرجعين لكل الموضوعات التي تخص وزارة العدل والتربية والأوقاف والثقافة وحتى الأمور الدينية، وكانا يتزلمان الملك القصابي، ولعبا بأفدي كبقية علماء الدين^(٣).

ومنصب قضاة العسكر من المناصب ذات الجهاز المتشعب والمعقد، ومن أكثر الأمور التي يشغل بها قضاة العسكر مشاكل أجهزة القضاء والتدريس الواقعة في شتى أنحاء البلاد لتتداعى من العاصمة نفسها، وحتى صغر التجمعات السكانية، وبما أن قضاة العسكر كانوا ذوي نفوذ في الديوان الهاماني الذي يمثل أكبر الأجهزة صاحبة القرار في الإمبراطورية، ولأنهم من الأعضاء الأساسيين في الديوان، كل هذه الأمور صاغت من صلاحياتهم ومسؤولياتهم^(٤).

ب- الدفتردارين:

أي وزير المالية كان أحدهما من الروماني والآخر من الأناضول^(٥)، وبعد الدفتردار أكبر موظف مالي في الدولة العثمانية، أنشئ هذا المنصب بموجب فرمان السلطاني الذي أصدره

بروكلمس، مرجع سابق، ص ٤٧٦

^١ - كلو، مرجع سابق، ص ٣٦٦

^٢ - أورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٤١.

^٣ - إبراهيم، مرجع سابق، ص ١٠٤

^٤ - كلو، مرجع سابق، ص ٣٦٦

محمد الفاتح سنة ١٤٧١م^(١).

ويدعى بالباشا أو الأفندي ناظر المالية، وكان له مستشارون يحيطون بهم^(٢)، وعد كل دفتر دار مسؤول في ورارته عن تنظيم إداري كبير ومتشعب فيه عدة مكاتب وكثير القفرع، وكل مكتب مختص بميدان معين، كما تتجلى مهمتهم بتلقي محاصيل الجبلية والإشراف على المعقالت^(٣)، ودفع مرتبات الجنود، وجبلية الأموال^(٤).

ج- النشائجي: (نشائجي أفندي أو باشا)^(٥)، كان يذكر أحياناً عد العثمانيين باسم الطعرائي أو التوقيعي، وكان آخر الأركان الأصلية الأربعة في الديوان الهمايوني، ويحتل مكانه صمم التشكيلات المركزية العثمانية^(٦).

وعُدَّ النشائجي رئيس ديوان الرسائل وهو الذي يرسم الوثائق، ومن مهامه الإشراف والتأكد من الأوامر والتعليمات الصادرة عن الديوان بما يتماشى مع الشرع المعمول به في البلاد، ثم يوقع على ما يصدر عن الديوان بصعراء السلطان^(٧)، ويعد النشائجي من الكتاب ويحتل مرتبة وزير، وحتى عام ١٥٦٠م كان بمثابة ناظر للخارجية (أي المسؤول عن السيسة الخارجية للدولة)^(٨)، ومن المهام الأخرى التي تناط بالنشائجي اصطلاحه بترجمة الرسائل العربية والفارسية القادمة من الدول الإسلامية الأخرى وتقنيهما، وحتى عام ١٥٩٩م رافق النشائجي السلطان عند خروجه إلى الحرب^(٩)، وبعد عام ١٥٦٠ اقتضت مهمته (بناظر الختم الحتم الحاصر) أي بالعربية توقيع همايون أي طعراء الباشا^(١٠).

^١ - ملحت سرت أوغلو، مرجع سابق، ص ٧٣.

^٢ - أورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٤١.

^٣ - كلو، المرجع السابق، ص ٣٦٦.

^٤ - لويس، مرجع سابق، ص ١١٢.

^٥ - أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٤١.

^٦ - إبراهيم، مرجع سابق، ص ١٠٧.

^٧ - كلو، المرجع السابق، ص ٣٦٦.

^٨ - أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٤١.

^٩ - إبراهيم، مرجع سابق، ص ١٠٩.

^{١٠} - أورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٤١.

د-مجموعة الكتب والتذكارية.

وكان يترأسهم رئيس الكتاب^(١)، الذي عذ الساعد لأيمس للنشائج أي السكرتير العام للحرجية، فهو رئيس دائرة المراسلات مع الدول الحارجية بمعنى احر وبمصطلح الوقت الحصر كان وزير الحارجية، وهو دائم الحضور في اجتماعات الديوان ولكن لم يكن له حق التصويت فيه^(٢).

كان للمحررين ومجموعة الكتب دور كبير وهام في إنجاز الأعمال الكثيرة للديوان والتي عدت في غاية الأهمية مع ضرورة الحفاظ على نصباط هذه الأعمال، وكانوا مكلفين بإعداد برامج عمل الديوان الهليونني وإعداد السجلات والأوراق لصمما سرعة مناقشة الموضوعات المقترحة في هذا الاجتماع^(٣).

تعد وظيفة كاتب الديوان خطوة مهمة للترقي والتخرج في وظائف الدولة، وكان يتم اختيار كاتب الديوان بدقة وعناية، إذ كان لابد من أن يكون من ذوي الشرف والكفاءة وعلى درجة كاهية من الدكاء^(٤).

ويضاف إلى الموظفين السابقين، مجموعة من الرجال المسؤولين عن ضبط الأمن وتنظيم دخول وخروج القادمين إلى الديوان، والقيام بالإجراءات السهيدية، وكان يحصر جلسات الديوان آغا الإثكشارية بصعته ممثلاً عن الجيش، وكان لكل من حاكمي اميا وأروبة دور فعال في الديوان، فكان لهم التأثير الفعال في إدارة الولايت^(٥)، وفي حال غياب الصدر الأعظم الصدر الأعظم كان يترأس الديوان نيابة عنه وزيران، وفي حال طال غياب الصدر الأعظم نتيجة قيادته لحملة عسكرية أو مرضه، كان يعين بدلاً عنه وكيلاً لرئيس الوزراء ويدعى(صدارت قائمقامي) ويتم اختياره من الوزراء^(٦).

^١ أو غلو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧٤

^٢ أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٤١

^٣ أو غلو، المرجع السابق، ج ١، ص ١٧٤

^٤ أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٤٢

^٥ بروكلمس، مرجع سابق، ص ٤٧٦ - ٤٧٧

^٦ - أورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٤٠

هؤلاء هم الأعضاء الأساسيون، والمقصود باتخاذ القرارات وإبداء الرأي وإصدار الأحكام^(١)، ثم أصبح القيودان باشا (القائد الأعلى للأسطول) وعندما أصبح الرئيس حيز الدين باربروس القائد للأسطول ومن السلطان سليمان القانوني سمح له بحضور اجتماعات الديوان يحضر اجتماعات الديوان^(٢).

من المؤكد أن الديوان كان ديواناً سلطانياً، وقد حافظ على هذه الصفة أو الهوية حتى النهاية، ولأجل هذا كان السلاطين العثمانيون يتزأرون اجتماعات هذا الديوان بأنفسهم في بعض لأوقات الحرجة والحساسة أو الأحداث المهمة^(٣).

ابتداءً من القرن السادس عشر وبعد أن كان يجتمع الديوان بشكل يومي انخفض عدد الأيام التي يجتمع فيها الديوان إلى أربعة أيام في الأسبوع^(٤) وهي السبت والأحد والإثنين والثلاثاء^(٥)، أما الأيام التي تعرض فيها القرارات على السلطان^(٦) فكانت يومي الأحد والثلاثاء^(٧).

تبدأ اجتماعات الديوان بعد صلاة الفجر مع شروق الشمس، ثم ينقص الاجتماع عقب تناول طعام العشاء^(٨)، وعلى اعتبار أن الديوان كان يمثل مجلس الوزراء، فقد تركزت عليه مهمات كبيرة لا حد لها، فكل المسائل السياسية والعسكرية والإدارية والعصائية، كان مسؤولاً عنها ويناقشها، ويصادق على القرارات التي تخصها، فهو محور الدولة، لذلك كان يشرف

^١ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧٤

^٢ - كلو، مرجع سابق، ص ٣٦٦

^٣ - أوغلو، المرجع السابق، ج ١، ص ١٧٢

^٤ - حصون، مرجع سابق، ص ٣٩٨

^٥ - أوغلو، المرجع السابق، ج ١، ص ١٧٢

^٦ - حصون، المرجع السابق، ص ٣٩٨

^٧ - أوغلو، المرجع السابق، ج ١، ص ١٧٢

^٨ - أوغلو، المرجع نفسه، ج ١، ص ١٧٣

على كل مؤسساتها^(١)، كما كان يُعقد الديوان بمناسبة استقبال أحد السفراء الأجانب أو بتوزيع عطايا (زواجب) الانتكشارية كل ثلاثة أشهر أو لحث طارئ وبوجود السلطان^(٢).

ومن مهام الصدر الأعظم الكثيرة في الديوان، النظر في شؤون الدولة والدعوى المتعلقة بالتبمار (أي الأراضي والإقطاعات الممنوحة من الدولة)^(٣)، إذ كان كل شيء يطلق من الصدر الأعظم ويعود إليه، ابتداء من آلاف الموظفين والكتبة الذين كانوا يسيرون الدولة العثمانية، إضافة إلى إشرافه على الجهاز الإداري والعسكري والقضائي في كل ولايات الدولة العثمانية^(٤).

وإذا كان الموضوع متعلقاً بالقانون المدني فكان يحال إلى قضاة العسكر، وإذا متعلقاً بالحسابات المالية فكان يحال إلى الدفتر-ار^(٥)، كما اهتم الديوان بالإشراف على شؤون كبار الكتاب في الحراثة المالية، وحفظ القوانين وإصدار قرارات السلطان، ودراسة كل القضايا الهامة التي تخص الدولة^(٦).

وواقع أنه كان من أهم واجبات الديوان النظر في الشكاوى المقدمة ورداً لمظالم الكثيرة والمختلفة، والاستماع بشكل مباشر إلى الشكاوى المقدمة صد الموظفين الكبار^(٧)، ويضاف إلى كل هذه لمهام النظر في المسائل الخارجية وعروض السفراء الأجانب، ويتم النظر أيضاً بالرسائل القادمة من أمراء الولايات (بكلربكي) وأمراء الثغور، كما أنه كان مخولاً بإقرار السياسة الرئيسية للدولة، ووضع حدود ومبادئ أساسية في علاقاتها مع الدول الأخرى، مع قبول السفراء والنظر في طلباتهم، ووضع شروط الحرب والسلام وإصدار القرارات الخاصة بالمهمات العسكرية وتوفير المؤن^(٨).

^١ - كلو، مرجع سابق، ص ٣٩٧

^٢ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧٣

^٣ - أوغلو، المرجع نفسه، ج ١، ص ١٧٤.

^٤ - كلو، المرجع السابق، ص ٣٩٧

^٥ - لويس، مرجع سابق، ص ١١٣

^٦ - باغي، مرجع سابق، ص ٨١

^٧ - اينالجيك، مرجع سابق، ص ١٤٧

^٨ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧٤-١٧٥

كانت القرارات التي يقرها الديوان لا تتخذ إلا بعد موافقة السلطان عليها، وأغلب الأحيان كان يوافق السلطان عليها، إلا فيما يتعلق بتعيين القضاة، فكان يستشير الصدر الأعظم والمفتي^(١).

وعلى الرغم من أن السلطان سليمان لم يكن يحضر جلسات الديوان، إلا أنه لم يكن من المسموح أن يعقد الديوان جلساته، إذا كان السلطان خارج مدينة استنبول^(٢)، والغالب على أسلوب عمل الديوان أن تنظر الدعاوى فيه بسرعة كبيرة، مثال على ذلك أن أحكام الإعدام التي يصانق عليها السلطان كانت تتعد بالحال، مما يثبت الدقة والالتزام في عمل الديوان^(٣).

ولابد من التأكيد أيضاً أن دور الديوان فاعلاً في تحقيق الأمن والاستقرار بين كافة المواطنين (المسلمين وغير المسلمين)، ومحاولة تنسيق العلاقة بين المزارعين والسباهية المسؤولين عنهم، في إضار من الانسجام والحفاظ على التوازن في العلاقات بين مركز السلطة وفروعها خارج العاصمة^(٤).

يبقى أن نذكر أن هناك عملية (الدخول للعرض)* حتى يشرف السلطان على أهم القرارات والنتائج التي توصل إليها الديوان، وللحصول على موافقته عليها، وفي كثير من الأحيان كان السلاطين يرفصون كثيراً من القرارات ويردون عليها بشدة، وجدير بالذكر أن عملية العرض قد حصص لها يومين في الأسبوع ثم تقلص إلى يوم واحد وكان ذلك يوم الأحد^(٥).

^١ - إبراهيم، مرجع سابق، ص ٨٧

^٢ - جونت، مصدر سابق، ج ٦، ص ٤٧١

^٣ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧٥

^٤ - Yavuz Bahadır Oğ u, KAUNAK GEÇEN, S177

* كانت تتم عملية العرض بدخول السلطان أولاً ثم يدخل اعضاء الإنكشارية وهو قائد ممالك السلطان، دخوله وراء السلطان هو للدلالة على مدى إصفاة الدولة العثمانية على الجيش واهتمامها به، ثم يتم دخول قاضي العسكر من بعده وهو ممثل عن القانون والشرع الشريف ودخوله خلف اعضاء الإنكشارية إنما هو للدلالة على مدى تمسك الدولة العثمانية بالدين الإسلامي، ثم يتم دخول الصدر الأعظم والوزراء والدفتردار من بعد ذلك، وهم الذين يمثلون الإدارة والمال والخزينة. أوغلو، المرجع السابق، ج ١، ص ١٧٦ - ١٧٧.

^٥ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧٦

طالما أن الغرض الأساسي للحكم هو إقرار العدل، فيمكن عدّ الديوان في جوهره بمثابة محكمة عليا، إلا أنه في الدولة العثمانية كان يقوم أيضاً بدور الحكومة التي تنظر في شؤون الدولة، فهو الذي يتحدّ القرارات والتعيينات، ويناقش كل القضايا الحكومية^(١).

٤- أوضاع القوى العسكرية في عهده

إن تاريخ الجيش العثماني هو تاريخ الشعب العثماني الذي يمتدّ إلى أعوار التاريخ، فمنذ عام/٩٢٣هـ/١٥١٧م/ وحتى عام/١٠٩٤هـ/١٦٨٣م/، كان الجيش العثماني يعادل مجموع جيوش العالم قوة، وكذلك بالنسبة للأسطول.

وهذا ما لاحظته الأوروبيون، الذين رأوا أن هذا التفوق العسكري يعود إلى عوامل عديدة أهمها النظام التكنولوجي، وبصاف إلى ذلك العامل الهام المتمثل بالوضع الاقتصادي (المالي) الذي كان الداعم الأساسي للجيش^(٢).

ومنذ القرن الخامس عشر، بدأت تسعى الدول الأجنبية إلى استقدام صباط ومدفعيها، و كلفت تدفع لهم رواتب ضخمة، وقد وافقت الدولة العثمانية على سوء مصالحها، على إرسال صباطها إلى الدول لأجنبية، الذين أثبتوا جدارتهم في هذا المجال^(٣)، وأكد على ذلك كثير من الكتاب العربيين، فهم من قال "كان السلطان سليمان على رأس جيش، يسبق كل جيوش العالم الأخرى بأربعة عصور من حيث تأسيسه وأسلحته"، ويؤكد على ذلك الماريشال كونت مونتيوني أحد أكبر القادة العسكريين في أوروبا خلال القرن السابع عشر، والذي قال "إن الدولة العثمانية إمبراطورية مفكرة وقوية إلى درجة أن جيشها المكون من جنود لا يحصى عددهم و المدربين بشكل ممتاز، مستعدون للقتال في أي لحظة، إن الحرع التي يستعملونها في

^(١) - إيلجيك، مرجع سابق، ص ١٤٩

^(٢) - بوزونا، مرجع سابق، ج٢، ص ١٧٣-٣٧٤

^(٣) DAVID NICOLLE ANGUS MCBRIDE, ARMIES OF THE OTTOMAN TURKS 1300-1724,p8

حرب ما لا تشبه سابقاتها، يظنون الحرب ويعنون لها بشكل ممتاز، إن نظام حرب روما كان كذلك، يحعرون الحناق ويجهزون الاستحكامات بشكل فائق^(١).

أ- الإنكشارية:

جرى تشكيل الإنكشارية كعقبة عسكرية عقب السيطرة على أدرنة زمن السلطان مراد الأول بجهود وزيره جلدعلي قره خليل^(٢)، وقد جرى ترويض هذه العقبة بالرجال وفقاً لثلاث مراحل^(٣):

المرحلة الأولى من سرى الحرب طبقاً لقانون الخمس (بنجيك)^(٤)، إذ كان يمر الجدي بمرحلة تدريب قصيرة ثم ينضم إلى سلك الإنكشارية^(٥).

المرحلة الثانية وهي تسليم الأسرى لعائلات من الفلاحين العثمانيين، لكي يعملوا مع هذه العائلة لفترة قصيرة ثم ينضموا إلى سلك الإنكشارية.

أما المرحلة الثالثة فيقبل فيها هؤلاء الأسرى والدخيرة من العائلات العثمانية إلى أوجاق العجمية* فيجري تدريبهم ثم يتم نقلهم إلى أوجاق الإنكشارية^(٦).

^١ أورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٨٤-٣٨٥

^٢ - DAVID NICOLLE, ANGUS MCBRIDE, op cit p 8

^٣ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٨٤

^٤ - الحريري، مرجع سابق، ص ٢٤٨.

^٥ - إيرينا بيترومبل، الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية، تقديم ومراجعة قسم الدراسات والنشر بالمركز، دبي مركز جمعية المجلد للثقافة والتراث، ٢٠٠٦م، ص ٢٩

* أوجاق تعني الموقد أو المجمع. عامر، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ص ٢٢٥

* أوجاق العجمية، أطلق هذا المصطلح على العناصر المسيحية التي كل يتم جلبهم من بلاد الصرب والبوسنة والهرسك بموجب قانون (بنجيك قانوني) أي قانون الخمس، وكان يجري إلحاق تلك العناصر بالإنكشارية، إلا أنها لا تحصص بالعادة لما تحصص له الإنكشارية، التي جمعت وفق لنظم الدوشيرمة، وكانت عناصر أوجاق العجمية تتكلف بالإضافة إلى الأعمال العسكرية بأعمال زراعية. جودت، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٥٠.

^٦ - أوغلو، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٨٤

لقد كان أوج الإنكشارية في القرن السادس عشر، عبارة عن فرقة خاصة واحدة ثقيلة، وكان يشكل جزءاً هاماً من الجيش العثماني^(١)، فهو يعتبر القوة الحفوية لهذا الجيش^(٢)، وقد بلغ عدد الإنكشارية زمن السلطان سليمان القانوني حوالي ١٢٠٠٠ جندي، وحينئذ بالذکر أنهم لم يكونوا يمثلون كل الجيش العثماني^(٣)، كما أن الانتصارات العسكرية التي حققها الجيش العثماني لم يحققها الإنكشاريون فحسب بل حققها السباهية والأقجي (المغارير)^(٤)، لأن دور الإنكشارية كان يقتصر على الدخول إلى القتال بعد أن يكون العدو قد واجه الفرسان والجنود غير النظاميين، وقوات المدفعية، فيكون حينئذ ليلقهم القرار الحاسم في مصير المعركة.

وقد حصع فيلق الإنكشارية لنظام صارم إذ كانوا ملزمين بالعروبية، وكفوا يستعملون الأسلحة بمهارة فائقة، وقد أكد على ذلك بوسيك أثناء زيارته للسلطان سليمان القانوني، فقال عنهم " أنهم يشبهون الرهبان المطيعين"، ويضاف إلى ذلك أن غالبينهم كانوا من أصل مسيحي وحاصه في القرن السادس عشر^(٥)، وكانوا يتكبدون عن طريق لدوشيرمة (الدشيرم)^(٦)، ويدون ويدون الدشيرمة في عهد السلطان سيمان القانوني وحلفائه، كفوا يوفرون للسلطان كتائب ممتازة، بالإضافة إلى الموظفين المدربين بما فيهم الصدر الأعظم، وعلى الرغم من احتياجات الأتراك الأصليين إلا أن نظام الدشيرمة قد بلغ أوج قوته وتطوره زمن السلطان سليمان القانوني، الذي كان كل ورثته بلا استثناء مسيحيين اعتنقوا الإسلام^(٧)، وقد وصف السعير الإيطالي برناردو فانجيرو في إحدى رسائله إلى مجلس الشيوخ سنة ٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م/ عملية انتقاء الصبية للفيق الإنكشاري، فأفاد أن عامل التجميع كان يأتي إلى القرية أو المدينة، والذي كان يدرره يستدعي رؤساء الصواحي الذين كان عليهم استدعاء أرباب الأسر مع أبنائهم إلى

^١ أورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٩٠

^٢ - قارن، مرجع سابق، ص ٧

^٣ - كلو، مرجع سابق، ص ٢٩

^٤ - DAVID NICOLLE, ANGUS MCBRIDE, op cit, p 9.

^٥ - كلو، المرجع السابق، ص ٣٠

^٦ - لويس، مرجع سابق، ص ٨٨.

^٧ - كلو، المرجع السابق، ص ٣١

مكان وجود عمال التجميع، وفي حال مخالفة إحدى الأسر للأوامر وعدم قدومها كانت تعاقب، بعد ذلك يقوم عامل التجميع والكاتب في انتقاء الصبية الجيدين والصالحين، وكانوا غالباً بين سن ١٢ و ١٥، ويتميزون بصحة جسدية جيدة، وكان على عامل التجميع أن يختار من بين ٥ أو ٤ صبية، صبيّاً واحداً^(١).

وتقريباً المصادر العثمانية أن عناصر القباي قول* كانت قد حطبت باهتمام كبير من قبل كل من السلطان سليم الأول والسلطان سليمان القانوني^(٢)، إذ كانوا من أشهر فيالق الجيش العثماني، فكثروا يشكلون الإنكشارية وسباهية الباب (الحياة)^(٣)، وقد عهد إلى القباي قول قيادة قيادة المنظومة العسكرية^(٤)، أما العناصر الرئيسية فكان يتم انتقاؤها من قبل السلطان، ثم تسلم إلى أغا القباي قول الذي كان يوزعهم حسب اختصاصاتهم على أربعة أقسام، ومنها فرقة تقرر في القصر لحراسة النساء (الحرملك) وكان يطلق عليها اسم العنصر الرسمية، أما الذين يتمنعون بجسام صالحة وطويلة فكانوا يوزعون إلى الركاب الهملوي^(٥)، بشكل دائم لاسيما في أوقات الصيد^(٦).

وقد حصع عناصر القباي القول (عبيد الباب) الذين كلفوا بحماية السلطان والحريم السلطاني، لنظام قاسٍ وشديد، فأى خطأ يرتكب من قبل عناصره كان مصيره لإعدام^(٧).

بالإضافة إلى القباي قول كانت فرقة السباهية قد نالت اهتماماً كبيراً في عهد السلطان سليمان القانوني،

^١ - بيتروسيان، مرجع سابق، ص ٣١

* قباي قول، أي صيد الباب، وهما فرقة من الإنكشارية تعمل تحت الاسم، وهي مختصة بحراسة المصور، وتنتشر بأمر من السلطان بشكل خاص. عامر، الدولة العثمانية تاريخ وثائق، ص ٢٧٩

^١ - عامر، المرجع السابق، ص ٢٧٩

^٢ - ككو، مرجع سابق، ص ٢٩

^٣ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١٢٣

^٤ - التز، مرجع سابق، ج ١، ص ١٣٠

^٥ - إيراهيم، مرجع سابق، ص ٢١

^٧ - Medhat Sert Oglu, KAUNAK GEÇEN, s250.

وقد أكد ذلك اللورد باول ريكوت* بقوله:

"نيمارلي سباهي، هو أحسن أقسام الجيش العثماني، إن الذي فتح القسم الكبير مسبباً من الكرة الأرضية، هو هذا الجيش الخيل"^(١).

وكان سباهية* التيمار* هم المنصرفين بأراضي الدولة، وعرفوا باسم (صاحب الأرض). وعندما تتعرض الدولة للخطر يطلب يطلب منهم عدداً من الخيالة^(٢) بما يتناسب مع حجم الدخل السنوي للإقطاعات الممنوحة لهم^(٣)، وكان صباط السباهية ذوو المراتب العالية^(٤)، مسؤولين عن ضبط الأمر في الأراضي التي يديرها وقت السلم^(٥)، وفي أوقات الحرب كان على كل سباهي عند إلاغه بالتأهب للحرب أن يذهب إلى المكان الذي يوجد فيه الرعيم* بكامل تجهيزاته^(٦)، وعند بدأ الحرب يكون السباهي الحرب تحت قيادة أمير الألاي (الاي بكى) أي (أمر للكتيبة)^(٧)، وأمراء للكتيب يأحدون جنودهم إلى السجق بك أي (أمر اللواء)

أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩٩.

* اللورد بول ريكوت، وهو دبلوماسي عمل في الدولة العثمانية مدة ٢٠ سنة. ورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٩٩

* سباهي، كلمة فارسية وتعني حيل. أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣١٧

* التيمار، هو استمرار لنظام الإقطاع الذي كل معروفا في الدول الإسلامية السيفية، وتشكل أيام السلطان مراد الأول، وهو الذي يضمن فلاحه الأرض من جهة وتزويد الدولة بما تحتاجه من جنود من جهة أخرى

أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩٩

^٢ - أوغلو، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٩٩

^٣ - الشاوي، مرجع سبق، ج ١، ص ١٣٠

^٤ - أورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٨٧.

^٥ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١٢٧

* لرعيم، كانت الدولة العثمانية تعطي نيمارلي سباهي بدلاً من الراتب الشهري قطع أرض تسمى ديرليك (بالعربية إقطاع)، وإذا كانت ديرليك صغيرة تسمى (تيمار)، وإذا كانت كبيرة كانت تدعى (رعص)، وكان أصحاب هذه الرعص يدعون بزعيم أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٨٨

^٦ - الحريري، مرجع سابق، ص ٢٥٣

^٧ - أوغلو، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٩٩

الذي يرسلهم بدورهم إلى البكلربك (العريق) الذي يأخذهم بدورهم أيضاً إلى السراي (قائد رئيس أركان الجيش) وبذلك يكون قد تم تجميع الجيش^(١).

أما السباهي الذي يتحلف للانضمام إلى الجيش أو قلت الحرب يؤخذ منه الإقطاع ويمسح إلى من يذهب جهد في الحرب وأثبت قوته وجدارته^(٢).

وبدأ ملك السباهي صاحب التيمار تمنح هذه الأرض لابنه وإذا لم يكن لديه وريث^(٣)، وجب على أمير الأتالي إخبار الدولة بذلك فيتم منح التيمار (الأرض) لشخص آخر تراه الدولة مناسباً من بين المساكر^(٤)، لم يطبق هذا النظام في كل الولايات العثمانية^(٥)، إنما كان في الأناضول التي شكلت نواة الإمبراطورية العثمانية وسورية والرومللي، وبالمقابل لم يكن موجوداً في أي ولاية أفريقية أو في اليمن أو بغداد^(٦)، ويبدو أن هذه العمية الوراثية للأرض قد أوجت طبقة رستقراطية زراعية قوية، مسيطرة على أغلب الأراضي الزراعية^(٧).

لقد بلغت التشكيلات السباهية ذات التيمارات أرفع مستوياتها في عهد السلطان سليمان القانوني أواسط القرن السادس عشر، إذ كلما اتسعت أراضي الدولة العثمانية ازداد عدد السباهية ذوي التيمار، ويبدو أن الحروب التي وقعت في عهد السلطان سليمان القانوني كانت عاملاً هاماً في زيادة الامتيازات التي تمتع بها السباهية^(٨).

على سبيل المثال كان عدد السباهية في عهد السلطان سليمان القانوني حوالي ١٦٦٢٠٠ سباهي، موزعين بين ولايتي الرومللي والأناضول، ولكنهم كانوا يدخلون في الحرب على شكل جناحين منفصلين^(٩).

^١ - أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٨٨.

^٢ - DAVID NICOLLE, ANGUS MCBRIDE, op cit p11.

^٣ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١٢٧.

^٤ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٠٠.

^٥ - عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ١٢٨.

^٦ - أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٨٧.

^٧ - أوغلو، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٩٩.

^٨ - DAVID NICOLLE, ANGUS MCBRIDE, op cit p13.

^٩ - أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٨٨.

لكن يبدو أن هذا الصنف من الجيش بدأ بالتدهور أواخر القرن السادس عشر، نتيجة انصمام الجيود المحالين للقانون إليها، وتعيين المحرطين فيها بالرشوة^(١)، واستمر بالتدهور حتى أواخر سنة ١٢٦٥هـ/ ١٨٢٦م^(٢).

واهتم السلطان سليمان القانوني بالجيش، وخصوصاً المدفعية حيث لاحظ الأهمية الكبيرة التي أحدثت تتمتع بها المدفعية في عهده^(٣)، فوجه اهتمامه لها وسعى لتطويرها^(٤)، لذا شيد مصنعاً كبيراً لصناعة المدفع وأمر ببناء ثكنة لجنود المدفعية بجواره^(٥)، وقد جهر هذه الثكنة ودعمها بكل مستلزماتها حتى تصمد أمام أعدائه خصوصاً الإمبراطورية النمساوية، وقد وجه المماليك للانصمام إلى فرق المدفعية، وسمح أيضاً للأتراك بالانصمام إليها، وسحوا مرتبات ضخمة^(٦).

وكان لكل حامية ٦ صباط برتبة لواء:

- ١- القائد الأعلى للحامية (طوبجيباشي) قائد المدفعية
- ٢- رئيس السباكين (نوكمجبياشي) وهو مهندس، وكان امر (رئيس) أكبر معمل أسلحة تقبله في العالم تذاك.
- ٣- طوبجبلر كتحداشي أو (أوده باتشي) وهو معاون القائد.
- ٤- أفنديسي (طوبجي كاتبي) وهو جنرال مالي أو المسؤول المالي، ويليه معاون السباكين وأمين الطوبخانه، ويبقى أن نذكر أن مراتب جنود المدفعية كانت كبيرة، حيث تترأص بين ٦ إلى ٨ ألقبة يومياً^(٧).

بالإضافة إلى ذلك صم السلطان سليمان، فرق الخيالة والتي اختلفت عن الإنكشارية وغيرهم من فرق المشاة، بسبب عدم وجود ثكنات خاصة بهم، إذ كانوا يعيشون في

^١ - Yavuz Bahadır Oğlu, KAUNAK GEÇEN, S179.

^٢ أورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٨٨

^٣ مؤنس، مرجع سابق، ص ٢٤

^٤ بروكلمن، مرجع سابق، ص ٤٦٧

^٥ أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٩٨

^٦ مؤنس، المرجع السابق، ص ٢٤

^٧ - أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٩٨-٣٩٩

قرى قريبة من العاصمة، وقد بلغ عددهم في عهده ما بين ١٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ حبال،
يضاف إليهم الأتباع وكانوا من الرق وقد وصل عددهم ما بين ٤٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠
مقاتل مما جعلهم أكثر عدداً من الإنكشارية^(١).

والواقع أن انصباط جيوش السلطان سليمان القانوني كان أروع العرب، وخصوصاً
عندما حمل الجندي العثماني صفات الشجاعة والصرامة التي جعلت الجيش العثماني جيشاً لا
يقهر^(٢).

وقد ذكر ذلك المغير غيسلان دي بوسيك، فيما كتبه من رسائل، قائلاً " عندما يخرج
الجنود الأتراك للقتال يتناولون مرة أو مرتين في اليوم، مشروباً يتكون من ماء يصنعون فيه
بضع ملاعق من الدقيق، وشيئاً من الربدة والتوابل، وقطعة من الحبر أو مصيباً من البسكويت
إذا وجد، والبعض منهم كانت معه سلة صغيرة فيها لحم بقر مجفف ومطحون يستعملونه كما
يستعملون الدقيق، وحياناً يأكلون لحوم حيوبهم المينة، كل هذا يبين لكم بأي مقدار من الصبر
والقاعة والإقتصاد يواجه الأتراك الصعاب وينتظرون تحسن الأرصاع، وكم يختلف عنهم
جنودنا الذين يحتدرون عندما يخرجون للقتال الطعام العادي، وبطالون بأكلات جديدة كالسمة
وعصفور النير وأطعمة مستحصرة في المطبخ، وإذا لم يعطوا تمر دوا ودهيو صحابا أنفسهم،
وحتى إذا أعطوا فإنهم يكونون كذلك صحابا أنفسهم، لأن كل امرئ هو أشد الأعداء على
نفسه، وليس له على نفسه عدو أخطر من عدم اعداله في المكل والمشرّب، فهو الذي يقتله إذا
لم يقتله العدو، إن فرائصي ترتعد مما سيصله عليا للمستقبل عندما أقارن النظم التركي
بنظامنا^(٣).

كما يبين لنا المؤرخ الإيطالي باولو جيوفو* رأيه في الجسي التركي، بقوله " إن
نظامهم العسكري هو الانصباط والصرامة بحيث يعوق بسهولة نظام قدماء اليونان والرومن،

^١ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١٢٥

^٢ - DAVID NICOLLE, op. cit , p13.

^٣ - أوجير غيسلان دي بوسيك، وثيقة منشورة في "سليمان القانوني"، كلو، مرجع سابق، ص ٣٠.

* باولو جيوفو، مؤرخ إيطالي معاصر للسلطان سليمان القانوني له كتاب حمل اسم "تقييدات في الشؤون
التركية"، صدر في روما سنة ١٥٣٦م. كلو، المرجع السابق، ص ٣١

إن جنود الأتراك أفضل من جنودنا لأسباب ثلاثة: أنهم يصيغون أوامر قانتهم بسرعة، ولا يهتمون أبداً بحياتهم في المعركة، ويستطيعون العيش طويلاً دون حيز ولا خمر، قلعيين بقليل من الشعير والماء^(١).

وبالمقابل كان تأثير الإنكشارية من الناحية السياسية ثقيل الوزن في الدولة العثمانية^(٢). فقد كثروا يربحون سكان العاصمة استبول، حبما يتشرون كعصاب في حي من الأحياء. إذ كان التجار يسارعون لإغلاق دكاكينهم، وعد دحزلهم المعركة كان من المستحيل معهم من هب أي مدينة بعد استسلامها، فهم الذين عاثوا قساداً وخراباً في كل من رودس سنة ٩٢٧هـ/١٥٢١م، وبودا سنة ٩٣٥هـ/١٥٢٩م، على الرغم من القرارات الصادرة من قبل السلطان سليمان والتي تردعهم عن مثل هذه التصرفات^(٣).

وعند اندلاع الحرب كانت فرقة المدفعية ومصلحي الأسلحة يتقدمون الجيش، وكان الإنكشارية يرافقون طليعة الجيش، ويأتي من بعدهم اغاولتهم واثان من قصاة العسكر والمحاسبين^(٤)، وبعدهم كان يتي موكب السلطان سليمان ويرتفع وراءه يبرق الحرب أي علم الدولة العثمانية والألوية السة الخاصة بفرق الجيش المختلفة^(٥)، أما قلب الجيش فكان يستقله الصدر الأعظم والوزراء مع حاشيتهم الصحمة، ويأتي من بعدهم باشا الروميللي وباشا الأصبول ومجموعة من الفرسان الإقطاعيين، وكان باشا الروميللي يتقدم رميله في الحملات الأوروبية في حين كان النقدم لباشا الأصبول في الحملات الموجهة نحو آسيا، أما في مؤخره الجيش فكانت فوجدت قراقل العتاد والمؤن^(٦).

وكان أكثر ما يرهق الجيش العثماني، أثناء توغلها في بلاد العجم (فارس)، أو في المجر هو اصطحاب قراقل كبيرة محملة بالدحائر والمؤن، على سبيل المثال اصطحب الجيش العثماني معه أثناء حصار هينا سنة ٩٣٥هـ/١٥٢٩م ما لا يقل عن ٢٢٠٠٠ بعير محمل

^١ - كلو، مرجع سابق، ص ٣٩

^٢ - DAVID NICOLLE, ANGUS MCBRIDE, op cit, p 17

^٣ - كلو، المرجع السابق، ص ٣٠

^٤ - بروكلمن، مرجع سابق، ص ٤٦٨

^٥ - التر، مرجع سابق، ج ١، ص ١٣١

^٦ - بروكلمن، مرجع السابق، ص ٤٦٨.

بالدقيق وليس هذا فحسب بل اصطحب معه مثل هذا العدد من الرجال، وكانت العناية بهذه الأمور من احتصاص فرقة تدعى (ويسوق) والتي تتألف من الفلاحين البلغار، الذين كانوا لا يتقاضون أجورهم، لأن خدمتهم في الجيش العثماني تقابل إعانهم من الجرية^(١).

ب- الأسطول:

تم إنشاء الأسطول العثماني بقصد مواجهة أسطول البندقية، ثم ما لبث أن تطور وأصبح يخدم السياسة العثمانية في البحر الأسود والمتوسط والأحمر والمحيط الهندي^(٢).

ثم بدأ اهتمام العثمانيين بالبحر بعد إلحاقهم للإمارات الأناضولية الساحلية، حيث أدرك السلطان يلدرم بيازيد أهمية مصيقي الدردنيل آنذاك، مما دفعه لإقامة ترسفة وقاعدة بحرية وذلك سنة/٧٩٢هـ- /١٣٩٠م/، كما قام بتشكيل فرقة بحرية تسمى (العرب)*، وذلك للعمل في السس^(٣)، ومنذ عام/٧٩٢هـ- /١٣٩٠م/، عُدت البحرية العثمانية قوة لا يستهان بها^(٤).

وفي الواقع وجدت الدولة العثمانية أن البحرية لها أهمية عظيمة وخاصة في دولة لها أراضٍ في أوربية وآسية^(٥)، ولما سيطر العثمانيون على استنبول لزداد اهتمامهم بالقوة البحرية، فجحوا بالاستيلاء على قسم كبير من جرر بحر إيجه بذلك عززوا أمن السواحل في غرب الأناضول^(٦)، إلا أن التطور الحقيقي للأسطول العثماني كان في عهد السلطان بيازيد الثاني/٦٨٨هـ- /١٤٨١م/، إذ وصلت قوته البحرية إلى صعي قوة أسطول البندقية، الذي كان من أقوى لأساطيل البحرية آنذاك^(٧).

بروكلمس، مرجع سابق، ص ٤٦٧

^٢ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١٢٨

* العزب وهي فرقة من الشباب غير المتمزجين تصل في السس وقد عرفت هذه الفرقة باسم (قوات العرب)

أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ٤١٥

^٣ - أوغلو، المرجع السابق، ج ١، ص ٤١٥

^٤ - أورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٢١

^٥ - DAVID NICOLLE, ANGUS MCBRIDE, op.cit, p 21.

^٦ - أوغلو، المرجع السابق، ج ١، ص ٤١٥ ٤١٦

^٧ - أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٢٢

كما اهتم السلطان سليم الأول بالأسطول^(١)، فقام بتوسيع ترسانة للقرن الذهبي التي بنيت في عهد السلطان محمد الفاتح^(٢)، وقام بتعزيزه بإنشاء سفن جديدة^(٣)، إلى أن خلفه به السلطان سليمان القانوني، الذي اهتم بالأسطول العثماني لاهتمامه بالجيش، حتى إنه في بعض المسوات كان اهتمامه بالأسطول قد تغلب أكثر من الجيش، فأصبحت القوة البحرية العثمانية تتفوق على باقي الأساطيل البحرية في العالم آنذاك^(٤)، حيث وصل عدد سفن الأسطول العثماني نحو ثلاثمائة سفينة^(٥)، وعند انضمام الرئيس خير الدين باربروس إلى الأسطول العثماني^(٦) أدى إلى ارتفاعه وازدياد قوته الذي بلغ الذروة في عهده^(٧).

و الواقع أن خير الدين باربروس استطاع أن يحول البحر المتوسط إلى بحيرة عثمانية و استمر هذا النشاط البحري الملمت، على أيام طورغوت رئيس وبياله باشا وقلج علي باشا الذين شأوا في مدرسة باربروس^(٨)، وفصلاً عن الرئيس سلمان الذي سعى إلى طرد البرتغاليين من المياه الإسلامية، و لينس رئيس الذي حارب الإسبان في غرب المتوسط^(٩).

وقد نجح السلطان سليمان القانوني في السيطرة على جزيرة رودس/٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م/ وسنة /٩٥٨هـ/ ١٥٥١م/ تمكن من طرد فرسان القديس يوحنا من طرابلس العرب، بالإضافة إلى ذلك العارات المتكررة التي نسها الأسطول العثماني على المراحل الإسبانية والإيطالية، ويبدو أنه لم تحل سنة دون القيام بعمليات بحرية^(١٠).

١ - حسون، مرجع سابق، ص ٣١٥.

٢ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ٤١٦.

٣ - بروكلمان، مرجع سابق، ص ٤٦٩.

٤ - أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٢٢.

٥ - باغي، مرجع سابق، ص ٩٢.

٦ - النر، مرجع سابق، ج ١، ص ١٨١.

٧ - فريد بك، مصدر سابق، ص ٢٢٢.

٨ - أوغلو، المرجع السابق، ج ١، ص ٤١٦.

٩ - أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٢٢.

١٠ - عمر، الدولة العثمانية دراسات تاريخية واجتماعية، ص ٥٢.

وبعد سيطرة الدولة العثمانية على المجر^(١)، تم إنشاء أسطول للعمل في نهر الطونة وأطلق عليه الأسطول الحفيف، فضلاً عن وجود أسطول آخر في نهر الفرات، وعدة تراسانات أخرى تقوى صناعة السفن على سواحل البحر الأسود والبحر المتوسط وبحر إيجه^(٢).

وبعد نجاح الدولة العثمانية بإنشاء هذه الأساطيل، تبين أنها طبق الأصل عن الأساطيل الإيطالية^(٣).

ويعود العسل في بناء هذه التراسانات والأساطيل إلى الثروة المادية للصخمة التي امتلكتها الدولة العثمانية، والمتمثلة بالعبوات المطلة على شواطئ البحر الأسود، والتي مدتها بالحشب اللارم لصناعة السفن، أما لأقمشة التي استخدمت لصناعة الأشرعة فكانت تستورد من فرنسا، أما المعادن تم جلبها من مناجم البعدان والأفلاق^(٤).

ومن الجدير ذكره أن العاملين في الترسانة مثل القبطان ورئيس العزب (عزب رئيسي) وعامل النفة (درمجي) وعامل الشراع (بلكجي) والجار (دولكر) والمدفعي (طرجي) والحارس (وارديان) وغيرهم، كانوا يتقاضون أجوراً مقابل خدماتهم، ويتم ترقية عامل النفة إلى رتبة رئيس بلوك العرب (عرب بلوكباشي)، وكانت تصمم هذه البلوكات عدداً من الصراط مثل الرئيس أي الرابن ورئيس الحرس (وارديان باشي) وسمالعرفة (أوصه باشي) ورئيس الطباخين (شحي باشي) وغيرهم، وقد بلغ عدد العاملين في الترسانة الواحدة في أواسط القرن السادس عشر حوالي ١٨٠٠ عاملاً^(٥).

وفي أغلب الأحيان كان الإشراف على بناء السفن في أيدي البلدية، حيث وجد اليونانيون، الذين تم استخدامهم وقت الحاجة، أم السلاحون فكثروا من اليونان أو

كوليس، مرجع سابق، ص ٨٦

^١ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ١١٧

^٢ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١٢٩

^٣ - بروكلمن، مرجع سابق، ص ٤٦٩.

^٤ - أوغلو، المرجع السابق، ج ١، ص ٤١٦-٤١٧

الإيطاليين^(١)، أما بالنسبة للسفن فقد كانت إبان قيام الدولة العثمانية صغيرة ومتواضعة، لدرجة أنها لم تكن تقوى على التصدي لأسطول البندقية الصحم والقوي، ولكن مع مرور الزمن حنت الدولة العثمانية حذو الدول البحرية وسعت إلى تقوية أسطولها، وقد نجحت بالفعل في ذلك من خلال تحويلها للبحر الأسود والمتوسط إلى بحيرتين داخليتين^(٢).

ومن أكثر السفن الحربية استخداماً زمن السلطان سليمان القانوني هي القادس، واحتلت تسمية السفن الحربية باحتلاف عدد المصاطب المعدة لجلوس الجذافين^(٣).

وأهم هذه السفن هي:

١- كاليبثا وفيها ٢٠-٢٤ مقعداً، في كل مجداف من ٣ إلى ٤ جذافين، وعدد الجذافين كان بين ١٢ إلى ١٩٠ جذافاً.

٢- قارعة وفيها ٢٥ مقعداً، في كل مجداف ٤ جذافين، وعدد الجذافين كان ٢٠٠ جذاف^(٤).

٣- باشقاردا وكانت مستخدمة لحمل المسطار أو لقيادة الاسطول^(٥)، وكان فيها من ٢٦ إلى ٣٦ مقعداً^(٦).

وفي كل مجداف كان هناك من ٥ إلى ٧ جذافين، وكان عدد الجذافين يتراوح بين ٢٦٠ إلى ٥٠٤ جذاف.

أما السفينة الأعرض والأعلى من الباشقاردا فكانت تسمى (ماعومة)^(٧)، وكانت تستعمل إما لحمل العتاد أو للتجارة، وكان يجلس على كل مصطبة ٣ رجال، ولكن في

بروكليس، المرجع السابق، ص ٤٦٩

^١ - أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحصارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، ١٩٨٦م، ص ٦٥٨

^٢ - كلو، مرجع سابق، ص ٣٧٠

^٣ - لورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٣٧

^٤ - كلو، المرجع السابق، ص ٣٧٠

^٥ Medhat Sert Oglu , KAUNAK GEÇEN, 34.

^٦ - لورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٣٧

عام/١٩٦٧هـ-١٥٦٠م/ قامت الدولة العثمانية بتشكيل مجموعات، وكانت كل مجموعة تصم ٢ جرافين وكان ثلاثتهم بحرك مجدافاً واحداً^(١).

يمكن أن نجزم أن البحرية العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني (أي على امتداد القرن السادس عشر) كانت تفوق مثيلاتها، ودلعت ذروة تقدمها وقوتها من حير الدين بارباروس، واستمر هذا التفوق أيام تلامذته وهم بياله باشا وقلج علي باشا أيضاً.

ويبقى أن نذكر أنه تم وضع العديد من الخرائط البحرية، كما أنه تم تأليف كتب بحرية كثيرة، قام بتأليفها بحارين كبار مثل سيدي علي ريس وبيري ريس^(٢)، أما عن العوامل التي أدت إلى تفوق البحرية العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني فيمكن إجمالها بالتالي:

- ١- سرعتها وقدرتها على الحركة والدوران، بالإضافة إلى عدم استعمال السفن التي كانت مصنوعة بعرض إظهار العظمة بشكل مبالغ فيه، لأنها لم تكن مناسبة في الحروب.
- ٢- ظهور البراعة في صناعة المدافع البحرية* التي بسرت للسفن العثمانية أن تصرب سفن الأعداء من على بعد دون أن تصاب هي.
- ٣- كان النظام عند البحارة العثمانيين دقيقاً يهرق النظام الأوروبي من كل النواحي، إلى أن تعرض هذا النظام إلى التدهور في القرن الثامن عشر^(٣).

كلو، مرجع سابق، ص ٣٧٠

^١ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٢١

* قام كمال رئيس بصنع المدافع بعيدة المدى في الأسطول قبل عام ١٥٠٠م. أورتونا، مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٣٨.

^٢ - أورتونا، المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٣٨

يمكن القول إن روح النظم والاضباط التي كانت سائدة في الأسطول والجيش العثماني، كانت مصرب المثل في كل أصقاع العالم آنذاك، فهي التي ساعدت على تحقيق كثير من الانتصارات المشرفة للدولة العثمانية، وعلى الرغم من الجوانب السلبية التي كانت عند الجنود العثمانيين والمتمثلة باستباحة المدن التي يدخلونها، وغيرها من التصرفات العشوائية التي تعكس الجانب القوضوي وإن صح القول الهمجي عند الجندي العثماني، كانت لها مبرراتها، فيجب ألا ننسى أن معظم هؤلاء الجنود انتزعوا من عائلاتهم وفق نظام (الدفشirme) أي ليس لهم أهل ولا يحق لهم الزواج، بالإضافة إلى التربية العسكرية الصارمة التي حصعوا لها والتي كانت بعيدة كل البعد عن الجانب الإنساني، مما أدى إلى تحويل الجندي العثماني إلى آلة لا تتحرك إلا إذا تم إمدادها بالطاقة اللازمة دون النظر، أو الأخذ بعين الاعتبار للطريقة التي يحصل فيها على هذه الطاقة.

وبالتالي كانت هذه القيود هي التي جعلت هؤلاء الجنود يطلقون بهم إلى ملدات الحياة التي تصادفهم، لا بل يتشبثون بها، ولكن يبقى إن نقول أن العثمانيين لم يكونوا سوى عساكر في دولة حرب

الفصل الثالث:

حروب السلطان سليمان وتوسعاته:

١-حروبه في أوروبا:

أ-السيطرة على بلغراد.

ب-معركة موهاكس وإخفاق العثمانيين أمام اسوار فيينا.

ج-تجدد الصراع مع النمسا.

د-حصار جزيرة مالطة.

هـ-السيطرة على سيجستوار.

٢-صراعه مع البرتغاليين:

أ تصدي السلطان سليمان للخطر البرتغالي.

ب-الحملة البحرية الثانية اتجاه الهند.

ج-حملاته على اليمن للتصدي للبرتغاليين.

حروب السلطان سليمان في أوروبا :

لعل من أهم الأهداف التي ارتكزت عليها الدولة العثمانية في عملياتها التوسعية في أوروبا هو دعم قوتها الإقتصادية، وذلك من خلال إحكام السيطرة على الطرق البحرية البرية للتجارة العالمية بين الشرق والغرب، وهذا ما حرص على الدولة العثمانية التصدي للبرتغاليين وكسر حصارهم البحري للشواطئ العربية وحماية الإمبراطورية العثمانية من الخطر الأوروبي^(١) وخطر الدولة الصفوية الصاعدة، التي كانت تسعى بدورها للسيطرة على العالم العربي^(٢).

وبالتالي فإن هذه الأهداف خدمت الدولة العثمانية من الناحية الإستراتيجية والمتمثلة بالتوسع في أوروبا وتكوين إمبراطورية عثمانية تسيطر على الشرق والغرب، وبما سيطر السلطان سليم ومن بعده سليمان على المشرق العربي كان لابد من الانتقال من النطاق الإقليمي الى النطاق العالمي في صلية التوسع العثماني^(٣).

وحلال فترة التوسع العثماني بدأت الحروب بين الطرفين (العثماني والأوروبي) فبناها بين مد وجزر أحياناً تتصاعد وترداد حدة القتال وأحياناً أخرى يسوء هدوء نسبي بين الطرفين^(٤)، لأن هذه الحروب بشكل ارتبطت إلى حد ما بالوضع الاقتصادي لكلا الطرفين، وإن اعتبرنا أن المجتمع الأوروبي في القرن السادس عشر كان يشبه نوعاً ما المجتمع العربي (الإسلامي) حيث يلاحظ وجود فترات من الإزدهار النسبي لكلا الثقافتين وبالمقابل كانت هناك أيضاً فترات من الركود الاقتصادي، بالإضافة إلى شغل كلا الطرفين في بعض الأحيان بالصراعات الدينية والطائفية والصراعات بين لأسر الحاكمة^(٥).

محمود مصطفى، مرجع سابق، ص ١١٦

^١ - هريدي، مرجع سابق، ص ٦٣

^٢ - محمود مصطفى، المرجع السابق، ص ١٦٦

^٣ - كلو، مرجع سابق، ص ٥٣

^٤ - كوليس، مرجع سابق، ص ٨٠.

قد يلاحظ ارتفاع حدة الحروب البحرية في البحر الأبيض المتوسط^(١) التي ستؤدي إلى استئناف الزحف العثماني في أوروبا لتصل إلى الدانوب، وبهذا سيتمك الهجوم العثماني إلى أوروبا الشرقية وبناريا برأ وبحر^(٢) إلى سواحل وجرر البحر المتوسط^(٣).

وقد اتخذت سياسة السلطان سليمان القانوني الخارجية منذ بداية حكمه، إتجاهاً معياراً عن الاتجاه الذي سار عليه والده السلطان سليم، ففي الوقت الذي أحصع فيه السلطان سليم كل شيء لقتال الشدء الصفوي، رأى السلطان سليمان أنه من الحكمة توجيه الجيش ضد حصوم آخرين ريعصد بالأحرين الأوروبيين، ولكن دون إهمل للشال الصفوي، إذ لجأ السلطان سليمان إلى تهئة الأوضاع لعقرة من الزمن لحين تحقيق أهدافه في أوروبا^(٤).

١- السيطرة على بلغراد:

برزت المجر في أوروبا الشرقية كعدو تقليدي للدولة العثمانية، حيث شكلت سوراً منيعاً صد دخول القوات العثمانية إلى أوروبا^(٥).

لذا كان السلطان سليمان القانوني بحاجة إلى ذريعة لإعلان الحرب على المجر والسيطرة عليها، وقد جاءت الفرصة المناسبة، وذلك عندما وصله خبر أن السفير العثماني الذي أرسل إلى لويس الثاني ملك المجر ليبلغه بوصون السلطان سليمان إلى الحكم تم قتله، فصلاً عن ذلك إعلان الملك لويس الثاني بأنه غير ملتزم بأي تعهدات قد أعطيت للعثمانيين سابقاً، خاصة أن خليفة السلطان سليم صغير السن ولا يمتلك خبرة الملك، وهذا ما أثار حفيظة السلطان سليمان القانوني فأعلن الحرب عليهم، بعد أن تأكد أن الظروف كانت ملائمة لإعلان الحرب ضد المجر التي كانت تعاني من مشكلات داخلية عميقة، تمثلت بالقتال المستمر بين الجماعات الأرستقراطية، فصلاً عن وجود الفلاقل الكثيرة بين

^١ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٦

^٢ - كوايس، مرجع سابق، ص ٨٠

^٣ - مفتراس، مرجع سابق، ج ١، ص ٢١٧

^٤ - طغوش، مرجع سابق، ص ١٨١

الفلاحين الفقراء، كل هذه العوامل أسهمت إلى حد ما في فتح الطريق أمام قوات السلطان سليمان القانوني^(١).

عندها تحرك السلطان سليمان بجيوشه باتجاه هعارية في عام/٩٢٨هـ-١٥٢١م/٢١، ولم يمض على وفاة والده السلطان سليم سوى ثمانية أشهر^(٢)، وكان هدفه قلعة بلغراد وهي عبارة عن حصن كبير يقع عند التقاء الدانوب الأوسط وروافده من الأنهار، فصلاً على أنها البوابة المؤدية إلى ما وراء نهر الدانوب ومفتاح أوروبا الوسطى^(٣)، وبسقوط هذه القلعة التي تبعد حوالي ٢٠ كم عن الحدود العثمانية يصبح الطريق إلى قيبدا مفتوحاً، خاصة أنها كانت تعد من أقوى القلاع على الحدود العثمانية، التي حاصرها العثمانيون سابقاً ثلاث مرات، وقد أصيب السلطان محمد الفتح في الحملة الثانية، ومات أيضاً هينادي جانوس أحد أبرز القادة المدافعين عن هذه القلعة وعلى الرغم من ذلك لم تسقط القلعة، وقد كان هذا بعد ذاته دافعاً قوياً للسلطان سليمان لكي يصنع هدفاً لهذه القلعة وقادتها ولكي يثبت نجاحه بالسيطرة على هذه القلعة التي فشل السلطان محمد الفتح سابقاً في السيطرة عليها، ولذلك عندما علم ملك المجر بزحف الجيش العثماني الجرار الذي كان مصحوباً بـ ٣٠٠٠ جنس محمل بالبارود والرسامس وسفينة محملة بـ ٤٠٠ حصان على نهر الصونة و ٥٠ سفينة حربية وغيرها من المعدات الحربية الصلبة^(٤) وهذا ثبات بأن العثمانيين لم يكونوا سوى دولة عسكر وأن دوتهم كلفت قائمة على الحروب، وعلى الرغم من أن ملك المجر استنجد بالأوروبيين إلا أنه لم يجد أي مساعدة تذكر^(٥)، لعدة أسباب منها . أن البندقية كلفت على وشك توقيع معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية، أما البابا فكان مشغولاً بالمشاكل الداخلية التي تعاني منها بلاده^(٦) بالإضافة إلى المشكلات

- كولينس، مرجع سابق، ص ٨٤-٨٥

²-Mehrdad Kia, The Ottoman Empire, London, 2008, p. 23

^٣ أورتوب، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦١

^٤ - طغوش، مرجع سابق، ص ١٨١

^٥ أورتوب، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٦١-٢٦٢

^٦ طغوش، المرجع السابق، ص ١٨١

^٧ - كولينس، المرجع السابق، ص ٨٤.

الكبيرة التي كان يعاني منها شارلوكا، الذي نصح بدوره ملك المجر بأن يقوم بترقيع هذه مع السلطان بهدف تهدئة الأوضاع وكسب الوقت .

ولكن هذه النصيحة جاءت متأخرة لأن القوات العثمانية كانت قد بدأت بتتديد الحطة التي وصعها السلطان سليمان لمحاصرة القلعة، فتوجه جيشه نحو الشمال على ثلاثة محاور منطلقاً من مدينة أدرنة :

١ - محور شابنس - بلعراء وكان بقيادة أحمد باشا.

٢ - محور صوفيا - بلعراء بقيادة بيري باشا الصدر الأعظم.

٣ - محور نر انسلونيا - بلعراء بقيادة محمد مغال أوغلو^(١).

وبعد ذلك سبلحق السلطان سليمان بهم، ولم تمر فترة قصيرة حتى تمكنت القوات العثمانية من الاستيلاء على عدة حصون وقلاع مثل (بوغرلدر ورملين)^(٢)، ثم قام السلطان سليمان نفسه بعرض حصار على بلعراء دام حوالي شهرين ونصف^(٣)، ونتيجة لهذه الانتصارات، وبعد هجوم متكرر وغارات عنيفة سقطت مدينة بلعراء بيد العثمانيين سنة/٩٢٨هـ/١٥٢١م/ وتحقق النصر للعثمانيين^(٤)، فأعلن السلطان سليمان القانوني بدوره عن هذا الانتصار الباهر لجميع ملوك أوروبا والولاة العثمانيين^(٥)، وبعد أن تمت السيطرة التامة على بلعراء تم إلحاقها إلحاقها بولاية البرسة ثم قام السلطان سليمان القانوني بعد ذلك بدحول مدينة بلعراء وبتحويل أهم كنيسة فيها إلى مسجد صنّي فيه^(٦)، وقرر بعدها العودة إلى بلاده^(٧).

أما بالنسبة لعيسلين دي بوسيك سفير فريديان في استنبول والملاحظ أنه ثاقب النظر من خلال قوله "إن استيلاء الأتراك على بلعراء هو المتسبب في الوضع المأساوي الذي

^١ - طفرش، مرجع سابق، ص ١٨١.

^٢ - أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦٢.

^٣ - مرهناك، مصدر سابق، ص ٧٩.

^٤ - كوليس، مرجع سابق، ص ٨٦.

^٥ - فريد بك، مصدر سابق، ص ٢٠٢.

^٦ - مرهناك، المصدر السابق، ص ٧٩-٧٧.

^٧ - حليم، مصدر سابق، ص ٨٧.

باتت المجرت تحيط فيه فيما بعد. وهو المتسبب أيضاً في مقتل الملك لويس وفي سقوط بودابست واحتلال ترانسلفانيا وانهيار مملكة مملكة مملكة وتحول الأمم المجاورة من أن تلقى نفس المصير

يجب أن تكون هذه الأحداث عبرة للأمرء المسيحيين الذين بات صيهم أن يعرفوا، إذا كانوا يرفضون الغناء، كيف يحصون استحکاماتهم ومعاقلم لحمايتهم من العدو، إن الجيوش العثمانية كسيول قوية طمعتها الأمطار، فإذا استطعت أن تتسرب عبر الحدود التي تصدها قابها ستتفقد من خلال الثغرات وتحدث خراباً لا حد له، كذلك العثمانيون، فإنهم إذا دمروا الحواجز التي تمنعهم، انقصوا وأحدثوا خراباً لا يتصوره العقل^(١)

وبعد سقوط بلغراد التي كانت من أكثر المدن قوة، ومن أكثر الحصون المجرية مناعة، أمام تقدم القوات العثمانية، فقد تحولت بعد سقوطها إلى أكبر مساعد لها للوصول إلى بلاد ما وراء نهر الدانوب، وبالتالي أثبتت الدولة العثمانية لكل دول أوروبا، مدى قوة هذه الدولة العتية الصاعدة، التي مشترك بصمة واضحة لها على الساحة الدولية.

٢- معركة موهاكس وإخفاق العثمانيين أمام أسوار فيينا ١٥٢٩م:

بعد عودة السلطان سليمان من رودس اتخذ قراراً مستمداً آثاره لسنوات طويلة، حيث أعى الصدر الأعظم بييري باشا من منصبه وقدم له الشكر على خدماته الجليلة للدولة العثمانية، وعين بدلاً عنه صفيقه إبراهيم باشا الذي كان يتمتع بحظوة كبيرة عند السلطان سليمان، والدليل على ذلك أن الفترة التي تولى فيها إبراهيم باشا منصبه كصدر أعظم عدت فترة ذهبية عاشتها الدولة العثمانية^(٢)، وجاء ذلك بعد قرار السلطان سليمان غزو بلاد المجر حيث كانت الظروف الدولية مناسبة لذلك^(٣)، لأن العلاقات مع البندقية بقيت جيدة منذ السيطرة على رودس^(٤)، أما لشاه صهماسب الذي تحالف مع شارل الخامس (شارلوكا) صده

^١ - دي بوسيك، وثيقة منشورة في كتاب سليمان القانوني، كلو، مرجع سابق، ص ٥٧

^٢ - مانتران، مرجع سابق، ج ١، ص ٢١٨

^٣ - أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦٩

^٤ - رمصل، مرجع سبق، ص ١٦٨

كان عاجزاً في ذلك الوقت عن الدخول في الحرب معه، أما الإمبراطور شارل الخامس (شارلوكا) فقد تشغل اداك بعصبة للمعارضين في كرنياك* مما حال دون تحله^(١).

وبالمقابل كان السلطان سليمان على علم بأن المجر كانت مقسمة ومفككة^(٢)، فكان المزارعون يعيشون في بؤس شديد، ويترقبون دخول الأتراك كمقننين لهم^(٣)، وبهذا تهيأت الظروف للقيام بحملة عسكرية ضد المجر وذلك في عام/٩٣٢هـ/١٥٢٦م^(٤).

لقد كانت حملة بلغراد قبل عدة سنوات على المجر متواضعة من حيث الإعداد والتجهيز لها، إذ كان هدفها اداك فتح القلعة التي كانت تعدّ مفتاح أوروبا الوسطى، بينما حملة المجر هذه المرة عدت حرباً شاملة كان الهدف منها القضاء على الملكية الكبرى التي تمثل باتحاد ملكيتي (المجر وبوهيميا)، الحاصنتين لسيطرة ألمانيا وشارل الخامس (شارلوكا)، والتي كانت تعاني من تمرق عميق في المجتمع كما ذكر سابقاً مما أدى إلى تدهور الوضع بشكل كبير^(٥).

وبالمقابل كانت القوات الهنغارية قد أعدت نفسها لمواجهة القوات العثمانية التي تحركت من استنبول بتعداد وصل عدده نحو ستين ألف جندي^(٦)، وعندما وصل الجيش العثماني إلى المجر تمكن بداية من الاستيلاء على قلعة بترقرادين بعد أن قاومت مدة ثلاثة عشر يوماً^(٧)، ثم عبر الجيش العثماني نهر الطونة ليصل إلى صحراء موهالكس* التي حولتها الأمطار التي

* كورباك، منبه تقع في مقاطعة شارب بالجنوب الغربي القريسي وهي مشهورة بحورها، وأثناء الحروب الدينية التي أحدثتها الثورة الإصلاحية على كنيسة روما كثفت كورباك إحدى (المس الأمس الأربع) التي منح فيها البروتستانت حق العيش وممارسة طقوسهم الجديدة بدون مصافحه. كلو، مرجع سابق، ص ٧٨

^١ - كلو، مرجع سابق، ص ٧٨

^٢ - كوليس، مرجع سابق، ص ٨٤.

^٣ - طفرش، مرجع سابق، ص ١٨٧.

^٤ - أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦٩.

^٥ - كوليس، المرجع السابق، ص ٧٦

^٦ - حرب، مرجع سابق، ص ٩٢.

^٧ - أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦٩

* صحراء موهالكس، تقع على مسافة ١٨٥ كم شمال غربي بلغراد و ١٧٠ كم جنوب بودابست. أورتونا، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٧٠.

تساقطت بعزارة مدد شهوور إلى مستنقعات متناثرة^١، وهناك تمت المواجهة مع القوات المجرية التي كانت بقيادة الملك لويس الثاني، أما القوات العثمانية فكانت بقيادة السلطان سليمان القانوني والصدر الأعظم إبراهيم باشا وبعد أن دار القتال بين الطرفين^٢، انتهت هذه المعركة بعد أن استمرت حوالي ساعتين بانتصار عثماني سريع وكبير^٣، بفصل وجود السلطان سليمان القانوني والعرق الإنكشارية التي شكلت عماد الجيش العثماني آنذاك^٤، هذه العرق استطاعت أن تثبت قوتها أمام أقوى الجيوش الأوروبية، وخصوصاً الجيش المجري الذي اشتهر بعسكره المدرعين^٥، بالإضافة إلى اهتمام السلطان سليمان باستخدام المدافع الثقيلة التي كان يحرص على وجودها في كل المعارك، وقد كان عددها في هذه المعركة يفوق عدد مدافع الطرف الآخر^٦، هذه المدافع أدت دوراً مهماً في تحقيق هذا النصر السريع والخاطف على الأعداء^٧، والواقع أن الانتصار الذي تم إحرازه في موهاكس كان قد راد من هيئة الصدر الأعظم إبراهيم باشا لدى السلطان سليمان، ويؤكد ذلك المؤرخ كمال شهرزاده* الذي يقول: "إن النصر بهذا النصر المبين وهو أعظم ما عصف الله به الإسلام وخل به ملّة الكفر من الانتصارات، يعود فيه الفصل إلى الأمير الباسل الورير الحصيف إبراهيم باشا الذي كان رمحه كمنار الصقر شدة، وسيفه المصرج بالدماء كمحلب الأسد صراوة"^٨.

¹- Assemelea di Wiklmedia di Italia, Guerra ottoman-asburgica, Pistoia, 20 marzo, 2010.

²- Impero ottoman, all about turkey – burak sansal 2010, s 2.

^٣ - مؤسس، مرجع سابق، ص ٢٧.

^٤ - كوليس، مرجع سابق، ص ٧٦.

^٥ - حرب، مرجع سابق، ص ٩٢.

^٦ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٩٠.

^٦ - حرب، المرجع السابق، ص ٩٢.

* كمال شهرزاده، وهو الذي شغل حتى عام ١٩٣٤م منصب شيخ الإسلام من جهيدة العلم في عصره، وكان أسلوبه المليء بالمبالغات والصور الجريئة، من أحسن نماذج النثر في عصره، ذلك النثر المتميز بالحوية والتلوين. كلو، مرجع سابق، ص ٨٢.

^٨ - كلو، المرجع السابق، ص ٨٣.

لقد نتج عن هذه المعركة موت الكثير من الجنود المجريين كما هرب الكثير منهم، بالإضافة إلى موت الملك الهنغاري لويس الثاني مع سبعة من أساقفته، وعدد كبير من كبار القادة مما أدى إلى انعدام المقاومة في وجه السلطان سليمان، وهذا ما فتح الباب لتقدم القوات العثمانية إلى مدينة بودا^{١*}، حيث حاصروها بعدة أيام ثم تمكنوا من السيطرة عليها سنة ١٥٢٦^(١)، بعد أن طلب قائد حملة مدينة بودا أن يتم تسليم هذه المدينة وقلاعها شرط عدم التعرض لهم خصوصاً من قبل الإنكشارية، وبالفعل وافق السلطان على طلبهم وصمم لهم الحملة، ولكن يبدو أنه فور خروج أفراد الحامية من مدينتهم، هجم الإنكشارية عليهم ودخلوا المدينة^(٢) بعد أن استباحوها لأنفسهم وعاثوا فيها فساداً^(٣).

وبالتالي تم إخضاع المجر للسيطرة العثمانية وجعلها ولاية عثمانية لمدة ١٤٠ عاماً^(٤)، وبموت الملك لويس الثاني أصبح عرش المجر حالياً ولذلك قام بعض الأرستقراطيين الباقين في المجر بانتخاب رجل عرف باسم رابوليا، وفي نفس الوقت كان فرديناند (شقيق الإمبراطور شارلوكا) في النمسا قد طالب بالعرش المجري، خاصة أنه استند إلى أنه سليل أعظم أسرة أوروبية، وأنه من خلال تسلمه الحكم سيتمكن من استعادة هنغاريا من أيدي العثمانيين^(٥)، وبالفعل قسمت قوات الهابسبورغ بطرد زابوليا ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م، الذي لجأ بدوره إلى السلطان سليمان طالباً المساعدة منه^(٦).

لبي السلطان سليمان المساعدة لأنه أراد أن يجعل من زابوليا ألعوبة بيده، يستطيع من خلاله أن يحصل على مورد ضخم من المال متمثل بالجزية التي تدفع للإمبراطورية العثمانية

* بودا، هو القسم لغربي من عاصمة المجر الواقع على الضفة اليمنى لنهر الدانوب، وأصبح منذ القرن الرابع عاصمة البلاط الملكي. كلو، مرجع سابق، ص ٨٠.

^١ - مرهنتك، مصدر سابق، ص ٨٠.

^٢ - هويد بك، مصدر سابق، ص ٢١٥.

^٣ - كوليس، مرجع سابق، ص ٧٦.

^٤ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٩٠.

^٥ - كوليس، المرجع السابق، ص ٨٧.

^٦ سعيد أحمد براجوي، الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، بيروت، الألفية للنشر والتوزيع، ١٩٩٣م، ص ١٠٩.

هذا من جهة^(١)، ومن جهة أخرى كان السلطان سليمان يفصل أن يعتلي العرش ملك ضعيف حاصع له، على أن يكون الملك من أسرة هابسبورغ ومدعوماً من قبل كل بلدان الإمبراطورية الرومانية المقدسة برجالها وعقاداتها^(٢).

ونتيجة للصراع الذي نشب بين فرديناند وزابوليا تمكن جيش فرديناند من السيطرة على مدينة بودا سنة/٩٣٧هـ/١٥٣١م^(٣)، وبعد ذلك أرسل فرديناند بعثة دبلوماسية إلى السلطان سليمان القانوني عرض فيها رئيس الوف مطالبه على السلطان سليمان القانوني وهي إرجاع كل الأراضي التي سيطر عليها العثمانيون بما فيها مدينة بلعراء^(٤)، وهذا ما أغضب السلطان سليمان الذي قرر تجهيز جيش جرار بهدف إعادة تنصيب زابوليا ملكاً على بودا واحتلال فيينا عاصمة فرديناند^(٥).

لقد كان وضع السلطان سليمان قوياً من الناحية الدبلوماسية لأنه كان على علم بأن أوروبا كانت مقسمة أكثر من أي وقت مضى، وكان مطلعاً على الوضع الديني في ألمانيا الذي تمثل بثورة البروتستانت سنة/٩٣٤هـ/١٥٢٩م/ ومدى تأثير هذه النزاعات الدينية على الأوضاع السياسية في أوروبا^(٦)، فكانت النتيجة أن تمكنت القوات العثمانية من استرجاع بودا^(٧)، بعد أن فرضوا عليها حصاراً مركزاً فلم يتمكن فرديناند من الصمود طويلاً أمام الضغط العثماني، بالإضافة إلى أنه حاول أن يتجنب عاقبة كعاقبة موهاكس، فما كان منه سوى أن هرب إلى مدينة فيينا، أما السلطان سليمان فقد قام بتعيين زابوليا حاكماً على بودا وكان ذلك سنة/٩٣٥هـ/١٥٢٩م/، على أن يدفع جرية سنوية للدولة العثمانية، وأن يوافق على بقاء فرقة من الإنكشارية في قلعة المنيمة، ثم تابع السلطان مسيره نحو (فيينا) عاصمة آل هابسبورغ^(٨)، هابسبورغ^(٩)، وقد اضطحب معه زابوليا، أما فرديناند فقد تمسك من المدينة وأحلى سكتها

- كولين، مرجع سابق، ص ٨٧.

^٢ - كليم، مرجع سابق، ص ٨٦.

^٣ - اينالجيك، مرجع سابق، ص ٥٨.

^٤ - طقوش، مرجع سابق، ص ١٩٠.

^٥ - برجايوي، المرجع السابق، ص ١١٠.

^٦ - طقوش، المرجع السابق، ص ١٩٠.

^٧ - ISMAIL HAKKI UZUN ÇARŞILI, KALNAK GEÇEN, s520.

^٨ - اينالجيك، المرجع السابق، ص ٥٨.

مدينتهم أيضاً وبقيت في مدينة (وبانة)* فربما القوت العسكرية التي تولت مهمة الدفاع والتصدي ضد العثمانيين^(١)، عندها نجح السلطان سليمان بالتوغل إلى قلب القارة الأوروبية ودبّ الدعر في قلوب الأوروبيين لأنهم أدركوا عندها أن الخطر لا يتعلق هذه المرة ببلاد المجر والدايوب فحسب بل بكل أوروبا، الأمر الذي حتم عليهم تجنيد كل قواهم في سبيل التصدي لهذا السلطان القوي وجيوشه الجرارة^(٢)، حتى إن فرنسا التي استطاعت بعصل مساعدة السولة العثمانية أن تتخلص من تسلط آل هابسبورغ دخلت في هذا الحلف الأوروبي ضد الدولة العثمانية، كما وقف البروسات ضد العثمانيين أيضاً^(٣)، هذا وقد كان وضع الملك فريداند آنذاك يأساً، لأنه طلب عدة مرات البجدة من الإمبراطور شارل الخامس (شارلكن) دون جدوى، ولكنه انفق مع البابا لكي يمنحه جزءاً من أموال الكنيسة لتمويل نفقات الحرب، فقام بترميم الأسوار وهدم البيوت من حولها وسدّ كل أبواب المدينة، وقد دام حصار فيينا حوالي تسعة عشر يوماً حاول العثمانيون فيها اقتحام المدينة أربع مرات ولكنهم فشلوا في ذلك^(٤)، لعدة أسباب منها: قدوم فصل الشتاء القاسي المحمل بالثلوج، بالإضافة إلى أن السلطان لم يكن ينوي احتلال فيينا إنما أراد أن ينقذ الجيش الألماني درساً لما فعلوه في بود وحاكمها رابوليا، كما أنه لم يجلب معه المدافع الثقيلة التي كانت بنطره كافية بالسيطرة على فيينا آنذاك^(٥)، والمواد العدائية كانت قد بدأت تنفذ من الجيش العثماني^(٦)، إضافة إلى كل ما ذكر سابقاً لا بد من الإشارة أيضاً إلى أن من أبرز أسباب هزيمة الجيش العثماني في اقتحام فيينا هي أن الجيش العثماني كان مرهقاً من هذه الحملة الطويلة والشاقة إذ إنه لم يكن معتاداً على اجتياز مثل هذه المسافات الطويلة، فضلاً عن نقصهم من وضعهم المادي، ولذا لالة على مدى

* وبانة (فيينا)، عاصمة إمبراطورية النمسا، تقع على نهر الدونة وكانت عاصمة الإمبراطورية الألمانية إلى أن سقطت سنة ١٨٠٩م، وحاصرها العثمانيون مرتين الأولى سنة ١٥٢٩م، والثانية ١٦٣٨م، وحطها نابليون مرتين الأولى سنة ١٨٠٥م والثانية سنة ١٨٠٩م. هريد بك، مصدر سابق، ص ٢١٦.

^١ - برجاهي، مرجع سابق، ص ١١٠

^٢ - محمود محمد السيد، تاريخ الدولة البيزنطية، اسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠٠٠م، ص ٢١٦

^٣ - لونغو، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٧-٣٨

^٤ - هريدي، مرجع سابق، ص ٦١

^٥ - مرهوك، مصدر سابق، ص ٨٢

^٦ - حرب، مرجع سابق، ص ٩٤

تعييم وإرهاقهم، قيم الجيود بطري خيمهم بعد مصي عدة أيام وأحرقوا كل ما هو زائد ليخففوا عن أنفسهم مشقة طريق العودة^(١).

وفي ظل هذه الظروف كانت كل نول أوروبية تتقرب بحوف وتوتر نتيجة هذه المعركة التي مستقر مصير قارة أوروبية^(٢).

وفي النهاية انسحاب السلطان سليمان عائداً جانباً إلى استنبول بعد فشله في السيطرة على هيناء، والتي عنت أول هزيمة عرفها السلطان سليمان القانوني^(٣).

أما بالنسبة لأراضي المجر فقد انقسمت إلى ثلاثة أقسام القسم الأول كان لفرديناند الذي كان يحمل تاج المجر وبوهيم، والقسم الثاني كان لرابوليا ومركزه بودا، والقسم الثالث أصبح مسجقاً حاصصاً للعثمانيين في سيرم وهو يقع بين بهري الذنوب وساروا^(٤).

ولكن يبدو أن السلطان سليمان لم يعد إلى بلاده حالياً الوفاص، فقد بقيت معظم مملكة هنغارية تابعة لرابوليا، وفي الوقت الذي رفض فيه فرديناند التحلي عن ادعائه بالعرش الهنغاري، أرسل بعثه إلى استنبول بهدف التفاهم مع السلطان سليمان، حاصه أن فرديناند أدرك أنه عاجز عن إعادة الوحدة للمملكة وعن التصدي للعثمانيين على الرغم من كل الجهود التي بذلها، ولكن السلطان سليمان رفض أي محاولة للتفاهم أو حتى عقد صلح مع فرديناند لأنه أراد أن يصع حداً للإمبراطور شارل الخامس (شاركل) الذي كان يتعدى دائماً على ممتلكات المسلمين^(٥).

ويلاحظ من خلال دراسة الوقائع التي جرت، أن رفض السلطان سليمان القانوني التفاهم مع فرديناند لم يكن بسبب رغبة السلطان سليمان القانوني في أن يصع حداً له ولشارل الخامس (شارلكان) نتيجة لما أقفهم المعادية للإسلام، ولمحططات التي يرسموها صد دله و ربما لتحذ السلطان سليمان موقفاً شخصياً في هذه المرحلة التي وصل إليها من القوة والعظمة،

بيتر وميان، مرجع سابق، ص ١٤٩

^١ - برجوي، مرجع سابق، ص ١١٠

^٢ - أرسلان، مصدر سابق، ص ١٥٥.

^٣ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٨

^٤ - طقوش، مرجع سابق، ص ١٩٢

لأنه يدري أن هذا العالم لم يعد يتسع إلا لشخص واحد وهو السلطان سليمان القانوني ، لذلك كان يرغب بشدة في القضاء على غريمه الإمبراطور شارل الخامس (شاركن) ، خاصة أن السلطان سليمان لم يتعرض لأي هزيمة منذ تسلمه الحكم وربما عد فشله أمام أسوار فيينا اقل من شأنه كسلطان عظيم سيطر على العديد من المدن في أوروبا، لذلك يبدو أنه أراد أن يرصي غروره ويضعي نار الهريمة في داحيه بمحاولة أخيرة للقضاء على منافسه شارل الخامس (شارلكن) بحجة أن هذا الأخير كان يتعدى على المسلمين.

لذلك جهز السلطان سليمان جيشه وانطلق مع الصدر الأعظم إبراهيم باشا عام/٩٣٨هـ-١٥٣٢م/ بحملة ضخمة باتجاه فيينا^١، وفي طريقه استولت القوات العثمانية على عدة فلاع دون أي مقاومة تذكر^٢، ولكنها توقعت عند قلعة كرنز التي كانت تبعد حوالي ٦٠ ميلا عن فيينا، فكان السلطان سليمان يرغب بأن يستدرج شارل الخامس (شارلكن) عند هذه المدينة لحوص حرب حاسمة^٣، لكن يبدو أن الحط لم يحالف السلطان سليمان القانوني مرة أخرى، لأنه لم يتمكن من اقتحام هذه المدينة التي لُدت دفاعاً مستميتاً ضد القوات العثمانية^٤.

وفي النهاية وافق السلطان سليمان على إجراء مفاوضات مع حاكم المدينة الذي قبل بتسليم القلعة للسلطان ولكن بشرط عدم دخول الجيوش العثمانية إليها^٥، وبعد مجموعة من الهجمات الهجما للملاحقة بين الطرفين، تم تثبيت الحدود الألمانية العثمانية وفقاً للمعاهدة التي وقع سنة/٩٣٩هـ-١٥٣٣م/، التي تضمنت اعتراف الحكومة العثمانية بفرديناند ملكاً على بوهيميا وأرشيدوقاً على النمسا، أما إسبانيا فكانت خارج هذه المعاهدة^٦.

أما عن الأسباب التي جعلت كل الأطراف المتنازعة تلجأ للهدوء والمسلم نوعاً ما، فهي

^١ - حرب، مرجع سابق، ص ٩٤

^٢ - أوزتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٧٥

^٣ - إيسلجيك، مرجع سابق، ص ٥٨

^٤ - هريد بك، مصدر سابق، ص ٢١٨

^٥ - طغوش، مرجع سابق، ص ١٩٤

^٦ - بروكلمان، مرجع سابق، ص ٤٥٢

أولاً: رغبة السلطان سليم القانوني بإلقيام بحملة صد الصغويين بهدف السيطرة على بغداد ولكي يتم تحقيق ذلك كان لابد من تجنب القتال على جبهتين، وهذا ما دفعه إلى توقيع الصلح مع النمسا.

ثانياً: كان السلطان سليمان على علم بالاتصال الدائم بين شارل الخامس (شارلوكا) والشاه الصغوي طهمااسب، والتنسيق بينهما لإنقيام بعملية صده.

ثالثاً: يعاني كل من شارل الخامس (شارلوكا) وفرنرياند من مشاكل دسبة كبيرة، خاصة أن البروتستانت قد بدأوا يتقربون من الملك الفرنسي، وهذا ما دفع شارل الخامس (شارلوكا) إلى أن يتعهد بعدم التصدي للأمرأ البروتستانت الخارجين عليه^(١).

٣- تجدد الصراع مع النمسا:

عانت الحروب من جديد في بلاد المجر فتكلفت بانهزم جيش أرسله شارلوكا صد العثمانيين سنة/٩٤٤هـ-١٥٣٧م/، ولكن في سنة/٩٤٥هـ-١٥٣٨م/ ثق أمير البعدل * عصا الطاعة بناء على تحريض من قبل فرنرياند، ولكن تمكنت الدولة العثمانية يومها من وضع حد لهذا التمرد، وعينت أحاه أسطفا حاكماً بدلاً منه، ومن ذلك الوقت بدأت الدولة العثمانية تعزز حاميّتها في المنطقة^(٢)، حيث اتفق في تلك الفترة كل من رابوليا ملك المجر وفرنرياند على اقتسام البلاد وطرد العوااب العثمانية، وقد رسم هذه الحطة فرنرياند للإيقاع برابوليا الذي كان يعمل لصالح العثمانيين، ولما وافق رابوليا على ذلك الاتفاق أرسل فرنرياند نسخة من الاتفاق إلى الباب العالي، للإيقاع برابوليا ولثبث لهم عدم ولائه^(٣)، ولكن رابوليا وافته المنية سنة/٩٤٧هـ-١٥٤٠م/^(٤)، قبل أن تعاقبه الدولة العثمانية على خيانتة^(٥).

^١ - طقوش، مرجع سابق، ص ١٩٥

* بعدار (مولدافيا) إمارة رومانية مستقلة ذاتياً تابعة لتركيا، وتقع في الجهة الشمالية الشرقية على النجوم الروسية - كلو، مرجع سابق ص ٣٨

^٢ - رجوي، مرجع سابق، ص ١٢٠

^٣ - طقوش، المرجع السابق، ص ٢٠٠-٢٠١

^٤ - آق كوندز، لوزتورك، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

^٥ - هريد بك، مصدر سابق، ص ٢٣٥.

وبعد وفاة زابوليا عام ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م/ أصدرَ فرديناند على مطالبه بكامل المملكة الهنغارية لذا قام بتأييد من الألمان بحصار بودا (بودين) سنة/٩٤٨هـ / ١٥٤١م/، وهذا ما جعل السلطان سليمان القانوني يتخذ قرار بضم كل المملكة الهنغارية للدولة العثمانية، فقاد جيشه صد فرديند واستطاع إلحاق الهزيمة بقواته، وبعد ذلك منح السلطان سليمان القانوني بمنح يانوش الثاني ابن زابوليا إمارة أرل (ترانسلفانيا)، وكان عصره انداك لا يتجاوز السنة^(١)، كما أعلن السلطان سليمان أن المجر أصبحت جزءاً من إيالة بودا^(٢)، وقد اصطحب السلطان سليمان معه في هذه الحملة كل من ولديه شهرزاده سليم الثاني وشهرزاده بيازيد بالإضافة إلى القاضي عسكر أبو السعود أفندي^(٣)، وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بعربند إلا أنه كان مصرّاً على التخلص من العثمانيين بشكل نهائي^(٤)، وهذا ما دفعه إلى أن يطلب من البابا إعداد حملة عسكرية جديدة ضد الدولة العثمانية وذلك سنة /٩٥٠هـ / ١٥٤٣م^(٥).

وبالفعل دارت المعركة بين الطرفين في منطقة قريبة من بودا (بودين) وأسفرت عن هزيمة فرديند وقواته مرة ثانية، في حين نجحت القوات العثمانية بالاستيلاء على هم القلاع في بودا، ومنها قلعة فاليو التي تقع على الجانب الأيمن من نهر الدانوب، فقاومت هذه القلعة بشدة المدافع العثمانية للصحمة، ولكنها استسلمت في النهاية^(٦)، ثم تابعت القوات العثمانية رحلها لتجاه قلعة استركور* وبعد قصفها بواسطة ٣١٥ مدفعاً استسلمت للعثمانيين أيضاً^(٧)، وتلّي أهمية هذه القلعة كونها كانت مركزاً دينياً للمجر، فكان يفيم فيها رئيس أساقفة المجر

^١ أورتونا، مرجع سابق، ج١، ص ٢٨٠

^٢ - لطفي باشا، تواريخ آل عثمان، ٦ أجزاء، استانبول، ١٣٤١م، ج٤، ص ٢٩٣.

^٣ - أورتونا، المرجع السابق، ج١، ص ٢٨٠

^٤ - حرب، مرجع سابق، ص ٩٥.

^٥ - مرهوك، مصدر سابق، ص ٩٢

^٦ - كله، مرجع سابق، ص ١٤٥

* استركور، تمّ قلعة مهمة جداً تبعد حوالي ٣٠ كم شمال غربي بودا، على الساحل الجنوبي لنهر الطونة

أورتونا، مرجع سابق، ج١، ص ٢٨٢

* استولني - بلغراد، تقع على مسافة ٥٠ كم من جنوب غرب مدينة يورش - أورتونا، المرجع السابق، ج١، ص ٢٨٢

^٧ - أورتونا، المرجع السابق، ج١، ص ٢٨٢

الكاثوليك، كما تم الاستيلاء على قلعة أخرى تعتبر ذات أهمية كبيرة تدعى استولني- بلغراد*^(١) بعد مقاومة دامت حوالي ١٥ يوماً، وتأتي أهمية هذه المدينة، من أنها مركزاً لنفس ملوك المجر، كما أن الميونك النير يتم تثويجهم في هذه الكاتدرائية يتم دفعهم فيها عدد وفانهم^(٢)، لذا عنت الدولة العثمانية كلاً من استراكون واستولني بلغراد مركز مهمة تابعة لإيالة بودا^(٣)، وكنيجة للهرام المتلاحقة اضطرفرديناند أن يوقع معاهدة صلح سنة/٩٥٢هـ-١٥٤٥م/، تبعها معاهدة أخرى سنة/٩٥٤هـ-١٥٤٧م/ سميت بمعاهدة استبول، تحلى بموجبها فريناند عن مطالبه بالمملكة الهنغارية^(٤).

وأهم ما جاء في هذه المعاهدة.

- ١- الاعتراف بأن قبضة العثمانيين المسيطرة على هنغارية غير قلبية للتخطيط.
- ٢- تتعهد كل من البايوية و البندقية وفرنسا بمراعاة حدود هذه المعاهدة التي ستمر لمدة سبع سنوات
- ٣- حرية التجارة بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة ولكن بشرط دفع الرسوم الجمركية، والسماح لرعايا الدولتين بتبادل الزيارات بين الجانبين^(٥).
- ٤- يدفع فرديناند جزية عن الجزء الصغير الذي بقي تحت سيطرته^(٦).
- ٥- تبقى بلاد المجر تابعة لابن رابوليا يانوش الثاني تحت رعاية الدولة العثمانية^(٧).
- ٦- يتم تسليم الشخص الهارب إلى ألمانيا، إذا كان من رعايا الدولة العثمانية في حال طالبت به الدولة العثمانية.

^١ آق كوندز، ورتورك، مرجع سابق، ص ٢٣٩

^٢ - أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٨٢

^٣ - آق كوندز، أوزتورك، المرجع السابق، ص ٢٣٩

^٤ - كوليس، مرجع سابق، ص ٨٨

^٥ - طغوش، مرجع سابق، ص ٢٠٣

^٦ - اينالجيك، مرجع سابق، ص ٦٠

^٧ - هريد بك، مصدر سابق، ص ٢٣٨

٧ لا يتم إعادة اللاجئين إلى الدولة العثمانية من الرعايا الألمان، إذا كانوا مسلمين أما إذا كانوا من المسيحيين فسنعيدهم الدولة العثمانية، إلا إذا كانوا مجرمين سياسيين عندها لن تسمح لهم بمعاذرة البلاد.

٨- يعمل الملك فريدلند بالنسبة للدولة العثمانية على أنه بمقام الصدر الأعظم .

٩- يجب أن يعترف شارل الخامس (شارلوكا) بشروط هذه المعاهدة بصفتها ملك إسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الجرمانية المقدسة.

١٠ لا يجوز أن يستخدم شارل الخامس (شارلوكا) لقب إمبراطور أثناء المراسلات الدبلوماسية مع الدولة العثمانية، إنما يعتبر فقط على أنه ملك إسبانيا^(١).

لقد عنت هذه الاتفاقية بمثابة اعتراف بقوة الدولة العثمانية وسيطرتها على مساحات شاسعة من الأراضي في أوروبا، ول كفة الميزان كانت راجحة لصالح العثمانيين باعتراف الأوروبيين أنفسهم^(٢).

وجدير بالذكر أنه رغم إقامة المواقع العسكرية العثمانية في المملكة الهنغارية إلا أنها لم تحول إلى ولايات عثمانية، وذلك لأن العثمانيين اكتفوا بالحصول على الجزية من خلال مجموعة من المظليين تمركزوا في قلاع تلك المدن الحاصصة للدولة العثمانية، وهذا أدى بدوره إلى تحول المراقبة والنهب إلى نظام حكومي^(٣)، أما بالنسبة للأغنياء الهنغاريين فقد سيطروا على مقاطعتهم واستمروا بالعمل تحت ظل الحكم العثماني^(٤)، فضلاً عن سياسة التسامح الديني التي طبقها العثمانيون في تلك البلاد ساعدت إلى حد كبير في تقوية المكنة العثمانية^(٥).

^١ أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٨٤

^٢ - طفوش، مرجع سابق، ص ٢٠٣

^٣ - كوليس، مرجع سابق، ص ٨٨.

^٤ ريفي، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٤٥.

^٥ - كوليس، المرجع السابق، ص ٨٨

ولابد من الإشارة إلى أن الدولة العثمانية في أغلب الأحيان كانت تسعى لتحقيق هدفها العسكري ولابد من التأكيد على كلمة عسكري بالتحديد، فماذا تدفع مبالغ طائلة للوصول إلى أقصى بقاع الأرض للسيطرة على تلك الأراضي، والمسؤال الذي يطرح نفسه لماذا؟

هل هو بهدف نشر الدين الإسلامي؟ بالتأكيد: لا، لأن الدولة العثمانية كانت غالباً ما تطبق سياسة التسامح الديني في كل الأراضي التي تسيطر عليها

هل هو بهدف إنهاء تمرد ما أو إصلاح شؤون البلاد؟ الإجابة هنا غير واضحة لأن الدولة العثمانية قد تنهت تمرداً ما وتقضي على العصاة ولكن دون أن تنطم أو أن تصلح شيئاً، وخير مثال على ذلك أنها وصلت بتوسعاتها إلى المملكة الهنغارية ووضعت حداً لكل المتمردين، ولكن على الصعيد الاجتماعي، فقد ترك المجتمع بكل ما يحمله من مشاكل على حاله دون أي تغيير يذكر، وهذا يعني شيئاً واحداً وهو أن الدولة العثمانية وفادتها كانوا يفقدون هذه الحملات لمسبب أولهما الانسحابية للتحدي السياسي والعسكري الذي يفرض عليهم من قبل الأطراف المتنازعة معها، أما الآخر فهو مادي ويمثل بفرض الجزية، أي لم تكن هناك أي فائدة إن صح القول من هذه الحروب التي كانت تقودها الدولة العثمانية، سوى إثبات القوة العسكرية التي تمتلكها والتي لن تستمر طويلاً.

وبالعودة إلى الأوضاع السائدة في أوروبا آنذاك، يبدو أن الدولة العثمانية وآل هابسبورغ قد أصبح لديهم مجموعة من المشاكل التي تشغلهم عن إشعال الحروب بينهم من جديد، ثم إن موت أبناء السلطان مصطفى وبيازيد، والحروب مع الفرس، كل هذا شغل السلطان سليمان عن محاولاته للسيطرة على أراضي جديدة في الدانوب، مما جعله يكتفي بتقوية حصونه^(١).

أما في أوروبا فقد تنازل شارل الخامس (شارلوكا) سنة ١٥٦٣هـ/١٥٥٦م عن العرش، واعتكف في إحدى الكنائس بعد إبرامه لصالح أوغسبرج، وفشله بالقضاء على البروتستانت في ألمانيا، كما قسم ممتلكاته بين ابنه فيليب وأخيه فرديناند الذي أصبح الإمبراطور^(٢).

^١ - كلو، مرجع سابق، ص ٢٠٨.

^٢ - برجواي، مرجع سابق، ص ١٢٢.

ومع مرور الوقت تخلى آل هابسبورغ عن أي أمل في استعادة المملكة اليعربية، لهذا اقتصر جهودهم على مجموعة من المحاولات لفصل ترانسلفانيا عن الحكم العثماني^(١)، فحاول فرديناند أن يسيطر على هذه المقاطعة سنة /٩٥٨هـ/ ١٥٥١م/ حيث استلهم من أجل تحقيق أهدافه الراهب مرتنوزي والذي تميز بمكره وطموحه، وكان مستشاراً عند الملكة إيزابيلا ووعده لنداك بتعيينه والياً على هذا لأقليم^(٢).

وبالفعل استطاع مرتنوزي إقناع الملكة إيزابيلا بالتنازل عن إقليم ترانسلفانيا ومدينة سمسار لفرديناند ولكن فرديناند كان قد تراجع عن وعده بتعيين الراهب مرتنوزي والياً^(٣)، وهذا ما دفعه إلى الاتصال بالسلطان سليمان وإعلامه بكل الأمور التي حدثت في المجر (المملكة اليعربية)، كما أسهر للسلطان سليمان على أمل أن يقوم بتحقيق مراده عن طريق الدولة العثمانية، عندها قام السلطان سليمان بتسيير الجيوش إلى المجر عام/٩٥٨هـ/ ١٥٥١م/ لإعادة الأمور إلى نصابها، ولكن الجيوش النمساوية لم تقاوم الجيوش العثمانية ففسحت تاركة الحصون والقلاع لهم، ولما علم فرديناند بخيانة الراهب مرتنوزي دس عليه من يقاتله^(٤)، ثم قام بعد ذلك بالتفاوض مع السلطان سليمان بعد موت كل من الملك الفرنسي فرانسوا الأول وشارلوكا، يتوصلوا إلى صلح براغ سنة/٩٧٠هـ/ ١٥٦٣م/ بعد مجموعة من الحروب التي كانت سجالاً بين الطرفين، فاعترف فرديناند بحصوع بلاد المجر ومولدافيا للحكم العثماني وبدفع جزية سنوية على أن يستمر هذا الصلح لمدة ثماني سنوات^(٥)، وأن يقوم بإطلاق سراح كل الأتراك الذين كانوا في قبضته دون فدية، أم فيما يخص الحدود فسيتم وضع حل نهائي لهذه المشكلة الممتعصة بشكل دائم بين الطرفين، حيث تم تعيين حكام ليقوموا بتعليم الحدود بين الطرفين^(٦).

^١ - كم أنس، مرجع سابق، ص ٨٩

^٢ - فريد بك، مصدر سابق، ص ٢٤٠-٢٤١

^٣ - طغوش، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

^٤ - فريد بك، المصدر السابق، ص ٢٤٠-٢٤١

^٥ - طغوش، المرجع السابق، ص ٢٠٥

^٦ - İSMAİL HAKKI JZUN ÇARŞILI, KAUNAK GEÇEN, s530.

إذاً يمكن التأكيد أن شارل الخامس (شارلوكا) فشل أمام الدولة العثمانية سواء كان في أوروبا الوسطى أو حتى البحر المتوسط أو شمال إفريقيا كم سيرد لاحقاً، كما شهدت سنوات حكمه انقسام أوروبا من الناحية الدينية كم هو معلوم إلى طرفين متنازعين وهما الكاثوليك والبروتستانت، والذي أثبت بدوره فشل شارل الخامس (شارلوكا) ليصعد أمام مارتن لوثر، بالإضافة إلى فشله في مواجهة أومارلة السلطان سليمان القانوني وخير الدين باربروس^(١).

والمواقع أن للصعق العثماني المتكرر على آل هابسبورغ هو الذي ساعد على تقديم الكثير من الفاتريات للبروتستانت من قبل آل هابسبورغ، وهذا أدى في النهاية إلى الاعتراف بشكل رسمي بالبروتستانتية، وجدير بالذكر أن السلطان سليمان القانوني كان قد بين للبروتستانت أنه يعتبرهم قريبيين من المسلمين، بعد تخليهم عن الأوثان، ومنذ ذلك الوقت سارت حملة البروتستانت حصر الرواية لسياسة العثمانية في أوروبا، والتي هدفت من خلالها إحداث شرح في السياسة الأوروبية من خلال إضعاف وتقليص نفوذ آل هابسبورغ^(٢).

٤ - حصار جزيرة مالطة :

لقد أصبحت جزيرة مالطة التي قُدِّمها شارل الخامس (شارلوكا) لفرسان القديس يوحنا مقرأ لهم^(٣)، بعد أن طردوا من جزيرة رودس سنة/٩٢٩هـ - ١٥٢٣م/م^(٤)، إلا أن الدولة العثمانية قررت أن تخرج هؤلاء الفرسان من جزيرة مالطة، لأن هذه المنطقة كانت تمارس القرصنة على رعايا الدولة العثمانية وتتعدى عليهم، كما أنها قدمت يد العون لكل دولة أوروبية رغبت بالفصاء على الدولة العثمانية وفي مقدمة هذه الدول إسبانيا^(٥)، لذا أرادت الدولة العثمانية أن تصع حداً بهذه الجماعة، فأوكل السلطان للعائد أحمد لمصطفى باشا قيادة

^١ - أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٨٦

^٢ - بيناليك، مرجع سابق، ص ٦١

^٣ - Impero ottoman, all about turkey – burak sansa , 2010, s 2.

^٤ - Assemblée diWikimedia di italia, Guerra ottoman-asburgica ,Pistoia, 20 marzo, 2010.

^٥ - طغوش، مرجع سابق، ص ٢٠٦

الجيش، أما قائد الأسطول فكنى ببالي باشا^(١) بالتعاور مع طرغد (طرغوث) باشا الذي قرر إخراج هؤلاء الفرسان الذين سفكوا دماء المسلمين^(٢).

بالإضافة إلى ذلك أرادت الدولة العثمانية السيطرة على جزيرة مالطة، لأهميتها الجغرافية وموقعها الإستراتيجي، فهي تقع بين إقليم تونس وجنوب إيطاليا وبالتالي فإن احتلالها يعني السيطرة على البحر المتوسط^(٣).

كل حاكم جزيرة مالطة وهو لاقليت انذاك قد أدرك متيقناً بأن الدولة العثمانية ستقوم يوماً ما بهجوم على هذه الجزيرة لاحتلالها، لذلك استعد هذا الرجل مع جماعته لهذا اليوم، فقاموا بتحصينات تفوق تحصينات جزيرة رودس، وبدوا سدوداً وأنفاقاً لدرجة أنه حول هذه الجزيرة إلى عش صقر داخل الصحور، كما قد طلب من إسبانيا أن يتم نقلهم إلى جزيرة كورسيكا ولكن جاء الرد بالرفض، عندها أيقن لاقليت أنه ليس لديه حل سوى مواجهة القوات العثمانية والتصدي لها^(٤)، بعد أن صمم وصول المساعدات والتمثلة بالمؤن وعدد لا بأس به من الجنود المقاتلين من قبل إيطاليا، فضلاً عن ذلك قيام الملك فيليب الثاني ملك إسبانيا بإرسال الأموال والقمح، إضافة إلى أنه جمع حوالي ٤٠٠ رجل من جزيرة كورسيكا وأرسلهم إلى حاكم الجزيرة لاقليت^(٥).

تحرك الأسطول العثماني في عام/٩٧٣هـ/١٥٦٥م/ وقد كان مؤلفاً من حوالي ١٣٠ سفينة^(٦) وقد استغرق حصار جزيرة مالطة حوالي أربعة أشهر (فبدأ في شهر أيار وانتهى في شهر أيلول)^(٧)، وقد تولى قيادة هذا الأسطول كما ورد سابقاً كلٌّ من لفائد مصطفى باشا وبيلالي باشا الذي كان قائداً عاماً على الأساطيل، فضلاً عن مشاركة طرغوث باشا الذي عدّ

^١ بيكرومبان، مرجع سابق، ص ١٦٢

^٢ أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣١٩

^٣ - فريد بك، مصدر سابق، ص ٢٤٩

^٤ - أورتونا، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٢٠

^٥ - كيو، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

^٦ أورتونا، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٢٠

^٧ - فريد بك، المصدر السابق، ص ٢٤٩

من أشهر القادة العثمانيين آنذاك بقولت من ولاية طرابلس العرب، وقد كان من أشهر القادة العثمانيين آنذاك^(١).

ولما وصل الاسطول العثماني إلى مالطة أمر مصطفى باشا بإرسال ٢٠٠٠٠ رجل في الجهة الجنوبية الشرقية للجزيرة، وكان قراره هذا مخالفاً لرغبة بيالي باشا الذي طلب منه انتظار وصول طرغوت باشا، تمكنت هذه الفرقة من السيطرة على القسم الأكبر من الجزيرة باستثناء حصن سانت ألم الذي عدّ حصناً مبيعاً وقوياً، بالإضافة إلى أنه كونه يحمي حصني (سانت ايج وسن ميشال)^(٢)، ولكن تأخر وصول طرغوت باشا أسفر عن الوقوع بأخطاء تكتيكية^(٣)، وعلى الرغم من الصربات الموجهة التي تلقتها هذه الحصون من قبل المدافع العثمانية إلا أنها بقيت صامدة في وجه العثمانيين^(٤)، ويبدو أنه قتل أعداداً كبيرة من هؤلاء المدافعين، على يد القوات العثمانية التي كانت ببورها قد استهلكت ثلاثة أسابيع في قصف هذه الحصون، إلا أن حامية الجزيرة تلقت مساعدات جاءت في الوقت المناسب^(٥)، في تلك الأثناء مات طرغوت الذي أصيب بشظية في رأسه^(٦)، وهذا ما جعل مصطفى باشا يصرّ على فرض سيطرته على حصن سانت ألم فقام بشر هجوم كبير على الحصنين سانت ايج وسن ميشال بعد وصوله إمدادات من حاكم تونس، ولكن كل هذا الهجوم كان دون جدوى لأن هذه الحصون لم تمتسلم على الرغم من المعارك الموية التي دارت بين الطرفين، وذهب صحتها الآلاف القتلى من كلا الطرفين^(٧)، لينتهي هذا الحصار في عام/٩٧٣هـ/١٥٦٦م^(٨).

- سرهك، مصدر سابق، ص ١٠٧

^١ - كلو، مرجع سابق، ص ٢٠٦

^٢ - أورتناء، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٢١

^٣ - سرهك، المصدر السابق، ص ١٠٧

^٤ - كلو، المرجع السابق، ص ٢٠٦

^٥ - اوغلي، مرجع سابق، ص ٣٥٩

^٦ - كلو، المرجع السابق، ص ٢٠٧

^٨ - هريد بك، مصدر سابق، ص ٢٤٩

قدّم العثمانيون خلالها ثمانية آلاف جندي بين جريح وقتيل وأسير، ولم يبق عند كاف من الجنود للاستمرار في القتل، بالإضافة إلى نفاذ المزن لديهم، وقرب وصول فصل الشتاء القاسي، هذا ما أسفر بدوره عن فك الحصار وانسحاب القوات العثمانية^(١).

وبالتالي فإن وقع الهزيمة كبيراً على السلطان سليمان القانوني، خاصة أنها كانت أول هزيمة بحرية تتعرض لها الدولة العثمانية، لكن هذه الهزيمة لم تمنع السلطان سليمان من أن يبين أن التهديد العثماني لا يزال قائماً في البحر المتوسط^(٢).

وبالتالي فإن هزيمة مالمطة كن سببها بالدرجة الأولى هو ضعف التنسيق، وهذا ما أكد عليه الكاتب إبراهيم بك حليم، الذي قل: "من سوء تكبير حركاتهم عادوا بلا ثمرة"^(٣).

٥ - السيطرة على سيجستوار:

إن وفاة فرديناند شفيق شارل الحامس (شارلكان)^(٤) أعادت العلاقات من جديد، لأنه بنه ماكسميليان طالب بترانسلفانيا بحجة أنه من واجبه محاربة أعداء للمسيحيين، خاصة أنه كان يعلم أن السلطان سليمان مريض وأصبح مسناً^(٥)، وهذا ما يؤكد عيسلين دي بوسيك المبعوث الفرنسي بعد عامين من موت شهرزاده مصطفى أي سنة/٩٦٢هـ/١٥٥٥م/،

فكتب: "إن صحة السلطان بالسبب لأسفه جيدة، وربما تعود المطاهر الخارجية غير المطمئنة إلى مرض حي لا نعرف عنه شيئاً، ولكن هناك إشاعة معدها أنه قد أصيب بداء المعاصل، وربما كان هذا ما يحاول أن يحفيه عن مبعوثي الدول الأجنبية، لأنه يظن أنها ربما حشيته أكثر إذا ما كانت صحته جيدة"^(٦).

^١ أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٢٢.

^٢ كلو، مرجع سابق، ص ٢٠٨.

^٣ حليم، مصدر سابق، ص ٩٥.

^٤ كلو، المرجع السابق، ص ٢٨.

^٥ كوليس، مرجع سابق، ص ٨٩.

^٦ دي بوسيك، وثيقة منشورة في 'الجارية روكسلانة تزوج السلطان سليمان العاتق'. مؤنس، مرجع سابق، ص ٥٠.

ليصبح بذلك الصراع على المجر في تلك المرحلة محور التنافس بين كل من الصدر الأعظم محمد صوقلي باشا وماكسيميليان بن فريباندا^(١)، الذي كان يطمح به بفصل المساعدات التي سيتلقاها من ألمانيا والبابا والملك فيليب الثاني قد يتمكن من إلحاق الهزيمة بالدولة العثمانية، لذا قاد ماكسيميليان جيوشه وهاجم العثمانيين على طول الحدود، ولكن الرد العثماني جاء سريعاً إذ استطاع مصطفى صوقلي (ابن أخ الصدر الأعظم) من السيطرة على عدة مدن في كرواتيا واسترجع ما أخذ على يد ماكسيميليان، ثم قام السلطان سليمان بإرسال قوات إلى ترانسلفانيا، وقرر أن يتجه بنفسه إلى المجر لاستئناف الحرب، فقاد الجيش بنفسه الذي كان مكوناً من ٣٠٠٠٠٠ جندي و وعدد كبير من المدافع^(٢).

وفي السنوات الأخيرة من حكم السلطان سليمان لم يقود أي معركة وهذا معيب عند العرب عامة والعثمانيين خاصة لأنه بنظرهم غازي ابن غاز^(٣)، لذا قرر السلطان سليمان أن يقود الجيوش إلى المجر، ربما لأنه فصل أن يموت بين الجنود في ساحة للمعركة على أن يموت في قصره، خاصة بعد أن فقد لأم عيبيه معظم أفراد عائلته (أولاده مصطفى وجهان كيروبيريد وروجه ووكسلته)^(٤)، بالإضافة إلى ذلك أراد أن يحو هزيمة مالطة التي تعرض تعرض لها الجيش العثماني، بالتصالح سريع ضد ماكسيميليان وجبرده^(٥).

فما كان منه إلا أن غادر استنبول عام/٩٧٣هـ / ١٥٦٦م/ وقد أصبح شيخاً كبيراً^(٦)، لم يعد قادراً على ركوب حصانه، وبالرغم من ذلك قطع مسافة طويلة حوالي تسع وأربعين يوماً وهي للمسافة بين بلعراء والبوسغور، راكباً عربته وكثت للطرق مليئة بالحمر، فكان الصدر الأعظم محمد صوقلي باشا الذي سبقه بيوم بأمر بإصلاحها قبل وصول السلطان، خاصة أن السلطان كان يعاني من داء الفرس ويتألم بشدة منه، هذا وكانت قد أحرقت الانقلابات

١- مانتو ان، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٣٠.

٢- ككو، مرجع سابق، ص ٢١٠.

٣- أورتنو، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٥٢.

٤- مؤنس، مرجع سابق، ص ٦٠.

٥- مطفوش، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

٦- أورتنو، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٥٣.

الجوية مسير القوات العثمانية لفترة من الزمن، وأحيراً اجتازت القوات العثمانية الداثوب^(١)، ووصلوا إلى صحراء زملن مقابل مدينة بلعراء فاستقبله ابن زليوفا أسطفن وأحسن استقباله^(٢)، ثم طلب من السلطان سليمان أن يسحه الأراضي الواقعة بين ترانسلفانيا ونيس* ولبي السلطان طلبه لأنه كان يحبه، ثم توجه السلطان سليمان إلى قلعة سيجيتور^(٣)، بعد أن علم أن أمير سيجستوار الكونت نيقولا زريني قد تغلب على إحدى فرقته العسكرية وقتل بعض اغوات الباب العالي^(٤)، وفي طريقه إلى سيجستوار أراد السلطان سليمان أن يتفقد جنوده وصار يتجول بينهم وهو يعطي أوامره، وكأنه كان يريد أن يلقي نظرة أحيرة على جنوده^(٥)، ثم ذهب بعدها إلى محدعه ومن فراشه كان يتابع وقائع المعركة^(٦)، وبعد مرور شهر تقريباً سقطت كل الاستحكامات الخراجية وبقي البرج الرئيسي محاصراً بيد القوات العثمانية^(٧)، عندها قرر زريني أن يقاتل بنفسه وأن يموت ميتة الأبطال، فهاجم العثمانيين مع مئة جندي وكانت النتيجة أن جرح فأسر ثم قطع رأسه، ثم وضع في قهوة إحدى المدافع العثمانية، وبعد فترة قصيرة دمرت المدفعية العثمانية الثقيلة للقلعة، وقتل جميع الجنود الذين كانوا فيها، كل هذه الأمور حصلت دون أن يعلم بها السلطان سليمان القانوني لأنه كان قد مات في فراشه بمحدعه إثر سكتة نماغية وذلك في ١٩٧٤هـ/٥٦٦م/، ولم يكن بجانبه سوى طبيبه الحاضر والصدر الأعظم محمد صوقلي باشا^(٨).

لقد كانت وفاة السلطان سليمان القانوني بسبب داء النقرس وقد أوصى بالحكم من بعده لابنه سليم الثاني، وقد نجح الصدر الأعظم محمد صوقلي باشا بإحفاء حبر وفاة السلطان

^١- İSMAIL HAKKI UZUN ÇARŞILI , KAUNAK GEÇEN, S.418.

^٢ - هريد بك، مصدر سابق، ص ٢٠٥.

* نيس بلدة تقع بالقرب من الحدود البلغارية. هريد بك، المصدر السابق، ص ٢١٧.

^٣ أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٥٢

^٤ سرهنگ، مصدر سابق، ص ١٠٨

^٥ أورتونا، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٥٣

^٦ كلو، مرجع سابق، ص ٢٢٣

^٧ سرهنگ، المصدر السابق، ص ١٠٨

^٨ - كلو، المرجع السابق، ص ٢٢٣

سليمان الفاتوني عن الجيش الذي كان منتصراً^(١)، لأنه كان يعلم أنه في حال وصول خبر وفاته إلى الجيش قبل إنهاء المهمة لتوقفت العمليات العسكرية، ولعجز الفداء على أن يحافظوا على النظام، بالإضافة إلى ذلك إلى الإنكشارية ستطالب بالمنحة التي يتقاضونها عند تسلم كل سلطان جديد للحكم^(٢).

عندها أرسل الصدر الأعظم صوقللي محمد باشا إلى سليم الثاني بن السلطان سليمان، الذي كان حاكماً في كوناية طالباً منه الذهاب إلى الاستسنة لتسلم الحكم، وتم ذلك بهدوء دون حدوث اضطرابات أو قلاقل^(٣).

وهنا لابد من التنويه إلى نقطة مهمة، وهي أن بعض المراجع الأوروبية نظرت إلى النصر الذي حققه السلطان سليمان العظيم (أغلب الكتب الأوروبية تذكره باسم العظيم)، في معركته الأخيرة كان نصراً جزئياً وليس كلياً كما تنظر إليه أغلب المراجع العربية والعثمانية، وكان ذلك بسبب طلب الصدر الأعظم الصلح من الإمبراطور ماكسيمليان وذلك عقب وفاة السلطان سليمان الفاتوني، وربما كان طلب الصلح لتفادي القلاقل التي من الممكن أن تحدث بين صفوف الإنكشارية في حال انتشار خبر وفاة السلطان سليمان، فضلاً عن إشغال الصدر الأعظم محمد صوقللي باشا بمن سيتولى كرسي الإمبراطورية العثمانية، أي يمكن القول إن النصر كان حليف العثمانيين في بادئ الأمر، لولا وفاة السلطان سليمان وطلب الصلح من قبل الصدر الأعظم، الذي جاء نتيجة الظروف الطارئة التي أدت إلى تغيير مجريات الأحداث آنذاك، إذ لم تكن هناك نتيجة حاسمة لهذه المعركة.

^١ - مؤنس، مرجع سابق، ص ٦٠

^٢ - مرهوك، مصدر سابق، ص ١٠٨

^٣ - هريد بك، مصدر سابق، ص ٢٥١

٦- صراعه مع البرتغاليين

أ- تصدي السلطان سليمان للخطر البرتغالي:

بعد أن نجح الرحالة فسكو دي غلما بلوصول إلى الهند عام/٩٠٣هـ/١٤٩٨م/ أقام البرتغاليون قواعد بهم فيها، ومنذ ذلك الوقت حاول البرتغاليون أن يوطدوا أقدامهم في الشرق^(١)، لأنهم أدركوا أن استمرار السيطرة على التجارة الشرقية ومع العرب من يقل هذه التجارة عبر المشرق العربي ومصر إلى أوروبا، لن يتم إلا بالاستيلاء على منافذ الطريقين العالميين عبر الشرق الأدنى إلى أوروبا^(٢)، وقد نجحوا في تحقيق ذلك فاحتلوا قواعد عند مدخل البحر الأحمر والخليج العربي ليسيطروا على المنافذ العربية الجنوبية لتجارة الشرق، ثم احتلت القوات البرتغالية أيضاً جزيرة سوقطرة في خليج عدن، وسيطروا على مصيق هرمز والواقع عند مدخل الخليج^(٣)، وقاموا باحتكار تجارة الشرق وتحويلها إلى طريق رأس الرجاء الصالح^(٤)، وهذا ما أدى إلى نكسة اقتصادية بالنسبة للعرب الذين فقدوا مصدراً مهماً من مصادر رزقهم، بالإضافة إلى قيام السفن البرتغالية بهجومها الدائم على السفن العربية ومحاربة أعراقها أو إحراقها أو حتى الاستيلاء عليها^(٥)، كل هذا سبب حسائر فادحة للسلطنة المملوكية

١ - اسماعيل صد ياعى، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامى الحديث، مكتبة العبيكان، ط٧، ١٩٩٨م،

ص٧١

٢ - عبد العزيز نوار، تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٨م،

ص٧٢.

٣ - باعى، المرجع السابق، ص٧١

٤ - حرب، مرجع سابق، ص١٠٠

٥ - باعى، المرجع السابق، ص٧١

التي كانت تعني من الصعف لدرجة أنها لم تعد قادرة على مواجهة التصدي للخطر البرتغالي وأسطوله القوي^(١)، وبعد سيطرة الدولة العثمانية على المشرق العربي تولت مهمة التصدي والمواجهة*.

كانت الفترة الأولى من حكم السلطان سليمان القانوني مليئة بالأحداث، إذ كان عليه مواجهة الإمبراطورية الرومانية المقدسة والدوليات الموجودة في البلقان، بالإضافة إلى ذلك الثورات التي ترعها المماليك في مصر وبلاد الشام، فضلاً عن ذلك مواجهة الفرس الذين سيطروا على العراق^(٢).

كانت هذه الأسباب هي التي جعلت السلطان سليمان لا يقوم بأي إجراء جذي ضد الوجود البرتغالي في السواحل الإسلامية الجنوبية، إلى أن تم تولية سليمان الحادم للمرة الثانية حاكماً على مصر/٩٤٢هـ / ١٥٣٦م/٣.

ظهرت مجموعة من الأسباب التي دفعت السلطان سليمان القانوني للإسراع في التصدي للخطر البرتغالي، ولعل أبرز هذه الأسباب:

١- لقد أصبحت القوة البرتغالية الأكثر خطورة بالنسبة لباقي القوى الأوروبية الأخرى، لأنها كانت تتدبر بشكل دائم باسم الدين في حملاتها المتكررة ضد البلدان الإسلامية وخاصة

* وكانت البداية مع السلطان سليم الذي كان مدركاً للخطر البرتغالي من جهة الجنوب، حيث كان المحطض العدواني الأوروبي واضحاً أمامه سواء كان في المحيط الهندي أو في البحر المتوسط، فقد كان فرسان القديس يوحنا يهجمون باستمرار دميطة وبيروت وطرابلس، في الوقت الذي تلقى فيه لأسطول البرتغالي الرعب على السواحل الجنوبية، لذلك فكر السلطان سليم أنه من واجبه أن يقوم بحماية الأراضي الحجازية المعطسة من هجومهم المتكرر على تلك الأراضي، كما أنه أراد أن يعيد التجارة الشرقية إلى مصر، بعدت الهجمات البحرية العثمانية ضد الأساطيل البرتغالية، والتي جاءت بعد الانتصارات التي شهدتها الدولة العثمانية في المشرق العربي ولكن يبدو أن السلطان سليم لم يقدّر بحصوات كبيرة ضد البرتغاليين، ربما لأنه خرج من معركتين كبيرتين ضد فارس عام/٩٢٠هـ / ١٥١٤م/ وصد المماليك في عس/٩٢٢-٩٢٣هـ / ١٥١٦-١٥١٧م/ وبعد هذه المعارك عاد السلطان سليم إلى مقر حكمه ليموت سنة/٩٢٦هـ / ١٥٢٠م/، وكان يستعد آنذاك لقتال فرسان القديس يوحنا. هواز، مرجع سابق، ص ١٢٠-١٢٢

^١ - حويري، مرجع سابق، ص ٢١١

^٢ - هواز، مرجع سابق، ص ٧٦

^٣ - هواز، المرجع لسبق، ص ١٢١.

العربية، لأنها كانت ترفع شعار الصليب والمسيح كدريعة للتوغل والقضاء على العرب والإسلام.

٢_ ازدياد خطر الأساطيل البرتغالية بعد احتراقهم للبحر الأحمر وتهديدهم للأماكن المقدسة في الحجاز ومحاولتهم احتلال جدة متحدين بذلك الدولة العثمانية.

٣_ إمكانية تحالف الصفويين مع البرتغاليين وهذا ما أطلق السلطان سليمان القانوني.

٤_ احتمال تحالف البرتغاليين مع الأبحاش الذين كانوا يرغبون بالقيام بحرب صليبية في البحر الأحمر^(١).

٥_ بعد نجاح العثمانيين في السيطرة على العراق وطرد الصفويين عام/٩٤١هـ/ ١٥٣٤م/ وإعلان حاكم البصرة راشد بن معلمس تبعيته للعثمانيين متطلياً عن البرتغاليين، توسعت دائرة الصراع مع البرتغاليين لتشمل البحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي^(٢).

٦_ استنجد مسلمي الهند وحكامها بالدولة العثمانية نتيجة تأزم الوضع في الهند^(٣)، بسبب الخطرين المولوي والبرتغالي اللذين كان يشكلان تهديداً كبيراً صدهما، وبالمقابل رأت الدولة العثمانية أنها بالنصاء على البرتغاليين قد تتمكن من استعادة السيطرة على تجارة الشرق العنيفة، وتتولى زعامة العالم الإسلامي^(٤).

لذلك أصدر السلطان سليمان القانوني أمراًه إلى والي مصر سليمان باشا ببناء أسطول يكون قادراً على التصدي للأسطول للبرتغالي، وبالفعل تم إنجاز هذا الأسطول سنة/٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م/، وكان مكوناً من ٧٠ سفينة وزودت بالمدافع الصالحة وقد اصطحب معه ٢٠٠٠ جندي^(٥)، وسيكون هذا إيداناً ببداية الصراع العثماني البرتغالي^(٦).

١- نجاح محمد، تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث، دمشق، مطبعة المحبة، ٢٠٠٣م، ص ٧٠ ٧١

٢- نوار، مرجع سابق، ص ٧٦

٣- أصناف، مصدر سابق، ص ٦٤

٤- محمد، مرجع سابق، ص ٧٠-٧١

٥- هريد بك، مصدر سابق، ص ٢٣٩

٦- ونيع أبو ريتون، مرجع سابق، ص ٩٥

وقد أقطع الأسطول العثماني المؤلف من ثمانين سفينة باتجاه عدن، وعند وصوله قام قائد الأسطول سليمان الحادم بالفصاء على حاكمها عامر بن داود، فصلبه على سارية سفينته ثم قتله^(١)، بتهمة مساعدة البرتغاليين وعدم الرضوخ لطاعة السلطان سليمان^(٢).

وعين بدلاً عنه بهرام بك وهو أحد أمراء الجنود العثمانيين، ثم توجه بعد ذلك إلى سواحل الهند وأرسل سفنه في سواحل كجرات، لأنه كان راعياً بإحراج البرتغاليين من جزيرة ديو*، وفي صريفه إلى جزيرة ديو نجح سليمان باشا بالسيطرة على قلعتي (كولة وكلت)، ثم بدأ بمحاصرة جزيرة ديو براً وبحراً ولكنه وجد مقاومة كبيرة من قبل القائد البرتغالي لبطوان الذي دافع عنها باستماتة^(٣)، عندئذ أدرك سليمان باشا أنه من الصعب اقتحام هذه الجزيرة خاصة أن الدخيرة قاربت على الانتهاء، فما كان منه سوى أن طلب المساعدة من ملك الكجرات* محمود لإمداده بالدخيرة اللازمة، ولكن الملك محمود خاف أن يصيبه ما أصاب أمير عدن، لذلك رفض تقديم المساعدة بل ذهب إلى أبعد من ذلك، عندما تحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين فادعى أنه وصلته رسالة معادها أن هناك أسطولاً برتغالياً مكون من ٣٠٠ سفينة على وشك الوصول إلى جزيرة ديو، وقد عرض هذه الرسالة على باشا عثماني ليقعه بضرورة الانسحاب، على ما يبدو أن محمود شاء لم يكن يعنيه أن يسيطر البرتغاليون على المحيط الهندي، ثم كان راعياً فقط بالحفاظ على مصالحه، وهي ضمان السيطرة والتحكم بشؤون بلاده الداخلية^(٤)، فما كان من سليمان باشا سوى أن أصدر أوامره برفع الحصار والانسحاب والعودة إلى السويس^(٥).

^١ - سر هنك، المصدر السابق، ص ٩٨

^٢ - أورتنوا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٢٧

* جزيرة ديو، تبعد جزيرة نير عن شمال جزيرة بومباي بمسافة ٢٥٠ كم. أورتنوا، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٢٧

^٣ - سر هنك، المصدر السابق، ص ٩٨

* الكجرات، وهي المنطقة الكائنة على شاطئ بحر الهند شمال مدينة بمبي وعاصمتها احمد اباد هريد بك، مصدر سابق، ص ٢٣٩.

^٤ - أورتنوا، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٢٩

^٥ - سر هنك، المصدر السابق، ص ٩٨

يتبين لنا بعد قراءة الأحداث أن فشل الدولة العثمانية في تلك المرحلة كان سببها الرئيس هو القائد سليمان باشا الذي كان عصباً بما فيه الكفاية لدرجة أنه حصر أي تحالف كان من الممكن أن يكون سنداً، كما أن أغلب الكتب التاريخية لامت إلى حد كبير سليمان باشا لأنه فشل بالسيطرة على إحدى أعين المشرق في العالم آنذاك، والتي كانت تشكل قوة اقتصادية ضخمة داعمة للدولة العثمانية.

وبالمقابل لابد من القول أيضاً إن السلطان سليمان القانوني لم يفكر يوماً بالسيطرة على هذه المناطق (جنوب شرقي آسيا) بشكل جذي، ربما لأنه لم يكن مدركاً مدى أهميتها رغباها بالثروات، التي كانت من الممكن أن تجعله يتوقف عن حروبه التنافسية مع أوروبا، التي كان هدفها في أغلب الأحيان شعسياً أي كانت تحصر السلطان سليمان القانوني وتحقيق سجاده في أوروبا، والواقع أن القوات العثمانية ما كانت لتتجه إلى ما وراء البحر الأحمر إلا لرفع الظلم عن السكان، بمعنى آخر إن السلطان سليمان قدم المساعدة من منطلق أن الدولة العثمانية هي حامية المسلمين ليس إلا.

من ناحية أخرى نلاحظ أن السلطان سليمان لم ير في القوات البرتغالية خطراً حقيقياً، إن كان ربما لأنه ظن أن الأساطيل البرتغالية هدفها تجاري بالدرجة الأولى في تحركاتها وتوسعاتها، أي السيطرة على التوابل وغيرها من الثروات وبيعها لأوروبا، دون التفكير بخطورة هذه الخلية الاقتصادية الشائنة التي كان لنحركاتها أبعاد سياسية ودينية وفكرية في المنطقة.

وبعد فشل القائد سليمان باشا حاول أن يعوض خسارته في الهند، فتوجه نحو عدن وهناك قدم أمير بلاد الشحر ولاءه للدولة العثمانية ثم اتجه بعد ذلك نحو السهل الساحلي المطل على البحر الأحمر فسيطر على ربيد ومحا^(١)، بهدف تحويلها إلى قواعد عثمانية تقوم بالتصدي للهجمات البرتغالية مستقبلاً^(٢)، وعلى الرغم من فشل حملة سليمان باشا إلى الهند إلا أن

^١ كلو، مرجع سابق، ص ٢٢٩

^٢ - برجوازي، مرجع سابق، ص ١٢٣

وجود العثمانيين سواء أكان في المحيط الهندي أم في البحر المتوسط ولأحمر، بسبب الإزعاج للبرتغاليين إلى حد كبير، ويحد من توسعهم في المنطقة نوعاً ما^(١).

ب- الحملة البحرية الثانية اتجاه الهند:

لما سيطر سيمان باشا على مدينة عدن ارتكب خطأ كبيراً بقتله حاكمها ظلماً، مما أدى إلى ثورة عارمة قام بها الأهالي وأقارب الأمير المقتول، على الحاكم المعين من قبل الدولة العثمانية، ولم يفوا عد هذا الحد بل تعاونوا مع أعداء الدولة العثمانية وهم البرتغاليون الذين قدموا المساعدة لسكان المدينة بتسليمهم المدينة بعد أن انتزعوها من أيدي العثمانيين^(٢)، ولما علمت الدولة العثمانية بهذه التصورات قامت بإرسال أسطول مكوّن من ثلاثين سفينة^(٣) بقيادة الرئيس بيري وذلك سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م^(٤)، وقد نجح الرئيس بيري في استعادة مدينة عدن والسيطرة على مدينة مسقط بعد أن احتجز الحامية البرتغالية التي قارمت العثمانيين مدة ١٨ يوماً^(٥)، كما نجح أيضاً بالاستيلاء على جزيرة هرمز ودراحت الواقعتين عند منحل جزيرة فارس فحوبهم إلى قواعد عثمانية لكي يلجأ إليها الأسطول العثماني وقت الحاجة، ثم توجه بعد ذلك إلى بصرة بهدف الاستيلاء عليها^(٦)، ولكن بلعه هناك أن الأسطول البرتغالي قادم للتصدي له^(٧)، وكان الرئيس بيري يعلم أن أسطوله ينقصه بعض الآلات والأدوات التي لن تمكنه من الصمود في وجه الأسطول البرتغالي، وهذا ما دفعه إلى الانسحاب والعودة إلى مصر^(٨).

^١ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٣

^٢ - سرهنگ، مصدر سابق، ص ٩٩

^٣ - محمد حسن العبدروس، السياسة العثمانية اتجاه الخليج العربي، أبو ظبي، دار المتنبي للطباعة والنشر، ط ١، ص ١١

^٤ - هواز، مرجع سابق، ص ١٢٣

^٥ - لورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٣٣

^٦ - سرهنگ، المصدر السابق، ص ١٠٠

^٧ - العبدروس، المرجع السابق، ص ١١

^٨ - هواز، المرجع السابق، ص ١٢٣

عندها عين السلطان سليمان القانوني مراد بك قائداً للأسطول المصري^(١)، الذي توجه نحو البصرة وعقد وصوله إلى مصيقي هرمز جرت معركة مع البرتغاليين، وانتهت بانتصار الأسطول البرتغالي، حيث قتل الكثير من القادة العثمانيين مما جعل مراد بك يسحب إلى مدينة البصرة^(٢)، ولقد عنت هذه المعركة التي جرت في مصيقي هرمز من أكثر المعارك دموية قامت بين العثمانيين والبرتغاليين^(٣)، عندها تم تعيين العلي الشهير والبحار ريس سيد علي* قائداً للأسطول المصري وذلك سنة/٩٦١هـ/١٥٥٤م/.

قام ريس سيد علي بإعداد أسطوله البحري وعين فيه العديد من القادة والبحارة البارزين، وأقنع بأسطوله حتى وصلوا إلى مصيقي هرمز، وهناك تمت المواجهة مع الأسطول البرتغالي^(٤)، ولكن دون الوصول إلى نتيجة حاسمة لهذه المعركة على الرغم من أن الأسطول الأسطول العثماني أغرق الكثير من السفن البرتغالية، كما غرقت الكثير من السفن العثمانية، ولكن بعد هذه المعركة ساءت حال الريس سيد علي بعد أن تعرضت كثير من سفنه للتلف فاضطروا إلى إلقاء الكثير من المعدات الثقيلة لإفاد السفن من العرق^(٥)، كما دحر الكثير من قانته من عواصف البحر الهندي وهذا جعله يرسو بسفنه على سواحل كجرات في المحيط الهندي، ثم سم هذه السفن إلى ملك الكجرات محمد، وبعدها رجع ريس سيد علي مع من بقي من البحارة والقادة إلى استنبول، بعد أن صادفوا الكثير من المشكلات والأهوال في طريقهم^(٦).

^١ - أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٣٤

^٢ - سر هنك، المصدر السابق، ص ١٠٠.

^٣ - أورتونا، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٣٤

* سيد علي رئيس نقد كان سيد علي رئيس على اطلاع تام على بحر الهند وحواسها وله في ذلك مؤلف سماه "المحيط" وصف فيه بحر الهند وصفاً دقيقاً وقد تكرر على العنوت البحرية مع خير الدين بلشا الشهير

سر هنك، المصدر السابق، ص ١٠٠

^٤ - سر هنك، المصدر السابق، ص ١٠٠

^٥ - أورتونا، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٣٥.

^٦ - سر هنك، المصدر السابق، ص ١٠٠

لقد كانت حملة ميد علي ريس احر حملة يقوم بها العثمانيون ضد البرتغاليين، وسجد الأسطول العثماني فيما بعد صعوبة في الدحول إلى الخليج العربي، ولكن سيقى البحر الأحمر مفتوحاً أمام الأساطيل العثمانية لفترة طويلة من الزمن^(١).

ولكي تحافظ الدولة العثمانية على سيطرتها للبحر الأحمر منعت أي تسلل برتغالي أو أوروبي لهذا البحر من شأنه أن يهدد الدولة العثمانية بشكل عام، والأماكن المقدسة في الحجاز بشكل خاص، وبهذا نجحت الدولة العثمانية في التصدي نوعاً ما للقوات البرتغالية في البحر الأحمر^(٢)، وهذا ما أدى إلى توجيه صربة قاسية إلى البرتغاليين الذين كانوا يحفرون أرباحاً طائلة من تجارة التوابل التي كانوا يحملونها إلى أوروبا، وقد ساعدت سيطرت الدولة العثمانية على مراكز مهمة في البحر الأحمر وخليج البصرة على انتعاش تجارة البحر المتوسط، فعاد النشاط الاقتصادي في موانئ سوريا ومصر والإسكندرية^(٣).

إذاً كان للغزو العثماني لأوروبا الذي بدأ في القرن الرابع عشر واستهى في القرن السادس عشر آخر غزو تشهده أوروبا، إذ استطاع من خلاله العثمانيون أن يعصوا المسلمين عن خسارتهم في الأندلس، وسقوط غرناطة على يد الإسبان سنة/٨٩٧هـ/١٤٩٢م/.

وفي الواقع إن المقاومة الأوروبية انهارت تحت مطارق العثمانيين الذين حفوا العديد من الانتصارات، لدرجة أن الغزو العسكري قد أصبح هدفهم الرئيسي وشغلهم الشغل، وبالفعل تمكن العثمانيون من احتلال العديد من الأراضي التي خصعت لسيطرتهم فترة لا بأس بها من الزمن، ولكن الكاتب الفرنسي غومستاف لوبون كان له رأي آخر، وقد عبر عنه في كتابه (حصارة العرب) فقال:

" إن الأتراك العثمانيين قد اكتسبوا أسباب العظمة في ساحات الحرب، وقد ارتعدت فرائص أقوى ملوك أوروبا أحقاداً طويلة فرعاً من سلاطين الدولة العثمانية، الذين قاموا مقام

^١ - كيو، مرجع سابق، ص ٢٢٧

^٢ - محمد، مرجع سابق، ص ١٣.

^٣ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٣.

القياصرة، وأحلوا الهلال محل الصليب البيزنطي فوق كاتدرائية القديسة صوفيا في القسطنطينية، ولكنهم - مع هذا النجاح الذي حققوه - أثبتوا عجزهم عن إيداع حصاره^(١).

ج- حملاته على اليمن للتصدي للبرتغاليين:

بعد سقوط دولة المماليك كان طبيعياً أن تتحول ملكية الحجاز ومصر إلى الدولة العثمانية، التي وجدت نفسها في مواجهة القوى البرتغالية الصاعدة التي ظهرت ادراكاً على أنها دولة بحرية كبرى نجحت في السيطرة على المحيط الهندي^(٢)، وبدأت تتحكم بالتجارة بين الشرق والعرب، كل هذا أثار عى الدولة العثمانية لأنها المسيطرة على تجارة الشرق، وعلى فعالية الموانئ العثمانية كمراكز تجارية مهمة في الخليج العربي، من أجل ذلك وصغت الدولة العثمانية نصب عينها هدفاً محدداً وهو القضاء على النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي^(٣)، ولتحقيق هذا الهدف كان لا بد من إحكام السيطرة على اليمن*، الذي كان يتمتع بموقع إستراتيجي مهم، هذا الموقع الذي كن ينظر للدولة العثمانية فضلاً عن كونه منطقة دفاعية هامة عند الحدود الجنوبية للدولة العثمانية^(٤)، بمعنى آخر كان بمثابة منحل للعالم العربي والإسلامي من جهة الجنوب^(٥)، والذي تعرض بدوره للخطر البرتغالي الذي فرض حصاره عليه.

ولعل من أبرز الأسباب التي أدت إلى تقهق القوى البرتغالية نحو اليمن هو التفكك الذي كان يعيشه المجتمع اليمني^(٦)، إذ تميزت الفترة الواقعة بين ٩٢٤-٩٤٢هـ ١٥١٨-١٥٣٨م

^١ - باغي، مرجع سابق، ص ١٥-١٨

^٢ - برجاوي، مرجع سابق، ص ١٢٣

^٣ - طغوش، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

* اليمن، يمتد من جنوب الحجاز وسجداً شمالاً إلى خليج عدن جنوباً، ومن حدود مصر والربع الحافى شرقاً إلى البحر الحمر ومصيق باب المندب في الغرب. هاروق ضمن أياضة، الحكم لعثماني في اليمن ١٨٧٢

١٩١٨م، المكتبة العربية، ١٩٨٦، ص ٢٠

^٤ - أياضة، المرجع السابق، ص ٢٠-٢١

^٥ - طغوش، المرجع السابق، ص ٢٢٥.

^٦ - هوار، مرجع سابق، ص ٩٧

بعوصى كبيرة، نتيجة لوجود القوى المحلية المنصرعة على النفود^(١)، وعلى رأس هذه القوى الإمارة الطاهرية وعاصمتها عدن، والإمارة الريدية وتقع في الجهة الشمالية من المناطق الجبلية، وفي نجران أقصى الشمال كانت الإمارة الإسماعيلية، وبالقرب من صنعاء في حضرموت كانت هناك مسطبي آل كثير، بالإضافة إلى العديد من المناطق الأخرى التي سيطر عليها حكام محليون مثل أمراء القبائل ولصحاب الزعمات الروحية الذين استقلوا بشكل كامل مثل أشرف جبري الذين كثفوا نفوذاً ولاسيما زعيم أسرة العامود الذي اتخذ من مدينة البيضاء مركزاً له^(٢).

يدور هذه العوصى التي كانت تعيشها اليمن أثارت للريية والفلق عند الدولة العثمانية^(٣)، لأنها أدركت مدى خطورة القوى البرتغالية ليس على اليمن فحسب بل على العالم الإسلامي بأسره^(٤)، لذلك وصغت الدولة العثمانية حطتها الرامية إلى لإحصاع اليمن، وذلك لعدة أسباب منها:

أولاً: جعل كل من اليمن وعدن قواعد عثمانية لصرب القوى البرتغالية في المحيط الهندي.

ثاني: رغبته في التحكم بالبحر الأحمر.

ثالث: سعيها لتطويق الصعويين من جهة الجرب.

رابعاً: ضمان سلامة الأملك المقنسة في الحجاز.

خامساً: تحقيق طموحهم بمد نفوذهم إلى أقاصي العالم الإسلامي شرقاً^(٥)

سادساً: أرادوا أن يبرزوا المركز الذي كان يشغله المماليك في اليمن منذ عام ٩٢٠هـ / ١٥١٤م.

١- عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون ١٥١٣ - ١٩١٦م، دمشق، ط١، ١٩٧٤م، ص ٧١

٢- محمد، مرجع سابق، ص ٨٨.

٣- نوار، مرجع سابق، ص ٦٢

٤- نوار، مرجع سابق، ص ٩٧

٥- أباظة، مرجع سابق، ص ٢٠-٢١.

وفي الواقع تمكن العثمانيون من تحقيق أهدافهم ولكن على مراحل، وكانت المرحلة الأولى إبان السيطرة على مصر سنة/٩٢٣هـ- /١٥١٧م/ حين أرسل السلطان سليم لقادة المماليك أوامره بإعلان خضوعهم للدولة العثمانية، إلا أن بعضاً من هؤلاء القادة المماليك كانوا قد رفضوا الانصياع لأوامر السلطان العثماني، ونمسكوا باستقلالهم، وأعلنوا عصيانهم على الدولة العثمانية^(١). عندما نجحت الدولة العثمانية إلى طريقة أخرى على أمل أن تتمكن من إحكام السيطرة على اليمن، فأرسلت ولاية عثمانيين ليتولوا الحكم في اليمن ولكنها لم تدعم هؤلاء الولاة بأي قوة حربية، مما شجع المماليك على ملاحقة هؤلاء الولاة وطردهم من البلاد، فما كان أمام الدولة العثمانية سوى أن قامت بتعيين ولاية من المماليك أنفسهم لكي تضمن تبعية اليمن لها، غير أن هؤلاء الولاة سرعان ما أعلنوا استقلالهم ونفصلهم عن الدولة العثمانية^(٢).

كل هذه الحلول لم تجد بفعلاً مع الدولة العثمانية، التي رأت أنه لا مناص من استخدام القوة العسكرية لصم اليمن إلى ميانها، وكانت الخطوة الأولى للتنفيذ هي مع دخول المراكب^(٣) البرتغالية و لأوروبية إلى البحر الأحمر، بحجة أنها نطل على الأماكن المقدسة في الحجاز^(٤)، في تلك الأثناء تمكن إبراهيم باشا من تجديد المرسى المملوكي في السويس، كما أنشأ قاعدة بحرية أخرى في البحر الأحمر، و صمد حل عام/٩٢٦هـ- /١٥٣٠م/ كان الأسطول العثماني على أهبة الاستعداد بعد أن استعاد نشاطه وقوته إبان السيطرة على العراق^(٥).

وفي عام /٩٤٥هـ- /١٥٣٨م/ تم إرسال أول حملة بحرية مؤلفة من ثمانين سفينة بقيادة سليمان باشا الحانم^(٦) والي مصر من أجل السيطرة على تجارة الترق وللمقاومة البرتغاليين وكان قد أمره السلطان سليمان القانوني بأن يعرج على اليمن ليصلح ما هدد من حالها^(٧).

١ - ابظة ، مرجع سابق، ص ٢١

٢ - محمد، مرجع سابق، ص ٩٠

٣ - برجوي، مرجع سابق، ص ١٢٣

٤ - باغي، مرجع سابق، ص ٢٣٥

٥ - برجوي، المرجع السابق، ص ١٢٣

٦ - الجندروس، مرجع سابق، ص ١٠

٧ - رافق، العرب والعثمانيين، ص ٧٢

ويبدو أن سليمان باشا استطاع بالحيلة والعذر أن يسيطر على عدن بعد أن قتل حاكمها^(١)، وعين بدلاً عنه حاكماً يدعى بهرام^(٢)، ولكن غدره هذا عاد عليه وعلى العثمانيين بالسوء، مما أدى إلى لعدم ثقة حكام الشرق بشكل عام بالعثمانيين، وكان قد تابع سليمان باشا سيره حتى وصل إلى رييد ونجح بالسيطرة عليها، فلم يعد هناك وجود للمماليك^(٣)، وبعد أن تمكن سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٩م من توطيد الحكم العثماني في اليمن، قام بتقسيم عدد من الحكام على بعض المدن الرئيسية وقد عد ذلك بداية الحكم العثماني لليمن، وكان قائم على ولاء الأمراء المحليين، وفي عام ٩٤٧هـ/١٥٤١م أطلق العثمانيون لقب باشا على حاكم اليمن^(٤).

أما في تعز فقد وجد سليمان باشا مقاومة قوية من قبل الزيديين بقيادة الأمير شرف الدين، الذي كان مسيطراً على مساحات واسعة من اليمن، إلى أن جاء عام ٩٥٣هـ/١٥٤٧م فنجح أويس باشا* بالسيطرة على تعز ووطد العهد العثماني^(٥) في تلك المنطقة الممتدة بين سمرة ورييد، ولكن وجوده لم يستمر طويلاً، لأنه وقع ضحية غدر جنوده الذين قاموا بقتله فخلعه بالحكم ارسرباشا الذي قتل بدوره الزيديين^(٦)، ونجح بالاستيلاء على صنعاء بعد مقاومة استمرت مدة ستة أيام^(٧) وذلك سنة ٩٥٤هـ/١٥٤٨م^(٨)، والذي سيكتب له في أن يكون أول حاكم عثماني للحبشة^(٩)، ثم جاء بعده مصطفى باشا الذي عرف بالأنشار وقد استمر بالحكم

نوار، مرجع سابق، ص ٦٠

^٢ - رافق، العرب والعثمانيين، ص ٧٢

^٣ - هواز، مرجع سابق، ص ٩٨.

^٤ - رافق، العرب والعثمانيين، ص ٧٢

* أويس هو ابن السلطان سليم من جارية له وصعه بين الإنكشارية ليتربى وكانت زوجته حفصة تعلم بذلك، فحينما تولى ابنها سليمان العرش طلبت منه إبعاده فأبعده إلى اليمن وحينما سمع بقتله في اليمن صاح ومعه بعد قتل أويس أخي ابن أبي

ISMAIL HAKKI UZUN ÇARŞ LI , KAUNAK GEÇEN , s235.

^٥ - محمد، مرجع سابق، ص ٩٧

^٦ - عبد الكريم رافق، المشرق في العهد العثماني، دمشق، مطبعة المدينة، ط٧، ١٩٩٩م، ص ٥٥

^٧ - أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٣٢

^٨ - رافق، المشرق في العهد العثماني، ص ٥٥

^٩ - ككو، مرجع سابق، ص ٢٢٦

بالحكم حتى عام ٩٦٣هـ/١٥٥٦م، وتوالى إرسال الولاة العثمانيين على اليمر في السنوات التالية^(١).

ولكن يبدو أن المقاومة الريدية للدولة العثمانية لم تتوقف، مما دفع الدولة العثمانية التي كانت ترغب بتهينة الأوصاع في المنطقة إلى عقد صلح مؤقت بين الطرفين، وتم ذلك سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م^(٢)، ويبدو أن العثمانيين كانوا قد فشلوا في تحويل هذا الصلح إلى صلح دائم، فعاد القتال في وقت كانت فيه الدولة العثمانية تواجه حرباً مرهقة على الجبهة العراقية، وأرمات في شمال إفريقيا والأناضول وفي الشام^(٣).

وبذلك سجدت الدولة العثمانية بالسيطرة على اليمر^(٤)، التي ستبقى حاصعة لها بصعوبة حتى عام ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م/ وفيه سيفصل القسم الشمالي منه عن الدولة العثمانية^(٥).

إذا كانت أبرز الأسباب التي دععت الدولة العثمانية إلى السيطرة على اليمر هو حشيتها أن تحصص للقوات البرتالية، فتحولها إلى قاعدة تلجأ بها، وبالتالي تعيق تقدمها نحو الشرق^(٦) الشرق^(٧).

لتحقيق هدفها الرئيسي بإنشاء إمبراطورية مترامية الأطراف من جهة أخرى.

وبالمقابل لا بد من الإشارة إلى أنه لم يكن لدى الدولة العثمانية خطة واضحة أو منظمة تستطيع من خلالها أن تسحر هذه القوى المحلية ضد القوى الأوروبية، في وقت كانت هذه القوى المحلية غير مدركة لقيمة للصحية بمصالحها الخاصة في سبيل مواجهة هذه الأخطار الحرجية، وبهذا نرى أن اليمر كان ولا يزال صحبة تصارع القوى المحلية حتى يومنا هذا.

^١ - رافق، العرب والعثمانيون، ص ٧٣.

^٢ - هواز، مرجع سابق، ص ٩٨.

^٣ - دوار، مرجع سابق، ص ٦٠.

^٤ - أرسلا، مصدر سابق، ص ١٦٠.

^٥ - كلو، مرجع سابق، ص ٢٢٩.

^٦ - هريد بك، مصدر سابق، ص ٢٣٩.

الفصل الرابع

١- توسع الإمبراطورية العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني:

أ- إعادة السيطرة على بلاد الشام

التصدي لعصيان جان بردي الغزالي.

ب- السيطرة على مصر

التصدي لعصيان إينال سيفي وجانم سيفي.

ج- سيطرته على رودس وطرده الفرسان منها.

د- حملاته على إيران.

١- الحملة الصفوية الأولى

السيطرة على العراق/٩٤١هـ/١٥٢٤م./

٢- الحملة الصفوية الثانية/٩٥٥هـ/١٥٤٨م./

٣- الحملة الصفوية الثالثة/٩٦٠هـ/١٥٥٣م./

٢- توسعات السلطان سليمان القانوني في الشمال الإفريقي:

أ- تصديه لحملة شارلكان على الجزائر سنة/٩٥٠هـ/١٥٤٣م./

ب- تصدي السلطان سليمان القانوني لحملة شارلكان على

تونس/٩٤١هـ/١٥٢٤م./

أعلن عصيانه على الدولة العثمانية وسلطانها الجديد وكان ذلك في ٩٢٧هـ/١٥٢١م^(١)، لأنه طر أنه بموت السلطان سليم قد يحقق أهدافه بالإستقلال عن الدولة العثمانية^(٢).

والواقع أنه من أبرز عوامل انتصار العثمانيين على المماليك خيانة المماليك أنفسهم لصالح العثمانيين، وقد كان جان بردي العزالي واحد منهم، فهو الذي فتح الطريق للجيش العثماني أثناء معركتهم مع المماليك مما أدى إلى انتصار العثمانيين عليهم^(٣)، اذ كان أدرك جان بردي العزالي أن النصر حليف العثمانيين لذلك لم ينضم مع الأمراء الذين ساندوا قانصوه العوري، ولم قتل العوري في مرج دابق تسلم الحكم السلطان الجديد طومان باي، الذي عين جان بردي لنيابة الشام، ولكن يبدو أن خلافات وقعت بين للأمراء المماليك حول اقتسام المناسب الكبرى، عندما أدرك جان بردي أنه يوجد الكثير من المنافسين المماليك الأقوياء صده، وهذا ما جعله يقف إلى جانب السلطة الأقوى وهي سلطة العثمانيين، فما كان منه سوى أن كتب عريضة إلى السلطان سليم يطلب منه العفو والأمان، وقد حصل عليه بعد أن استقبله السلطان سليم في حبيته في ٩٣٢هـ/١٥١٧م، ثم أصر السلطان سليم فرمان بتعيينه والياً على القنس (التي تشمل غزة وصعد و نابلس) ثم ألحقها بقرار آخر وهو تعيين جان بردي حاكماً لولاية الشام مدى حياته^(٤)، وبالتالي خصصت كل من بلاد الشام ومصر للحكم الذاتي الداخلي.

خاصة أنه تم تعيين العديد من القادة العساكر المماليك الذين وقفوا إلى جانب السلطان سليم سلفاً، كحكام في المنطقة ثماً لخيانتهم، ومنهم خيربك حاكماً لمصر والذي سبق جان بردي في إعلان ولائه للعثمانيين، وبذلك غد لكل منهما جهازه الإداري وقواته العسكرية الحصنة كما منحوا استقلالاً داخلياً شبه تام^(٥).

حليم ، مصدر سابق، ص ٨٧

^١ - سرهنگ، مصدر سابق، ص ٧٦

^٢ - شلبي، مرجع سابق، ص ٦٥٨

^٣ - حرب ، مرجع سابق، ص ١٦٣ - ١٦٤

^٤ - طروش، مرجع سابق، ص ٢٠٨

ومن الجدير بالذكر أن جان بردي الغرالي متقلّباً في مواقفه، وفي أغلب الأحيان ينجأ للحبابة في سبيل تحقيق طموحه، على سبيل المثال عندما شعر أن العثمانيين قد يقطنوا إلى صعف ولأته لهم، أرسل رسولا من قبله إلى الشاه سماعيل الصفوي، يعرض عليه طاعته وولائه له، شرط أن يمدّه بجيش يساعده ضد العثمانيين، وبالمقابل صمّس جان بردي حصوع الشم للدولة الصفوية^(١).

ولكن عند وفاة السلطان سليم انتهز جان بردي الغرالي وغيره من المتمردين حدثاً من السلطان سليمان القانوني هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبدو أنهم شعروا بقوتهم وغبتهم على رعاء عصرهم في المنطقة التي كانوا يحكمونها^(٢)، فما كان منهم سوى أن أعلنوا عصيتهم عليهم، لأنهم رغبوا بإحياء الدولة المملوكية من جديد^(٣).

فكتب جل بردي الغرالي إلى حايك بك والي مصر في القاهرة يخبره بأن السلطان سليم قد مات، وأن الوقت قد حان للتمرد على الدولة العثمانية وسلطانها الجديد، لإعادة إحياء الدولة المملوكية^(٤).

مع العلم أن جان بردي الغرالي كان قد بالغ قبل إعلان الثورة في إظهار ولائه للدولة العثمانية، إذ نجح بتوطيد الأمر في دمشق وحاجها، كما أنه قصى على أمير البقاع البدوي ناصر الدين بن الحنش، وقتله سنة ٩٢٤هـ/١٥١٨م/ بعد أن فشل السلطان سليم في ذلك.

وقصى الغرالي أيضاً على الكثير من الأمراء المحليين في نابلس، وقاد عدة حملات ضد بدو حوران وعجلون الذين كانوا يتعرضون لقوافل الحج الشامي، وكل هذا أسعد السلطان سليم، مما أدى إلى إرياد نفوذ الغرالي في دمشق، الذي نجح بدوره في استغلال نفوذه ومنصبه في تحقيق العديد من مآربه ومحطاته في إعادة نفوذ المماليك^(٥).

١٦٣ حرب، مرجع سابق، ص

^١ - شلي، مرجع سابق، ص ٦٥٩

^٢ - طغوش، مرجع سابق، ص ٢٠٨

^٣ - أوزتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦١

^٤ - رافع، المشرق في العهد العثماني، ص ٥٨-٥٩

وبالفعل قام والي الشام جان بردي العرالي، الذي وقف في يوم من الأيام إلى جانب السلطان سليم في معركة مرج دابق^(١)، بإرسال رسالة إلى حابر بك من أجل تنهيد هذا الانقلاب إن صح القول صد ابن السلطان سليم، وجاء الرد من قبل حابر بك يطلب منه الذهاب أولاً إلى حلب للسيطرة عليها -أي أوحى له خليل بك بأنه موافق-، وكان حابر بك قد أرسل هذه الرسالة بدوره إلى السلطان سليمان فأصبح بها زميله المملوكي الحاش جان بردي العرالي^(٢).

ولما أعلن جان بردي العرالي الثورة شرع في حصار قلعة دمشق، التي كان فيها الإنكشاريون المواليون للسلطان وتمكن من السيطرة على القلعة.

ثم أصدر قراراً بمنع ذكر اسم السلطان سليمان في خطبة المساجد كما أعلن نفسه في المسجد الأموي كحاكم مستقل^(٣)، وخطب باسمه في الجامع الأموي، وصرب النقود باسمه، واتخذ لنفسه لقب الملك الأشرف^(٤)، وبمحاربة منه لجمع المؤيدين أعلد جان بردي العرالي البقاع لآل حش، كما التف من حوله بقايا المماليك الذين وجدوا أن الفرصة مناسبة للوقوف إلى جانب هد القائد المملوكي وإبراز قوتهم، وقام العرالي أيضاً بمنع ارتداء الملابس العثمانية وفرض على السكان ارتداء الملابس المملوكية، وأمر بإيقاف بناء تكية وجامع كان قد أمر السلطان سليمان ببدءها عند قبر محي الدين ابن العربي، ثم استكمل جان بردي العرالي مخططاته وذلك بمد سيطرته خارج دمشق فعين ولاية من قبله على حمص وحماة وطرطوس، ثم توجه إلى حلب لإخضاعها بعد أن أعلن نفسه سلطاناً للبلاد^(٥).

ولكنه تراجع بسبب قنوم القوات العثمانية، التي كانت مكونة من جيشين أحدهما بقيادة فرهاد باشا والآخر بقيادة ديفادر أوغلو علي بك الذي كان الأسرع في الوصول إلى قلعه حلب فتمكن من تفريق قوات جان بردي الذي اضطر بدوره إلى الانسحاب إلى دمشق، عندها

^١ - أرسل، مصدر سابق، ص ١٥١

^٢ - أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦١

^٣ - رافق، المشرق في العهد العثماني، ص ٥١

^٤ - شلبي، مرجع سابق، ص ٦٥٩

^٥ - رافق، المشرق في العهد العثماني، ص ٥٩

اتحت قوت فرهاد باشا مع علي بك واتجها إلى دمشق لتي اتحدت جاز بردي مواقعه خارجها ، وفي سنة /٩٢٧هـ / ٥٢١م / هُزم جاز بردي العرالي في معركة جرت شرق برزة*^(١) في منطقة تدعى سمور^(٢)، فقبض على جاز بردي العرالي وقطع رأسه وعين بدلاً عنه إيس باشا والي الأناضول الذي صار فيما بعد صسراً أعظم^(٣).

وبذلك يكون جاز بردي العرالي حاكم الشام(سوريا وفلسطين) قد فشل في أن يعلن نفسه سلطاناً للبلاد أو ملكاً أشرف أو حتى أن يعلن نفسه عاملاً، وبالمقابل أثبت السلطان سليمان القانوني قدرته على فرض قوة واحترام سلطته على جميع البلاد الحاصصة له^(٤).

٢ -التصدي لعصيان إينال سيفي وجانم سيفي:

اعتمد بعض المماليك وفاة السلطان سليم للقيام بثورة على حلفه السلطان سليمان^(٥)، على الرغم من افتقار هؤلاء المماليك لوجود قيادة قوية قادرة على مواجهة هذا الحاكم الشاب الجديد، إلى أن جاء عام/٩٢٨هـ/١٥٢٢م/ فقام كل من إينال جنم السيفي وجانم السيفي، بثورة ضد الدولة العثمانية وحكمها السلطان سليمان، وجدير بالذكر أن هذين للمموكين قد انتقما من مشيخ بدو آل مرعي في منطقة البحيرة، بسبب تسليمهم السلطان طومان باي للعثمانيين، الذين قاموا بقتله، وكان التأثير قد أعطا لهما أن يرصخا لأوامر السلطان سليمان الصعير السن، وأنهم لن يترك الحكم للعثمانيين، وبالفعل تمركز كل من جانم وإينال السيفي في منطقة استراتيجية مكنتهما من السيطرة على الطريق الرئيسية التي تربط بين كل من

^١ - حرب، مرجع سابق، ص ١٦٥

* برزة قرية تقع شمالي مدينة دمشق، في آخر جيب قسيون من جهة الشرق، تبعد ٧ كم عن دمشق. ابن أجا، مصر سابق، ص ٣٠٩

^٢ ابن أجا، مصدر سابق، ص ٣٠٩

^٣ أورتود، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦١

^٤ مانكران، مرجع سابق، ج ١، ص ٢١٦.

^٥ - كلو، مرجع سابق، ص ٤٩

مصر وبلاد الشام، كما أنهما تحكما بالمؤر وطرق المواصلات بين الصعيد والقاهرة، ولكن هذا الحال لم يستمر طويلاً إذ تمكن العثمانيون من البصش بهذين التأثيرين^(١).

ويمكن القول إن الدولة العثمانية بقيادة السلطان سليمان تمكنت من القضاء على الكثير من الثورات، التي قادها المماليك، فظل هؤلاء التأثيرون أنهم قادرون على النيل من هذا السلطان الشاب، أوحى من تلك الدولة الفتية التي كانت في طور النمو السريع والمتصاعد.

٣- سيطرته على رودس وطرد الفرسان منها:

عدت جزيرة رودس التي تقع في الجزء الشرقي من البحر المتوسط، جزيرة مشاكسة، فقد كانت معقل فرسان القديس يوحنا*، بسبب وجود فرسان القديس يوحنا فيها، ومنذ أيام الحروب الصليبية شكلت خطراً يهدد المسلمين بشكل عام والدولة العثمانية بشكل خاص، فكان فرسان القديس يوحنا يقطعون طريق الحجاج المسلمين إلى الحجاز، فضلاً عن قطع خطوط المواصلات البحرية العثمانية، كما أنهم كانوا يعبرون على سواحل بلاد الشام واسبيا الصغرى ويقومون بسلب ونهب السفن التجارية الإسلامية^(٢)، وكانوا يصربون السفن التي تسير في شرق البحر المتوسط بين سورية ومصر ولأفصول^(٣)، لذا حاول السلطان محمد الفاتح سابقاً أن يحتلها ثلاث مرات ولم ينجح بذلك، ليعلى بعدها السلطان سليمان القانوني أن احتلال جزيرة رودس هي مهمة سلطانية، خاصة أنه كان على علم بالمحاولات السابقة للسيطرة على هذه الجزيرة التي ميّت بالفشل زمن السلطان محمد

١- رافق، العرب والعثمانيون، ص ٨٥

* فرسان القديس يوحنا، منظمه حيريه أنشئت في حوران لمساعدة المرضى والجرحى، وعندما قدم الصليبيون إلى القدس انتقلوا معهم، وهناك تحولوا إلى منظمة عسكرية، وحينما فتح صلاح الدين القدس سنة ١١٧٨م طردهم منها إلى صكا ومن صكا بدؤوا بمحاربة سفن المسلمين، فماربهم صلاح الدين وطردهم منها، فالتجؤوا إلى رودس، وفي رودس غنوا شوكة في حلق الدولة العثمانية، فطردهم سليمان القانوني منها، فأقطعهم شاركل ملك الإميراطورية الهابسبورجية مالطة مقر أروحيًا وطرابلس العرب مركز عسكريًا، وفي طرابلس الغرب ارتكبوا مجازر بحق لأهلي الدين التجؤوا إلى السلطان سليمان القانوني، فأرسل القانوني حملته سنة ١٥٥١م وطردهم من طرابلس العرب، فاستقروا في مالطة حتى مجيء نابليون بونابرت إلى مصر سنة ١٧٩٨م هضى على عش لفرصة البحرية. جوبت، مصدر سابق، ح ٥، ص ٤١٧

٢- طقوش، مرجع سابق، ص ١٨٣.

٣- مانترال، مرجع سابق، ج ١، ص ٢١٨

الفتح وحاول الاستفادة منها، عندها تيقن السلطان سليمان أن جزيرة رودس كانت محصنة بشكل محكم^(١)، وربما كانت محصنة أكثر من مدينة بعباد، وهذا ما عقّد المهمة على العثمانيين^(٢).

ولكن يبدو أن السلطان سليمان حاول الإسراع بالسيطرة على هذه الجزيرة لأن ملك أوروبا الذين يعنون أنفسهم حماية هذه الجزيرة كانوا مشغولين بعدة أمور ومشكلات داخلية تعاني منها حكوماتهم، فلم يكونوا قادرين على حملة رهبان جزيرة رودس لذلك^(٣)، كل هذه الأسباب دفعت السلطان سليمان لكي ينتهر فرصه لتفعيل الملوك ليقدم على مشروع الذي فشل السلاطين من قبله في تحقيقه^(٤).

ولما علم رئيس رهبان جزيرة رودس فيليه دي ليل نام بما يعتزم عليه السلطان سليمان أرسل سفراءه إلى الباب العالي يعلمهم بأنه مستعد لدفع جزية سنوية للدولة العثمانية، وكان هدفه من هذا التصرف هو أن يشغل السلطان سليمان عن تنفيذ هدفه بحين وصول الإمدادات والمساعدات من الدول الأوروبية، وجاء الرد بالرفض من قبل السلطان سليمان، الذي أرسل بدوره برسالة إلى رئيس الرهبان فيليه دي ليل نام يطلب منه إخلاء الجزيرة بكل من معه من المسيحيين مع تعهده بعدم التعرض لهم، ولما جاء الرد بالرفض من قبل رئيس الرهبان أعلن السلطان سليمان الحرب على هذه الجزيرة^(٥).

وفي عام/٩٢٨هـ/١٥٢٢م/أطلقت السفن البحرية العثمانية^(٦)، المكونة من ٦٦٤ سفينة كان قد أمر السلطان سليمان بتشبيدها استعداداً لهذه الحملة^(٧)، قاصدة جزيرة رودس بقيادة صهره مصطفى باشا، ولما وصل السلطان سليمان رأى بنفسه مئة القلاع التي أقامها سكان الجزيرة، وما أبدوه من شجاعة في الدفاع عن مدينتهم لذلك أمر السلطان بتشديد الحصار البري

^١ - حرب، مرجع سابق، ص ٩٨

^٢ - أورتنوا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦٢

^٣ burak sansal Impero ottoman, all about turkey, 2010, s 2.

^٤ - فريد بك، مصدر سابق، ص ٢٠٣

^٥ - سر هك، مصدر سابق، ص ٧٨

^٦ - أنصاف، مصدر سابق، ص ٦١

^٧ - بيتروسيان، مرجع سابق، ص ١٤١

والبحري^(١)، واستعمال المدافع بعيدة المدى التي كانت قادرة على تدمير هذه الأسوار^(٢)، وبالرغم من هذه الترتيبات الشديدة التي اتُخذت، استمر الحصار حوالي ثلاثة شهور متتالية^(٣)، قام من خلالها سكان رودس بالدفاع بشكل كبير عن هذه الجزيرة ووقفوا صد العثمانيين^(٤) بدأ بيد مع النساء اللواتي كن يساعدن الرجال بإلقاء الحجارة وصب الزيوت الحرة على رؤوس الجنود العثمانيين^(٥)، عندها اتضح للملطان سليمان استحالة الاستيلاء على هذه القلعة فاضطر إلى عقد مجلس عسكري تقرر فيه إعادة إقامة الجيش ومعدات القتال والحصار ولكن في مكان آخر^(٦)، وبالفعل بعد جهود كبيرة وجبارة نجح العثمانيون في السيطرة على رودس (مفتاح الشرق الأوسط)، بالإضافة إلى مجموعة من الجزر التي كانت محيطة بها، مثل جزيرة سومبكي وجزيرة اسانكوي وقد سبقها لعثمانيون بالسيطرة على اثني عشر جزيرة أخرى^(٧).

ولما شعر سكان رودس أنه من المستحيل الصمود أكثر من ذلك أمام العثمانيين، كانت الجزيرة بقيادة رئيس الرهبان على وشك الاستسلام^(٨)، لولا وصول الأساطيل الأوروبية التي جاءت لتقديم المساعدة والدعم لمكان الجزيرة، وهذا ما أدى إلى تجدد القتال بين الطرفين، فما كان من السلطان سوى أن أمر بتشديد الحصار وزيادة حدة الهجوم عليه^(٩)، عندها أدرك رئيس الرهبان مع سكانها استحالة الصمود أكثر من ذلك أمام المدافع العثمانية^(١٠)، وهذا ما دفع رئيس الرهبان هيليه دي ليل نام أن يرسل إلى السلطان سليمان يعرض عليه السماح بمعاودة الجزيرة خلال إثني عشر يوماً ولكن بشرط أن يتعهد جيوشهم مسافة ميل تقريباً لكي لا

أصناف، مصدر سابق، ص ٦١

^٢ - بيتر وسبان، مرجع سابق، ص ١٤١

^٣ - أصناف، المصدر السابق، ص ٦١.

^٤ - سرهنگ، مصدر سابق، ص ٧٨

^٥ - هريد بك، مصدر سابق، ص ٢٠٥

^٦ - بيتر وسبان، المرجع السابق، ص ١٤٢

^٧ - لورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٦٣

^٨ - سرهنگ، المصدر السابق، ص ٧٨.

^٩ - أوغلي، مرجع سابق، ص ٣٦٤

^{١٠} - سرهنگ، المصدر السابق، ص ٧٩

يتعرضوا للمسكان بأي أذى، وافق السلطان سليمان على ذلك ولكن كانت هناك فرقة من الإنكشارية قد دخلت المدينة دور علم السلطان وسباحتها فارتكب جودها كل أنواع الفبلح كعانتهم^١، وذلك نتيجة حرماتهم من العائم^(٢) وهذا ما أغضب السلطان سليمان فعاقبهم على هذا التصرف غير اللائق وأعاد الأمن للجزيرة^(٣).

أما الرهبان الذين تركوا جزيرة رودس فقد استقروا في جزيرة مالطة التي منحهم إياها الملك الإسباني شارل الخامس (شارلوكا)، حيث قاموا بتحصينها وجعلوها قاعدة لهم لمواجهة المسلمين في البحر المتوسط^(٤).

لقد أدى سقوط أقوى القلاع الأوروبية مثل (بلعراء وروس) التي عتت من أهم المراكز الإستراتيجية بالنسبة لأوروبا إلى إشاعة الخوف والإعجاب بالسلطان سليمان القانوني^(٥)، كما واعتبرت حملته إلى رودس من الحملات الهامة، فقد كانت إيداً بانتقال رمام المبادرة من أيدي الأوروبيين إلى العثمانيين^(٦).

وبما أنه تم الحديث عن نجاح الدولة العثمانية بقيادة السلطان سليمان القانوني بالسيطرة على كل من رودس وبلعراء، يلاحظ من خلال دراسة وقائع أحداث هذه المعركة وبالعودة إلى الأسباب التي أدت إلى قيام هذه التوسعات في أوروبا، أن السلطان محمد الفاتح الذي كان من مؤسسي الإمبراطورية العثمانية قد فشل في السيطرة على كل من رودس وبلعراء سابقاً، والسؤال المطروح: هل كان ذلك ضعفاً منه أو تقصيراً من جيشه، أم أن أوروبا كانت اءاك أقوى مما هي عليه زمن السلطان سليمان القانوني؟ للإجابة على هذا السؤال ربما لابد من دراسة دقيقة للظروف التي كانت قائمة نءاك، ولكن وانطلاقاً من الدراسة التي شملت الوقائع التي كانت تحيط بالسلطان سليمان القانوني وأوروبا في تلك الفترة، يقول أن أوروبا كانت تعيش نوعاً من العوصى إلى صبح القول أو حتى صياعاً ما يبين التطريبات القومية التي بدأت

^١ هريد بك، مصدر سابق، ص ٢٠٦

^٢ بيتروسيان، المرجع السابق، ص ١٤٣

^٣ هريد بك، المصدر السابق، ص ٢٠٦

^٤ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٨٩

^٥ أوزتونا، مرجع سابق، ح ١، ص ٢٦٤

^٦ -Impero ottoman, all about turkey – burak sansal 2010,s 2

بالصهور وبين الثقاليد الدبية التي كانت مهيمنة على أوروبا وسياستها آنذاك، وبالمقابل كانت الدولة العثمانية تعيش أوج قوتها العسكرية في ظل وجود سلاطين أقوياء وقادة بارزين كانوا قد وضعوا نصب أعينهم أهدافاً محددة وواضحة ومنها توسيع نطاق هذه الإمبراطورية، لذلك يستطيع أن يقول أن عدم مقدرة السلطان محمد الفتح في السيطرة على بلغراد ورودرس، ليس صعباً منه إنما كانت بسبب القوة التي كانت تمتلكها أوروبا آنذاك، وهذا بدوره ساعد السلطان سليمان القانوني في النجاح وتحقيق النصر في أغلب معاركه في أوروبا، هل يستطيع أن نسمي ذلك أنه كان صربة حظ لصالح السلطان سليمان؟ وللإجابة على ذلك السؤال نقول نعم ولكن طبعاً دور التقليل من المقدرة العسكرية والإستراتيجية التي كانت تمتلكها الدولة العثمانية في ظل قائدها السلطان سليمان القانوني.

٤- حملاته على إيران:

لقد كانت معركة جالديران/٩٢٠هـ/١٥١٤م هي الشرارة الأولى لحروب طويلة وطاحنة بين الطرفين العثماني والصوفي^(١)، وهذه الحروب استتفنت ثلاثة قرون من عمرهاتين الدولتين، نحللها للكثير من معاهدات السلام التي لم تحل المشكلة القائمة بين هاتين الدولتين ولن نحلها كما أنها لم تفرص السلام بشكل فعلي أي إنها لم تنه هذا العداء التقليدي بين هاتين الدولتين^(٢)

و الواقع أن هذه الصربة الفاسية التي تعرضت لها الدولة الصفوية الإيرانية بعد معركة جالديران كانت قد جمعت تحركاتها لمدة تسعة عشر عاماً حتى/٩٣٩هـ/١٥٣٣م/٣

لعدة أسباب منها اكتشاف رأس الرجاء الصالح، الذي شكل تهديداً حقيقياً للدور التقليدي الذي كانت تلعبه الدولة العثمانية في الوساطة بين الجنوب الآسيوي وغربي أوروبا، والتي لم تستطيع أن تحافظ عليه إلا إذا تمكنت من أن إحصاع الخليج العربي والعراق لسيطرتها الذي كانت تمر منه البضائع القادمة من آسيا الشرقية، وكل هذا دافعاً كبيراً للسلطان سليمان لكي

^١ - هواز، مرجع سابق، ص ٢٧١

^٢ - هريسي، مرجع سابق، ص ٥١

^٣ - أورنتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٣٩

يعلن حربه على الشاه الصفوي، لكن تلك الحروب التي شهدا العثمانيون على الصفويين لم تنتهي بالقضاء عليهم أو هزيمتهم، ولكنها ستمكن العثمانيين من السيطرة على ممتلكات شاسعة ستبقى تحت سيطرتهم لمدة أربعة قرون من الزمن.

استطاع السلطان سليمان القانوني أن يجد مبررات كافية لإعلانه للحرب على الصفويين، ومنها مقتل والي بغداد على يد الصفويين*، لأنه سلم مفاتيح المدينة للسلطان سليمان، بالإضافة إلى خيانة باي بثلث شريف حان لصالح الشاه الصفوي^(١).

أ- الحملة الصفوية الأولى :

السيطرة على العراق/ ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م/:

لقد كان طبعياً أن تفكر الدولة العثمانية باحتلال بغداد مركز الخلافة الأخر بعد سيطرتها على كل من بلاد الشام ومصر، فتصبح بلاد المشرق العربي كلها تحت سيطرتها، وتحول بذلك دور محاولات الصفويين للاستيلاء عليها، وجدير بالذكر أنه بعد انتصار الدولة العثمانية في جالديران، فرصت نفوذها على كل من الموصل وديار بكر وماردين وعينوا حكماً من قبلهم عليها، وهذا ما أدى إلى ازدياد النفوذ العثماني على حساب النفوذ الصفوي الذي عدا بعوده في العراق اسماً فقط^(٢)، حيث كانت البداية مع الأمير ذي القدر بن نوح سلطان موصل الذي استقل بحكم بغداد وكان ذلك سنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٩م/، وأعلن انصياعه للدولة العثمانية^(٣)، ولكنه لم يتمكن من الصمود طويلاً أمام زعماء القزلباش* الصفويين الذين

* الصفويون، هم الذين حكموا إيران من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، ينتمون إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي، وهو من أهل أذربيجان، وأم الشاه اسماعيل الصفوي بنت أرووس حسن أمير دولة قره قوينلو أي الشاه السوداء، وهو كذلك من أتراك أذربيجان، ومريد أبيه من شيوخ الطريقة الصوفية أتراك، كما اختار الشاه اسماعيل جنوده من أتراك وبعضهم بالملك، وفي عهد الصفويين كل أتراك أذربيجان يشكلون أهم عنصر عسكري في الدولة الصفوية. حسين مجيب المصري، صلات بين العرب والعراق والترك، القاهرة، الدار الثقافية للنشر، ط١، ٢٠٠١م، ص ٢٩٦.

^١ - كلو، مرجع سابق، ص ١١٦.

^٢ - نوار، مرجع سابق، ص ٦٢.

^٣ - اصناف، مصدر سابق، ص ٦٤.

جهروا حملة سنة ٩٣٦هـ/١٥٣٠م/استرجعوا من خلالها بغداد وأخضعوها لحكمهم بعد أن هرب توافقار ولجأ إلى السلطان العثماني^(١)، إلى أن جاء عام ٩٣٦هـ/١٥٣٠م/ إذ حاول الشاه طهماسب* الأول أن يفرص سيطرته على بغداد ولكنه لم ينجح في ذلك، ولما فشل السلاح في تحقيق مراده لجأ إلى الخيعة^(٢).

فاستمال الشاه طهماسب شرب خان حاكم مدينة بتليس (الواقعة على المنطقة الحدودية العثمانية الصفوية) الذي حار العثمانيين واعلن ولاءه لدولة الصفوية، نتيجة ذلك تحرك القوات الصفوية باتجاه الاراضي العثمانية سنة ٩٤٠هـ/١٥٣٣م/ واستولت على بغداد^(٣)، وبالمقابل كان الحاكم الصفوي في بغداد أولامه خان قد حار بلاده أيضاً فيما بعد وعقد إتفاقاً مع العثمانيين^(٤)، ويبدو أن هذه الفوضى التي حلت في المنطقة جعلت الحرب حتمية بين الطرفين، خاصة أن السلطان سليمان كان راعياً بحماية الدولة العثمانية من الحلف أثناء حروبها مع أوروبا، وذلك بعد سماعه بالاتفاق البرتغالي الصفوي، وما يشكله هذا التحالف من تهديد على الأماكن المقدسة، هذا بالإضافة إلى رغبة السلطان سليمان في إعادة إحياء صناعة الحرير في المنطقة بعد الكساد الذي تعرضت له هذه الصناعة نتيجة الحصار الذي فرضه عليها الحكام الذين سبقوه^(٥).

* القول بإثر، اسم أطلقه لأتراك على مجموعة من القبائل التي كانت ترتدي قممات لونها أحمر، وقد تمكن الشيخ صفي الدين الأردبيلي وأولاده من بعده أن يقوموا بجذب الكثيرين من السريين، ليس في إيران محسب بل في كل الولايات التركية من آسيا الصغرى والعراق والشلم، بتأثير دعايتهم القوية، وقد تحولت فرق الدرويش التي يترعصها الشيخ صفي الدين إلى مركز مذهبي نشر المذهب الشيعي. بتدع جمعة، أحمد الحولي، تاريخ الصفويين وحصارتهم، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٣٧-٤٢.

^١ - الصباغ، مرجع سابق، ص ١٧٩.

* الشاه طهماسب، تولى العرش خلفاً لأبيه، وكان لا يزال في العشرة من عمره، ودام حكمه حوالي نصف قرن من الزمن، توفي سنة ١٥٧٦م. نور، مرجع سابق، ص ١٩٥.

^٢ - رافق، المشرق في العهد العثماني، ص ٥٠.

^٣ - طغوش، مرجع سابق، ص ٢١.

^٤ - اينالجيك، مرجع سابق، ص ٦٢.

^٥ - هريدي، مرجع سابق، ص ٦٣.

عندئذ عقد السلطان سليمان الصلح مع النمسا^(١)، ثم أصدر أوامره بإرسال حملة بقيادة إبراهيم باشا سنة/٩٤٠هـ-١٥٣٣م/ لإعادة الأمور إلى نصابها^(٢)، ويبدو أن السلطان لم يكن راعياً بقيادة هذه الحملة خشية من الهزيمة التي كانت ستل من سمعة السلطنة العليا في حال حدوثها^(٣)، فصارف الحملة إلى قونية ومنها إلى حلب، وفي السنة التالية تابع الجيش العثماني سيره فاستولى على ديريك ثم احتلوا كل القلاع المحيطة ببغداد وإن ثم دخلوا إلى تبريز واحتلوها دون قتال، وإبان مسيرة الجيش العثماني إلى تبريز^(٤)، كان الجيش العثماني قد بدأ يتدمر، إذ إنه لم يكن معتاداً على ألا يكون السلطان قائداً للجيش، كما أن إبراهيم باشا بدوره قد منع الجيش من أعمال النهب، فبدأ الجيش عدها بطاغ بقيادة السلطان سليمان لهم، فما كان من إبراهيم باشا سوى أن أرسل إلى السلطان سليمان طالباً منه القدوم، خشية حدوث تمرد صده، وبالفعل لما علم السلطان بما حدث، وعرف أن الشاء طهماسب قاد جيشه نحو بلدة تدعى سلطانبة بالقرب من مدينة تبريز^(٥)، أعد حملة قادها بنفسه سنة/٩٤١هـ-١٥٣٤م/،^(٦) /٩٤١هـ-١٥٣٤م/، فاتجه كل من السلطان سليمان وإبراهيم باشا نحو بغداد^(٧)، وذلك بهدف السيطرة على الطريق التي تربط بغداد بالشمال والشرق، لتقطع بذلك القوات العثمانية لية مساعدة من الصفويين لبغداد، ولما أحس الأمراء الصفويون بصعف الشاء الصفوي أعلنوا انصياعهم للسلطان العثماني، ولكن يبدو أن الجيش العثماني كان قد تعرض في تلك الفترة لخسائر كبيرة في القتلى والجيش نتيجة قدوم فصل الشتاء القاسي وكثرة الفيضانات ولضعف اجتيازهم للمناطق الجبلية في شمال العراق، إلى أن وصلت الإمدادات فتمكنت عدها القوات العثمانية من متابعة مسيرتها إلى حانقين عندها أرسل حاكم بغداد الصفوي محمد حان يعلن حصوه للعثمانيين، فدخلت بذلك القوات العثمانية بقيادة السلطان سليمان الفانوسي إلى بغداد

^١ - مهدي، مرجع سابق، ص ٢٩.

^٢ - حرب، مرجع سابق، ص ٩٧.

^٣ - بيتر وسمان، مرجع سابق، ص ١٥١.

^٤ - الصباغ، مرجع سابق، ص ١٣٥.

^٥ - بيتر وسمان، المرجع السابق، ص ١٥١.

^٦ - الصباغ، المرجع السابق، ص ١٣٥.

^٧ - حرب، المرجع السابق، ص ٩٧.

وسط استقبال حاشد وحموة شعبية^(١)، فل بذلك للعراق للدولة العثمانية بعد أن حكمه الصفويون مدة خمسة وعشرين عاماً^(٢). وحصعت كل المدن العراقية للدولة العثمانية، وأصبح العراق الجنوبي عثمانياً أيضاً^(٣)، كما اعترفت السلالات المحلية في مناطق إنتاج الحرير مثل جيلان وشيراز وبسيادة الدولة العثمانية^(٤)، ولكن على الرغم من سيطرة السلطان سليمان على كركستان ومعظم العراق إلا أن الصفويين نجحوا بالحفاظ على أنريجان^(٥)، ولأن هذه العمليات العسكرية فصل السلطان سليمان البقاء لفترة وجيزة في بغداد ليظم شؤونها الداخلية، واستغرق ذلك منه حوالي أربعة أشهر^(٦)، وبذلك نجحت الدولة العثمانية بالسيطرة على إحدى أهم الطرق التجارية التي تصل أوروبا بالشرق الأقصى، بواسطة الخليج العربي وبغداد والموصل وحلب، وهذا ما أعطى مسؤولية أكبر للدولة العثمانية في حماية هذه الأراضي التي أصبحت خاضعة لتنفذها^(٧).

وجدير بالذكر أنه في الفترة التي كان فيها السلطان سليمان متواجد ببغداد، استغل الشاه طهماسب الفرصة واستعاد مدينة تبريز، وكان ذلك في عام/٩٤١هـ-١٥٣٤م/، ولكن السلطان سليمان قام بالرد السريع فاستعاد تبريز مرة أخرى، بعد أن انسحب الشاه طهماسب الذي يتن جهوراً أنه لا يرغب في الدخول بصراع مسلح مع السلطان العثماني^(٨)، وبقي فيها فترة قصيرة سنة/٩٤٢هـ-١٥٣٥م/، ثم غادرها إلى استنبول^(٩).

وبالتالي إن سيطرة الدولة العثمانية على العراق اعطاها فائدة كبيرة، وصربة موجعة لأعدائها البرتغاليين والصفويين، إذ غدا للدولة العثمانية قاعدة بحرية في البصرة استطاعت

^١ - رافق، المشرق في العهد العثماني، ص ٥١

^٢ - مهدي، مرجع سابق، ص ٣٠

^٣ - طغوش، مرجع سابق، ص ٢١٣

^٤ - إيلجيك، مرجع سابق، ص ٦٢

^٥ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٩١

^٦ - فريد بك، مصدر سابق، ص ٢٢٢

^٧ - طغوش، المرجع السابق، ص ٢١٣

^٨ - طغوش، المرجع نفسه، ص ٢١٤

^٩ - مهدي، المرجع السابق، ص ٣١

من خلالها أن تقوم بتوجيه صربات قوية ضد الأساطيل البرتغالية، كما أنه لم يعد لدى الدولة الصفوية أي مل في أن تتسلم ر عامة العالم الإسلامي، خاصة بعد حصوع العراق ومقدساتها الدينية للدولة العثمانية^(١).

ب- الحملة الصفوية الثانية/ ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م/:

بعد أن قامت لفترة بين الشاه طهماسب وأخيه القاص ميرزا* حاكم - شيروان - سنة ٩٥٤هـ / ١٥٤٧م/ ^(٢).

* التجأ أخو الشاه طهماسب المدعو للقاص ميرزا إلى السلطان مستجيراً من ظلم أخيه وتعبه على حقوقه الشرعية ^(٣).

فوجدها السلطان سليمان فرصة مناسبة لإعادة السيطرة على أذربيجان، التي كان قد استردها الشاه طهماسب سابقاً لأهميتها الاقتصادية والسياسية بالنسبة لدولته^(٤).

هذا وكانت لدى السلطان سليمان أسباب متعددة دفعته للإعلان عن حملة جديدة باتجاه إيران، ومنها استمرار عملاء الشاه الذين يطلق عليهم اسم خليفة في بث الدعاية للانضمام إلى صفوف الشاه^(٥)، بالإضافة إلى رغبة السلطان في استعادة تبريز التي تعد من المناطق

^١ - هريدي، مرجع سابق، ص ٦٥

* كان القاص ميرزا - ابن الشاه اسماعيل الأول - حاكماً على شيروان، منذ أن سيطر عليها الجيش الصفوي ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م/. ولما لم يكن القاص ميرزا على وفاق مع أخيه الشاه، أعلن استقلاله بحكومة شيروان، مما جعل الشاه طهماسب يعد حملة تأديبية ضده.

حسين مير جعفري، زينكاي القاص ميرزا صفوي (تاريخ حياة القاص ميرزا الصفوي)، مجلة بررسياهي تاريخي (مجلة دراسات تاريخية)، شماره ٥ (الرقم ٥)، تهران، سال ياردهم (السنة ١١)، ص ١٤٩.

^٢ - مهدي، مرجع سابق، ص ٣١

^٣ - سرهك، مصدر سابق، ص ١٠١.

- الصباغ، مرجع سابق، ص ١٣٩

^٥ - أورتنونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٤٣

الإستراتيجية على طريق الحرير، كما أنه أدرك مدى أهمية مدينة شيروان وموقعها الإستراتيجي، لأنها عتت من أهم المناطق المنتجة للحرير^(١).

وبالفعل قام السلطان سليمان بعقد صلح مع كل من آل هبسيورج والبلوية وجمهورية فينسيا وفرنسا، ثم جهر جيشاً وغارر استتبول بصحبة ابنه الأصغر شهرزاده جهان كير متجهاً نحو فارس ویرفقه القاص میرزا أيضاً وذلك سنة /٩٥٥هـ / ١٥٤٨م^(٢)، واتخذ المحور الشمالي لأنه الأقرب إلى أذربيجان والأكثر أهمية وبعثاً لمرور الإمدادات من البحر الأسود^(٣)، مستعلاً بذلك لقسام البيت الصفوي على نفسه، من أجل تحقيق أهدافه للرامية للسيطرة على فارس وملحقاتها^(٤)، ولما علم الشاه طهماسب بحبر الحملة أمر بإحراق كل ما يمت بالحياة بصلة في الطريق التي تستلکها القوات العثمانية، ثم غادر الشاه طهماسب عاصمته تبريز فاحتلها السلطان سليمان بعد أن سيطر على مدينة شيروان^(٥)، كما نجح القاص القاص میرزا بالقيام بعدة حملات في کرمنشاه وهمدان وقم وأصفهان وكاشان ولكن على الرغم من ذلك إلا أنه لم يتمكن من التغلب على أخيه^(٦)، وبعد عدة صدامات بين الجانبين العثماني والصفوي تحلى القاص میرزا عن الجيش العثماني^(٧)، ثم ما لبث أن قبض عليه أخوه أخوه الشاه طهماسب وقتله^(٨).

ولما عاد السلطان سليمان إلى استتبول سنة /٩٥٦هـ / ١٥٤٩م احتار الطريق الجنوبي بدلاً من الشمالي وكان لهذا الاختيار سببان:

أولاً: على الصعيد الصفوي كان الشاه الصفوي قد قام بتعبير عاصمته من تبريز إلى قرين.

الصباغ، العلاقات العثمانية الصفوية ٩٠٧-١١٤٨هـ / ١٥٠١-١٧٣٩م، ص ١٣٩

^٢ أورتوب، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٤٥

^٣ - الصباغ، المرجع السابق، ص ١٨٨

^٤ - الصباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية "الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين"، ص ١٨٠

^٥ جعفري، مرجع سابق، ص ١٥٩

^٦ أورتوب، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٤٦

^٧ مهدي، مرجع سابق، ص ٣١

^٨ - حليم، مصدر سابق، ص ٩٣

ثاني: دخول كرجستان أول مرة إلى دائرة الصراع بين الطرفين العثماني والصقوي^(١).

وهنا لابد من الإشارة إلى أن هذه الحملة التي قادها السلطان سليمان تمحّصت عنها عدة أمور تعتبر ذات أهمية ومنها أن الشاه الصقوي الذي كان يحسب له حساب انداك قام بتعبير عاصمته تبريز خوفاً من قدوم القوات العثمانية، وهذا الأمر يحدّ ذلك بيزه لئلا مدى القوة والرهبة التي كانت تحبط بالدولة العثمانية، هذه القوة جعلت منها دولة قوية مثل الدولة الصقوية تتراجع أمامها.

ج- الحملة الصقوية الثالثة/ ٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م/:

لقد كان هدف الحملة العثمانية الثالثة إلى فارس هو إيفاء العارات الصقوية التي كانت تزعزع الأمر في بغداد وفي شرق الأناضول وجنوبه الشرقي^(٢)، بعد أن أصبحت تبريز هدفاً دائماً للعثمانيين، عدها رأت الدولة الصقوية أن تبدأ بعملية عسكرية ضد الدولة العثمانية، كرد إعتبار لها من الناحية الإستراتيجية، وبالفعل قاد الشاه طهماسب قواته وانطلق نحو أرمينيا ثم إلى أرض روم^(٣)، حيث سيطرت القوات الصقوية على شيروان وجزء من أرمينيا، وهذا ما جعل السلطان يصعّ نصب عينيه هدف واحد هو استرجاع هذه الأراضي^(٤).

هنا كان منه سوى أن أسند قيادة الجيش للصنبر الأعظم رستم باشا، لأن السلطان سليمان لم يجد ضرورة للخروج في هذه الحملة، كما أن حالته الصحية حالت دون ذلك، ولكن ذلك لم يرض الجيش لأن عدم مشاركة السلطان تعدّ محالة للتعاليّد الحربية، كما أنه لم يكن لصالح الجيش من الناحية المادية، خاصة أن هذا الجيش بدأ يفقد الأمل في المطالبة بالبيشكير، ولكنه بالمقابل لم يعد يلج على أن يتولى السلطان القيادة، ولكن طالب الجود أن يتولى قيادة الجيش ولي العهد على الأقل، ولكن مشكلة ولي العهد كانت قائمة انداك، وكان الصراع بين أبناء السلطان سليمان واضحاً وخطراً على الدولة العثمانية، ولكن يبدو في النهاية أن هذه الأحداث

^١ - الصباغ، العلاقات العثمانية الصقوية ٩٠٧-١١٤٨هـ/ ١٥٠١-١٧٣٦م ص ١٨٨

^٢ - أوغلو، مرجع سابق، ج ١، ص ٤١.

^٣ - الصباغ، المرجع السابق، ص ١٨٩.

^٤ - الصباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية "الحرب والسلام بين العثمانيين والصقويين"، ص ١٨١

قد أرغمت السلطان سليمان على قيادة الحملة، بعد أن أعلن عزل رستم باشا بتهمة الخيانة وعم الولاء للدولة^(١). وبدأ السلطان حملته سنة/٩٦٠هـ/١٥٥٣م^(٢) بحتل العبد من المدن الفارسية مثل روان وبهجان، عندها وصله وفد من الشاه يطلب منه الصلح وإنهاء الحرب بين الطرفين^(٣). ولكن السلطان سليمان رفض طلب الشاه لأنه ينعارض مع أهدافه بالسيطرة على المراكز الإستراتيجية في المنطقة، وبعد أن دخل الطرفان في عدة معارك، تمكنت القوات الصفوية من أن تقوم بأسر أحد قادة العثمانيين وهو سنار باشا، عندها اقترح الصدر الأعظم محمد باشا على السلطان سليمان عقد صلح مع الشاه الصفوي، فوافق السلطان سليمان ولكنه اشترط على تلك الإفراج عن القائد سنار باشا، وعندما عرض موضوع الصلح على الشاه وافق بدوره على شروط السلطان سليمان، وأرسل رسول من قبله إلى أماسية حيث كان يعسكر السلطان سليمان، وكانت النتيجة أن اتفق الطرفان سنة /٩٦٢هـ/١٥٥٥م/ على ميلي: أولاً: أن تكون ولايات أذربيجان الشرقية ورمسيا الشرقية وكرجستان الشرقية حاصعة للنفوذ الصفوي، أما ولايات أرمينيا الغربية وكرجستان الغربية والعراق فتحصص للنفوذ العثماني، وأن تكون قارص هي الحد الفاصل بين الدولتين^(٤).

ثاني: تستلّف عمليات الاتفاق فيما يحص حدود ولاية شهررور نقادي لوقوع أي حوادث قد تعكر صفو السلام العام بين الطرفين.

ثالث: ضمان سلامة الحجاج الفارسيين الزاهبين إلى مكة وإلى الأماكن المقدسة الأخرى في العراق^(٥).

وبعد هذه الحرب الطويلة بين العثمانيين والصفويين، والتي كانت بين كر* وفر* تم التوقيع على أول إتفاقية سلام إن صح القول بين هذين الطرفين المتنازعين، مع العلم أن الدولة

^١ - بيتر وسبان، مرجع سابق، ص ١٦٠.

^٢ - لويس، مرجع سابق، ص ٥٦.

^٣ - أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٤٦-٣٤٧.

^٤ - الصباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية "الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين"، ص ١٨١.

^٥ - منوچهر بارما دوست، زمينه تاريخي اختلافات ايران وعراق (أرضية الخلاف بين إيران والعراق) تهران، ١٣٦٤هـ ش، ص ٢٦-٢٧.

العثمانية كانت في ذروة قوتها، ولكنها باتت شبه متأكدة أنه من المستحيل القضاء على الدولة الصفوية، وبالمقابل كانت الدولة الصفوية قد أصبحت على قناعة تامة أنه من غير الممكن مواجهه الدولة العثمانية القوية ادك.

والدليل على ذلك أن الشاه طهماسب كان معنياً بإبقاء العلاقات جيدة وهادئة بين الطرفين^(١)، لكن مجيء صغير البندقية فمستبيود المندي إليه قبيل وفاته يحذر من أن العثمانيين يرغبون بالسيطرة على قبرص، وهذا ما دفع البندقية في أن ترغب بالتحالف مع أعداء السلطان سليمان القانوني لكي يتمكن من أن تصع حداً لهذا السلطان وطموحاته^(٢)، لا سيما بعد أن وجدت البندقية أن كل دول أوروبا كست مشغولة بمشاكلها، ولم تلتفت إلى تداتها لطلب المساعدة، ولكن على الرغم من استجداء البندقية وإلحاحها على طلب الدعم من الشاه طهماسب^(٣) إلا أنها لم تلق أي دعم من قبله لأنه كان يعلم أنه من الصعب مواجهة الدولة العثمانية وسلطانها القوي مرة أخرى^(٤).

وعلى الرغم من اتفاقية السلام التي وقعت بين الطرفين إلا أن هذا السلام كان هشاً، بسبب وجود العديد من العوامل التي كانت سبباً في تجدد النزاعات بين الطرفين ومنها:

أولاً: الخلافات الدائمة بين رعماء العشائر في منطقة كردستان التي كانت تتمتع باستقلال ذاتي عن الدولة العثمانية، وفي كثير من الاوقات كان يلجأ أمراء هذه العشائر ورعماء قبائل البدو إلى الدولة الصفوية .

ثاني: مهاجمة قبائل البدو لقوافل الحج أو القوافل التجارية العثمانية^(٥)، على الرغم من جهود الدولة العثمانية التي كانت تسعى دائماً لحماية الحجاج الإيرانيين والعثمانيين إلا أن السيطرة

^١ - نوار، مرجع سابق، ص ١٩٩

^٢ - نوار، مرجع سابق، ص ٢٨٥

^٣ Assemblée di Wikimedia di Italia, Guerra ottoman-asburgica, Pistoia, 20 marzo, 2010.

^٤ - نوار، المرجع السابق، ص ٢٨٥

^٥ - هريدي، مرجع سابق، ص ٦٦

على العشائر البدوية العراقية كان أمراً صعباً نوعاً ما^(١).

لذا وبدلاً من أن يتم التعاون بين هاتين الدولتين المتنازعتين لحماية الأماكن المقدسة والبحار الإسلامية من الخطر البرتغالي، وصغت الدولة الصفوية نفسها في خدمة البرتغاليين لصرب الدولة العثمانية والقضاء عليها، ولكنها لم تنجح في ذلك، وبالمقابل وعلى الرغم من انتصار العثمانيين على الصفويين إلا أن هذه الحروب كانت قد استنزفت جهود وطاقات الدولة العثمانية، مما أدى إلى عرقلة أهدافها الزامية إلى مد نفوذها في أوروبا^(٢).

وحسب ما أورده الكاتب يلماز أوزتوما على أن هذه الحروب الإيرانية العثمانية التي دامت فترة طويلة من الزمن، وكانت بين صد ورد دون أي نتيجة حتمية لأحد الطرفين، كانت سبباً هاماً في تراجع التوسعات العثمانية في أوروبا، ويؤكد ذلك اتفاقيات الصلح المؤقتة التي وقعها السلطان سليمان مع أوروبا عدة مرات لكي يرجع قواته نحو إيران (فارس)، بمعنى آخر لقد استطاع السلطان سليمان أن يثبت قوته وجدارته كقائد عسكري، ولكنه بدد هذه القوة عندما وزعها بين الشرق والغرب دون أن يصل إلى نتائج حتمية من هذه المعارك.

وبالتالي يمكن القول إن مقولة "تولا الشاه، توصلت الدولة العثمانية إلى الراي" هذه المقولة الشائعة التي كانت مستقرة في أوروبا آنذاك^(٣) إنما هي شائعة ومقولة صحيحة.

^١ - هواز، مرجع سابق ص ٧٨٤.

^٢ - هريسي، المرجع السابق، ص ٦٦.

^٣ - وورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٤٨.

٥-توسعات السلطان سليمان القانوني في الشمال الإفريقي:

عند المغرب العربي بحدوده الطبيعية جزءاً هاماً من الوطن العربي، فهو ذاك الجزء المعنى بطاقاته وإمكاناته، هذا وقد عاش المغرب العربي أهم الأحداث التي شهدتها الأمة العربية^(١)، ففي الوقت الذي كان فيه للتوسع العثماني في الجناح الشرقي من الوطن العربي قد جاء نتيجة عدة حروب كبرى قامت مثل (مرج دليق ١٥١٦م-الريداية ١٥١٧م)، كان التوسع العثماني في الجناح العربي من الوطن العربي أي شمال إفريقية قد جاء نتيجة طلب العرب العون والدعم من العثمانيين للجهاد الإسلامي ضد القوى الصليبية التي كانت قواه احدة بالانتشار في شمال إفريقية، خصوصاً بعد سقوط غرناطة^(٢).

والشمال لإفريقي* هو عبارة عن ساحل طويل، يمتد من خليج سلوم حتى مملكة فاس، ويقدر طوله بـ ٣٩٠٠ كم، وهو ساحل غني بالخلجان، وقد اقتصرحت السيطرة العثمانية في البداية على المناطق الساحلية، ثم ما لبثت أن توسعت لتشمل معظم أراضي طرابلس العرب وتونس والجزائر، وقد كان الشمال الإفريقي من ليبيا(طرابلس العرب) حتى مراكز حاصراً للسيطرة الأوروبية نتيجة الصعف الذي شهدته مناطق الشمال الإفريقي وخاصة المغرب الأوسط، وكانت البداية مع الحملات الإستيطانية من قبل البرتغاليين في أواخر القرن الخامس عشر^(٣)، ثم تابع الإسبان المخطط الصليبي فاستولوا على المرسى الكبير غرب الجزائر سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م^(٤) بالإضافة إلى مدينتي مليلة والجزائر، كما احتلوا بنيس سنة ٩١٤-٩١٥هـ/ وبجاية سنة ١٥٠٨-١٥٠٩م/ وبحوا في إنشاء قاعدة بحرية قوية لهم في

^١- محمود علي عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث، الجزائر وتونس، منشورات جامعة دمشق، ط٣ ٢٠٠١م، ص ٣

^٢- نوار، مرجع سابق، ص ٦٦

* شمال إفريقية، أي أراضي طرابلس العرب وتونس والجزائر وفاس تكون بلاد الشمال الإفريقي والتي سماها العرب إفريقية ولما تم غلوا في أراضيها قسمها إلى ثلاثة أقسام

١- المغرب الأقصى ٢- المغرب الأوسط ٣- المغرب الأقصى، ولكن حدودها لم تكن واضحة آنذاك، فقد أطلقوا على فاس المغرب الأقصى والجزائر وتونس بالمغرب الأوسط وما تبقى من مناطقه يطلق عليها المغرب الأدنى. لفت، مرجع سابق، ج ١، ص ١٥

^٣ - لفت، المرجع السابق، ج ١، ص ١٤ ١٥.

^٤ - نوار، المرجع السابق، ص ٦٦

جزيرة بينون أو (رباط الحيد)^(١)، وفي سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م/ احتلوا ميناء طرابلس واستولوا على وهران والكثير من المدن الساحلية الأخرى^(٢)، بالإضافة إلى تعرض هذه الموانئ والمدن إلى حملات مدمرة، وكل هذه التحركات الأوروبية نحو شمال إفريقيا، كلفت نتيجة الأهمية الإستراتيجية لهذه المدن وبهدف دعم تجارتها، كما رأى الأوروبيون أن السيطرة على الساحل الإفريقي قد يمهّد السبيل للوصول إلى القدس^(٣).

وعلى ما يبدو أن الحملات الإسبانية والبرتغالية على شمال إفريقيا لم تكن تحمل مصامير اقتصادية فحسب^(٤)، إنما كان هدفها القضاء على المسلمين والإنتقام منهم^(٥)، وهذا ما دفع إلى إقصاء الأندلسيين إلى السكان الأصليين في سواحل المغرب، لمهاجمة الثغور الإسبانية مما عرّض التجارة الإسبانية إلى خسائر كبيرة، وكان هذا نوعاً من الانتقام من قبل الأندلسيين الذين لاقوا الكثير من الظلم على يد الإسبيل^(٦)، مما أدى إلى ازدياد حدة الصراع بين سكان المغرب والإسبان، الذين ركزوا اهتمامهم على الجزائر وتونس في حين توجه اهتمام البرتغال نحو مناطق المغرب الأقصى، وكان ذلك من نهاية القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر^(٧).

أمام هذه الظروف الصعبة التي كان يعيشها سكان شمال إفريقيا كان لا بد من أن يتطلّعوا إلى قائد بارز وقوي يستطيع أن يصع حداً للهجمات الأوروبية المدمرة^(٨).

وفي الوقت ذاته كان العثمانيون يتصلّمون إلى اتخاذ مراكز عسكرية لهم في تلك البلاد، رغبة منهم في القضاء على تلك القوى البرتغالية والإسبانية وتعدّياتهم على المسلمين^(٩).

^١ - طغوش، مرجع سابق، ص ٢١٧

^٢ - موار، مرجع سابق ص ٦٩

^٣ - طغوش، المرجع السابق، ص ٢١٨

^٤ - التز، مرجع سابق، ج ١، ص ١٧.

^٥ - فريد بك، مصدر سابق، ص ٢١٢.

^٦ - موار، مرجع سابق، ص ١٠٦.

^٧ - التز، المرجع السابق، ج ١، ص ١٧.

^٨ - موار، المرجع السابق، ص ١٠٦.

^٩ - طغوش، المرجع السابق، ص ٢١٧

ولذلك لم يكن أمام العثمانيين بعد سقوط غرناطة وإخراج المسلمين من الأندلس سوى سبيل واحد، وهو بدء الحملات العسكرية بحوض شمال إفريقيا ضد هؤلاء الصليبيين المنمرين^(١)، المنمرين^(٢)، خاصة أنهم كانوا يعتزون أنفسهم حاميين للإسلام والمسلمين^(٣)، وبالفعل تمت المواجهة مع هؤلاء الصليبيين المستعمرين^(٤)، فوقف العثمانيون جب إلى جنب مع السكان الأصليين لندفع عن أراضيهم^(٥).

أ- تصديه لحملة شارلكان على الجزائر سنة ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م:

بداية لابد من الإشارة إلى أن التحلل العثماني في شمال إفريقيا لم يكن أمراً منوطاً، ولم يحظر ببال العثمانيين أن يحفوا دولة واسعة الأرجاء، ولكن مهما كانت الأسباب فقد نجح العثمانيون في تثبيت أقدامهم بقوة على أراضي الشمال الإفريقي، ليس هذا فحسب بل دافعوا عنه بكل ما لديهم من قوة، على الرغم من كل المؤامرات التي حيكت ضدهم سواء من القوى الخارجية أو الداخلية^(٦).

وفي الواقع كان احتلال الإسبان لجزء كبير من الساحل المغربي بهدف حماية الممرات البحرية المؤدية إلى جريدة صقلية التي كثرت تعدد للخيرة التي تزودهم بالحبوب، ولإبعاد القراصنة (ويصعد بالقراصنة هنا المعاربة الذين طردوا من إسبانيا)، الذين كانوا يبحثون عن أي فرصة للاستقام من إسبان، كل هذه العوامل دفعت بسلطان الجزائر إلى طلب العون من عروج، سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م/ وذلك للتخلص من الإسبان المعتصمين في بيون*^(٧).

١- باغي، مرجع سابق، ص ٦٧.

٢- عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر وتونس)، ص ٤.

٣- الفز، مرجع سابق، ج ١ ص ١٨.

٤- عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر وتونس)، ص ٤.

٥- عامر، المرجع نفسه، ص ١٩.

* بيون، وهو عبارة عن حصن قام الإسبان ببنائه على نتوء صخري أمام مدينة الجزائر - كلو، مرجع سابق،

ص ١٣٠.

٦- كلو، مرجع سابق، ص ١٣٠.

مع العلم أن عروج وإخوته كانوا يقيمون في منطقة بنوس تدعى جالطة، منحهم إياها سلطان تونس بناء على طلب من آل باربروس*، الذين كانوا يبحثون عن مستقر لهم، وقد وفق سلطان تونس على طلبهم مقابل منحه خمس العنائم التي يحصلون عليها، وبالفعل باشر آل باربروس بنشاطاتهم فكثروا بهاجمون للسفن العابرة في البحر المتوسط، ويحصلون على ما فيها من غنائم، كل هذه الأمور أدت إلى ازدياد شهرة عروج في جميع سواحل الشمال الإفرقي^(١).

وبناء على ذلك لبي عروج طلب سلطان الجزائر، فرحف بجنوده إلى الجزائر برأ، في حين هاجم إخوته القوات الإسبانية عن طريق البحر فتمكن من استعادة جزء كبير من الجزائر دون أي صعوبة تذكر، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على بيدون^(٢).

وكان من أبرز الأسباب التي أدت إلى هزيمة الإسبان هي عدم استعدادهم لمثل هذه المواجهة القوية^(٣)، مع قائد قوي مثل عروج الذي أحد بدوره يتصرف في البلاد كحاكم لها^(٤)، لها^(٥)، فنجح بالتخلص من كل المعارضين مع الإسبان كما قام بفرص إجراءات أمنية مشددة، فساد الأمن في كل المدينة، مما أدى إلى التفاف العرب حول عروج ورجاله الذين أبدوا استعدادهم للتعاون معه بشكل دائم^(٦) وبعد أن أصبح لآل باربروس وزن دولي اذذاك، باتوا

* يعود أصلهم إلى الروماني، وكان والدهم واسمه يعقوب من فرقة الخيالة في الجيش العثماني، وكان لديه أربعة أبناء وهم على التوالي اسحق وبلية عروج وحضر ثم الياس، عمل الأولاد الأربعة بالتجارة، فاسحق عمل في جزيرة تدعى منبلي (فتحها السلطان محمد الفاتح سنة ٨٦٦هـ/١٤٥٧م)، فتر، المرجع السابق، ج ١ ص ٢. وتقع جزيرة منبلي شمال غرب الزمير وإلى الجنوب من من مضيق الدردنيل وهي اليوم ضمن بلاد اليونان وعاصمتها مينبليس حسون، مرجع سابق، ص ٦٤. وعمل عروج ولياس باسم التجارية، وكانا يذهبان إلى طرابلس الشام والإسكندرية، أما حضر فكل يذهب إلى سلاتيك لممارسه الأعمال التجارية هناك، وفي أثناء إحدى الرحلات التجارية، تعرض عروج والياس لهجوم من قبل فرسان رونس (فرسان القديس يوحنا) الذين كثروا يمارسون أعمال السلب والنهب وخاصة على السفن الإسلامية، وإزاء ما فعله هؤلاء الفرسان بعروج والياس، قطعوا على أنفسهم عهد بحاربة قطاع الطرق الصليبيين. التر، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢-٢٨

١ - نول، مرجع سابق، ص ٦٧

٢ - هواز، مرجع سابق، ص ١٠٧

٣ - التر، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٦.

٤ - كلو، مرجع سابق، ص ١٣٠

٥ - التر، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٣.

لا ينفون بنبههم في السيطرة على كامل المغرب^(١)، وبالفعل كانت البداية مع عروج الذي تمكن من الاستيلاء على تونس بعد أن قتل حاكمها المستبد الذي يدعى حامد الأسود، ثم نجح في الدخول إلى مدينة تلمسان بعد أن قتل حاكمها المتعور مع الإسبان، وفي الوقت ذاته كان الإسبان يحاولون أن يستردوا الجزائر بأي وسيلة ممكنة، فجهروا جيشاً ضخماً قوامه مئة ألف جندي وتوجهوا نحو مدينة تلمسان^(٢)، وصربوا حصاراً عنيفاً ومحكماً حول المدينة دام حوالي ستة أشهر، وعلى الرغم من المقاومة الكبيرة التي أبدتها عروج^(٣)، إلا أن النجاح كان حليف الإسبان هذه المرة، فانهزم عروج^(٤) مؤسس حكومة الجزائر^(٥)، وقتل على يد الإسبان، وكان هذا انتصاراً كبيراً بالنسبة للإسبان لدرجة أن الفرحة صمت كل الأراضي الإسبانية بهذا الإنجاز الكبير وكان ذلك سنة ٩٣٤هـ/ ١٥١٨م^(٦).

وبعد استشهاد الرئيس عروج^(٧) جرى الاتفاق على تسليم القيادة من بعده إلى أخيه الرئيس حصر^(٨) سنة ٩٣٤هـ/ ١٥١٨م/ وقد كان الرئيس خصر (كل يدعى خير الدين بابروس أي ذو اللحية الحمراء)^(٩) حريزاً جداً لمقتل أخيه^(١٠)، بالإضافة إلى أن موقفه عدا في غاية الحرج لأن استشهاد عروج نتيجة لعداء سلطان تونس الحفصي له، ووقوف الإسبان صده، وعداء بني زيدان له أيضاً في تلمسان، عدها شعر خير الدين بابروس بصعب موقفه العسكري والسياسي^(١١)، ورأى أنه أصبح بحاجة إلى دولة قوية^(١٢) تمتلك إمكانات عسكرية ومادية

١- بوار، مرجع سابق، ص ٦٧

٢- كرو، مرجع سابق، ص ١٣١

٣- عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر وتونس)، ص ٢٦.

٤- حصور، مرجع سابق، ص ٦٥

٥- عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر وتونس)، ص ٢٧.

٦- بروكلمس، مرجع سابق، ص ٤٥٣

٧- هواز، مرجع سابق، ص ١٠٧.

٨- عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٩٣

٩- فريد بك، مصدر سابق، ص ٢٣٠

١٠- التتر، مرجع سابق، ج ١، ص ٧٠

١١- طقوش، مرجع سابق، ص ٢١٩

١٢- عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر وتونس)، ص ٣٤

صحمة لكي تساعده وتقوم بحميته، وهذه الدولة كانت الدولة العثمانية الفتية والقوية التي سطع نجمها آنذاك^(١).

فما كان من خير الدين باربروس سوى أن أرسل رسالة إلى السلطان سليم سلطان الدولة العثمانية يعرض عليه حصوعه وتبعيته، وطالباً منه العون والمساعدة، وقد جاء الرد بالقبول من قبل السلطان سليم الذي أبدى استعداده باسم الدولة العثمانية لتقديم المساعدة لمسلمي المغرب العربي^(٢)، وبالفعل زودته الدولة العثمانية بالرجال والعتاد^(٣).

ومنذ ذلك الوقت بدأ تاريخ هذا الرجل ببرر كقائد كبير من قواد الدولة العثمانية في البحر المتوسط^(٤)، وأصبح لقبه خير الدين بك، وفي سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م/ توفي السلطان سليم، وخلفه ابنه سليمان في الحكم، وقد ملك السلطان سليمان طريق ولده في الحكم وذلك بالسعي في الحفاظ على الولايات التي كانت حصعة للدولة العثمانية^(٥)، أما بالنسبة لخير الدين باربروس الذي كان قد أعلن ولائه للدولة العثمانية، فقد ذهب إلى استبول وقابل السلطان سليمان القسطنطيني وذلك سنة ٩٣٩هـ/ ١٥٣٣م/، وقد منحه السلطان سليمان بدوره لقب قبودان^(٦) (أي أمير الجزائر)^(٧)، ولما عاد إلى الجزائر ولتأكيد دعمه للدولة العثمانية، صك خير الدين باربروس نقوداً باسم السلطان العثماني^(٨)، على الرغم أن خير الدين لم يكن يشعر بالاطمئنان آنذاك، إذ كان يحشى قيام تمرد أو عصيان صده^(٩)، وبالفعل تحقق ما كل يحشاه، إذ اتفق عدد من البحارة مع القبائل المجاورة لصرب العثمانيين وطردتهم من أراضيهم، فدخلوا حفية إلى مدينة الجزائر، وهم يحملون الأسلحة، واتجه قسم منهم نحو الساحل حيث كانت ترسو سفن العثمانيين، إذ كانت الحطة تقوم على أن يتم إشعال النار فيها، وعندما يرى

^١ - كلو، مرجع سابق، ص ١٣٩

^٢ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٩٣.

^٣ - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر وتونس)، ص ٣٦

^٤ - طفوش، مرجع سابق، ص ٢١٩

^٥ - التز، مرجع سابق، ج ١، ص ٧٤

^٦ - عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص ٩٣

^٧ - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر وتونس)، ص ٤٥

7-Colin Imber, The Ottoman Empire 1300-1650, new yourk, 2002, p101

^٨ - بروكلمن، مرجع سابق، ص ٤٥٣

البحارة العثمانيون أن الدين قد اشتعلت في سفهم سيتجهون لإطاعتها، عندها يقوم المتمردون بإغلاق أبواب المدينة في وجوه العثمانيين، ويقومون بعدها بقتل ما تبقى منهم داخل المدينة^(١).

المدينة^(٢).

ولكن حطتهم باءت بالفشل، بسبب وجود الجواسيس الذين عملوا لصالح خير الدين باربروس، فقلوا إليه كل المعلومة حول تلك الحطة الزامية إلى القضاء على العثمانيين، فما كان من خير الدين إلا أن ألغى القبض على هؤلاء الحوة وقتلهم، ومنذ ذلك الوقت لم يعد هناك أي بادرة للقيام بأي تمرد أو عصيان ضد العثمانيين^(٣).

وبعد تمرر قوت خير الدين في الجزائر، أدرك خير الدين أن هناك خطراً يجب مواجهته في تونس وتلمسان*، وأنه لا بد من إنهاء هذا الخطر الذي كان ممثلاً بسلطان تونس الحفصي الذي كان غاصباً من خير الدين باربروس حيث عدّه معتصماً لأراضيه، وبذوره دفعه إلى تنفيذ مخططة الزامي للسيطرة على كل الجزائر التي كانت سابقاً مرتبطة بتونس، وأن يقوم بطرد خير الدين باربروس منها^(٤).

لذلك رأى خير الدين باربروس أنه ربما بتسليم قيادة القبائل المحلية لرعاة محليين قد تؤول الأمور إلى الهدوء والاستقرار، ولذا باشر خير الدين باربروس بتسليم قيادة نصف البلاد تقريباً إلى أحمد بن القاضي، معتقداً أن هذا الشخص قد يساعده على ضبط أمور البلاد، ولكنه لم يكن يعلم أن أحمد بن قاضي كان قد اتفق مسبقاً مع سلطان تونس ومجموعة من القبائل للتحرك ضد خير الدين باربروس بعد أن دعمهم بالسلاح، ثم اتجه مع الجيش التونسي نحو الجزائر^(٥)، مما أدى إلى تمرد القبائل المجاورة لجزائر، وهذا ما أجبر خير الدين باربروس إلى أن يقوم بوصع حد لهذه القبائل المتمردة، وقد استمرت عملية ضبط هذه القبائل وإنهاء

^١ - Yavuz bahadır oğlu, KAUNAK GEÇEN, s133.

^٢ - التز، مرجع سابق، ج ١، ص ٧٠.

* تلمسان، مدينة تقع في وسط المغرب، يحدها من الشمال سهل يدعى هيا، أما من الطرف الجنوبي فتحيط بها جبال داب صحور حمراء، تشكل لها حصناً مبعاً ضد الحارة، وكانت تعد تلمسان مركز المغرب الرئيسي قبل إستيلاء الإسبان عليها. عمر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر وتونس)، ص ٢٥.

^٣ - عمر، المرجع السابق، ص ٣٧.

^٤ - التز، المرجع السابق، ج ١، ص ٨٠.

التمردات حوالي ستة أشهر، عندها تمسحب أحمد بن قاضي بعد أن عقد صلحاً مع خير الدين باربروس^(١).

وبعد انتهاء حير الدين باربروس من مهاجمة القبائل المتمردة، قرر التوجه نحو تونس ووضع حد لحكامها المتمردين^(٢)، وما إن اشتبك مع القوات التونسية حتى أعلن أحمد بن قاضي عصابته مرة أخرى على خير الدين باربروس ولقلب عليه، مما أدى إلى تعرضه لهزيمة كبيرة سواء كل بالسلاح أو بالجو، حيث وجد نفسه محاصراً من كل الجهات بالأعداء، فمن جهة توجد القبائل التي تمردت صده مرة أخرى، ومن جهة أخرى بدأت بالظهور بوانر تحالف إسباني تونسي صد العثمانيين، كما فرض حصار شديد على الجزائر^(٣)، كل هذا أدى إلى وقوع خير الدين باربروس في أزمة كبيرة.

نتيجة كل ما ذكر سابقاً وجد حير الدين باربروس نفسه قد فقد السيطرة على مدينة الجزائر، ومما زاد الطين بلة أن المؤن والعتاد بدأت تنفذ منه، لذلك قرر الانسحاب من مدينة الجزائر بعدما تنكر الأهالي له، ولكنه تخوف من أن تتحالف القبائل صده وتقوم بهجوم عليه، لذلك ادعى أنه سلم إدارة البلاد إلى رجل يدعى قره حسن، وبسرعة كبيرة دخل إلى قصره وحذ أمواله وأغراضه ووضعها بسفحه^(٤)، وقيل معارضة للبلاد أشار على الأعيان والأشراف أن يقيموا صلحاً مع حاكم تونس والحومة الذين لا عهد لهم، ثم ألقى بمفاتيح القلعة بعد أن قال لهم: (لكن أهالي الإسلام وديارهم أمانة في أعناقكم) ثم عاد حير الدين باربروس إلى جيجل التي كُنت تعاني من قحط شديد^(٥).

^١ Miriam Greenblatt, Suleyman The Magnificent and The Ottoman Empire, new York, 2003, p145.

^٢ - حسون، مرجع سابق، ص ٦٥

^٣ - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر وتونس)، ص ٣٨.

^٤ - التر، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٠.

^٥ - التر، المرجع نفسه، ج ١، ص ٨١.

مما جعله يخرج بسعه نحو السواحل الأورومية وبعد قيامه بعدة غزوات^(١)، عاد إلى جبل محملاً بالقمح والتي ورعها على الأهالي، ولكن يبدو أن خير الدين باربروس وجد نفسه قد عاد إلى وصعه القديم الذي كان عليه سنة /٩٢١هـ/ ١٥١٤م/، وهذا الوضع يتطلب منه جهداً مصاعفاً لينهض بالمدينة ويقوم بتطويره.

وبالفعل قام مباشرة بإنشاء قاعدة له في جبل، وقد أصبحت هذه القاعدة مركزاً رئيسياً لسعه، كما أنشأ داراً لصناعة السفن، وبعد أن نجح بإنشاء سفينة -اب سبعة وعشرين معصاً من نوع يدعى باشتارده*^(٢)، خرج للعبور مرة أخرى حيث نجح بالاستيلاء على عدة سفن لسلطان تونس وقام بإحراقها، ثم تابع مسيره نحو جنوة وهناك استولى على ست سفن محملة بالقمح، ثم نجح بتوسيع أسطول له فسم إليه مجموعة من قادة الأساطيل البحرية، فكون بذلك أسطولاً مكوناً من أربعين سفينة حربية، وبدأ بمهاجمة السواحل التونسية مرة أخرى، عندها شعر سلطان تونس أن الأمور بدأت تزداد سوءاً بالنسبة إليه وأنه لا بد من أن يتقاضي المواجهة مع خير الدين باربروس، فما كان منه سوى أن عرض عليه للمصالحة، ولكن الرئيس خير الدين باربروس رفض وأصر على المواجهة^(٣).

وجدير بالذكر أن خير الدين باربروس قد نجح خلال خمس سنوات أي بين عامي/٩٢٧-٩٣٢هـ/ ١٥٢٠-١٥٢٥م/ من أن يستعيد قوته القديمة، مع العلم أن الدولة العثمانية لم تقدم له أي مساعدة تذكر سواء كانت مادية أو معنوية في تلك الحين^(٤)، وربما المبرر الوحيد لعدم تقديم المساعدة من قبل الدولة العثمانية، هو انشغال السلطان سليمان القانوني في بداية حكمه بهجمات الثورات التي قامت صده، فضلاً عن انشغاله أيضاً بالحملة العسكرية التي قادها ضد أورومية سداك.

^١ - بروكلمس، مرجع سابق، ص ٤٥٤

^٢ باشتارده، وهي سفينة قوية وأكثر تسليحاً من غيرها من السفن، تحتوي على ٢٣-٢٦ مقداً مردوجة التجديف، يعمل على لمجادد الواحد من ٥-٧ أشخاص، وهي على نوعين ١- باشتارده ٢- ونصف

باشتارده Medhat Sert Oglu, KAUNAK GEÇEN, s34

^٣ - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر وتونس)، ص ٣٩

^٤ - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر وتونس)، ص ٣٩

^٥ - التر، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٢.

أما بالنسبة لمكان الجزائر فقد ازدادت أوصاعهم سوءاً بعد انسحاب خير الدين باربروس، وبدؤوا يسعون للاتصال به بعية لإتفاق معه، هذا وقد ازدادت كراهية السكان اتجاه أحمد بن قاضي، وفي الوقت ذاته كان الإسبان يلاحقون المسلمين ويقومون بطردهم من البلاد^(١)، فما كان من العثمانيين سوى أن يقدموا المساعدة لمسلمي الأندلس وذلك بنقلهم إلى مدينة الجزائر والمواهل الإفريقية الأخرى، ولكن أحمد بن قاضي رفض استقبال هؤلاء المهجرين المسلمين، مما جعل خير الدين باربروس يستغل هذه الفرصة ليعلن الحرب عليه بعد أن عدة خارج عن الدين الإسلامي، ولكن قبل أن تتم المواجهة بين الطرفين ذهب خير الدين باربروس إلى قبيلة بن العباس لكسب دعمها كما تم الاتفاق مع سلطانها، وكان ذلك سنة/٩٣١هـ/١٥٢٥م، وقد عتبت هذه الخطوة ناجحة للرئيس خير الدين باربروس، لأنها المرة الأولى التي توجه فيها إلى منطقة القبائل وحقق هذا الانتصار^(٢).

وبالفعل تمت المواجهة بين أحمد بن قاضي وخير الدين باربروس في وادي يدعى بوقدوره، وخلال ساعات قليلة هزم أحمد بن قاضي، الذي هرب بدوره إلى جبل عثشة، ثم أعلن عسكره تمردهم عليه، ثم مالبتوا أن تقتلوه، ثم أعلنوا انصياعهم للرئيس خير الدين باربروس^(٣)، وبذلك أصبحت أبواب الجزائر مفتوحة أمام الرئيس خير الدين باربروس^(٤)، حيث وصلها كبطل كبير سنة/٩٣١هـ/١٥٢٥م^(٥).

وفور دخوله حاول خير الدين باربروس أن يقوم بصبط أمور البلاد وإصلاح شؤونها، فجح بالقضاء على كل المتمردين، كما حاول أن يطهر البلاد من قطاع الطرق والعصاة، فقام بقتل حكام تونس وشرشال، وفرض سيطرته على الساحل الممتد من جيجل حتى وهران^(٦).

^١ Patrick Kinross, The Ottoman Centuries (the rise and fall of the Turkish empire), new York p 55

^٢ أنظر، مرجع سابق، ج ١ ص ٨٤

^٣ عامر، تاريخ المغرب العربي لحدث (الجزائر وتونس)، ص ٤٠

^٤ - أنسريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ت: لطيف هرج، القاهرة، دار الفكر للنشر، ط ١٩٩١، ص ٢٩

^٥ أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٥٦.

^٦ - أنظر، المرجع السابق، ج ١، ص ٨٥.

وبعد أن نجح خير الدين بإخضاع المدينة للنظام، رأى أن الوقت قد حان لطرد الإسبان من قلعة بينون والميطرة عليها، لضمان سلامة سعيه وميناء الجزائر من أي خطر^(١)، فما كان منه إلا أن أرسل سنة/٩٣٥هـ / ١٥٢٩م/ خطاباً إلى دون مارتين دي فرغس قائد قلعة بينون، يطالبه بمغادرة القلعة فوراً، ولكن قائد القلعة رفض طلبه رفضاً باتاً، فما كان من خير الدين باربروس إلا أن وجه مدافعه نحو القلعة، وقم بقصعها لمدة عشرين يوماً^(٢)، وكنيجة قوة القصف وشدة، استطاع أن يفتح ثغرة في جدار القلعة، مما سهل على قوات خير الدين باربروس دخول القلعة^(٣)، عندها لم يجد قائد القلعة دون مارتين من حل أمامه سوى أن يقاتل بنفسه خصوصاً بعد انهيار معويات جنوده^(٤)، وعلى الرغم من هذا النفاق المسميت من قبل قائد القلعة إلا أن خير الدين وجنوده تمكنوا من تدمير القلعة، وإحكام السيطرة عليها، وأسروا الإسبان الموجودين فيها^(٥).

وقد استفاد خير الدين باربروس من هؤلاء الأسرى الذين قاموا بنقل أنقاض القلعة إلى البحر، فوصلوا القلعة بالساحل، وقاموا بإنشاء رصيف لحماية الميناء من الرياح الشمالية والشمالية الغربية، ثم قاموا بتحويل القلعة إلى برج دائري الشكل، ليصبح بذلك ميناء الجزائر في غاية الجمال، ومنذ تلك الوقت تأسس أوجاق الجزائر، واستمر الأمر حتى/١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م/^(٦).

أما بالنسبة لإسبانيا فيبدو أنها لم تعترف بانضمام الجزائر للدولة العثمانية، وهذا ما أدى إلى الحرب بين الطرفين التي أخذت فيما بعد طابعاً أكثر عنفاً في البحر، حيث حاولت إسبانيا عدة مرات الاستيلاء على الجزائر، وكانت آخر محاولة جدياً لها للاستيلاء على الجزائر سنة /٩٥٨هـ / ١٥٥١م/ فأبطلت قواتها على الساحل ولكنها لم تتمكن من تحقيق هدفها^(٧)، لتكرر

^١ - أوزتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٥٦.

^٢ - Yavuz Bahadır Oglu, KAUNAK GEÇEN ,s180

^٣ عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٩٣

^٤ عامر، تاريخ المغرب العربي لحدث (الجزائر وتونس)، ص ٤١

^٥ أوزتونا، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٥٦

^٦ النكر، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٦

^٧ - طغوش، مرجع سابق، ص ٢٢

هذه اخر حملة جدية يقوم بها الإسبان بهنّف الاستيلاء على الجزائر ، ويبدو أن إسبانيا قد اضطرت بعدها أن تتقبل فكرة أنها فقدت الجزائر للأبد.

إذاً يمكن القول إن الرئيس خير الدين باربروس قد نجح في جعل الجزائر تابعة ولو اسمياً للدولة العثمانية، بعد أن طبق فيها نظاماً إدارية متنوعة بهنّف تنظيم شؤونها الداخلية، بالإضافة إلى ذلك يمكن عدّ زيارة خير الدين باربروس للسلطان سليمان القانوني/٩٣٩هـ/١٥٣٣م/ ومنحه هذا الاحير الرئيس خير الدين باربروس حكم الجزائر ، هو العام الذي تم فيه صم الجزائر إلى الدولة العثمانية^(١).

ب تصدي السلطان سليمان القانوني لحملة شارلكان على

تونس/٩٤١هـ/١٥٣٤م/:

لقد اتخذ الصراع في عربي البحر المتوسط بين الدولة العثمانية من جهة وإسبانيا من جهة أخرى، أوائل القرن السادس عشر، طابعاً حاداً، وقد تركّز بشكل أساسي في تونس وطرابلس العرب^(٢)، وفي الواقع كان انوضع في تونس يحتلف عما هو عليه في الجزائر ، على الرغم من أن أحداث تحول تونس والجزائر في ظل السيادة العثمانية كانت تتشابه نوعاً ما، إذ إن كلاً من تونس وطرابلس الغرب كانتا جزءاً من الدولة الحفصية التي كانت أحده بالإنهيار في مطلع القرن السادس عشر، إذ غدا الجيش الحفصي انذاك عاجراً عن مواجهة الأساطيل الإسبانية الإيطالية، ولم يعد قادراً على الصمود أمام القراصنة الأوروبيين الذين كانوا يسمرون بشكل دائم شواطئ المغرب الشرقية^(٣).

وحدث بعد ذلك أن اعتلى الحصر الحفصي عرش تونس في عام /٩٣٢هـ/١٥٢٦م/ بعد أن قتل إمرته، ثم استأثر بالحكم لنفسه، ولكن دون أن يكون هناك أي اهتمام بتطوير دولته أو الدهوض بها^(٤)، حينها أدرك خير الدين باربروس أن مهمة طرد الإسبان من مناطق شمال

^١ - عامر، تاريخ المغرب العربي لحدث(الجزائر وتونس)، ص ٤٤

^٢ - Patrick Kinross, OP cit, p84

^٣ - طغوش، مرجع سابق ص ٢٢٠

^٤ - كلو، مرجع سابق، ص ١٣٣

إفريقية واقعة عليه، وحلصة بعدما شعر بحياة الأسرة الحفصية التي كانت تساعد الإمبراطور شارل الخامس (شارلوكا) وتمسعى إلى طرد العثمانيين من البلاد^(١)، ولكن في الوقت ذاته كان خير الدين باربروس على يقين تام أن الدولة العثمانية لن تتمكن من تقديم الدعم الكافي له^(٢)، بسبب انشغالها بحروبها في رومس والمجر والتي استنزفت منها طاقتها وإمكاناتها^(٣)، عندها لم يجد أمامه سوى أن يلجأ إلى الذكاء حيناً وإلى مياسة القوة حيناً أخرى.

وبالمقابل ولكي لا تبقى الدولة العثمانية بمعزل عن الأحداث التي تدور في شمال إفريقيا، بادر السلطان سليم القانوني إلى توقيع إتفاقية مع قريسا ليضمن وقفها إلى جانبه في وقت كانت فيه لدول الأوربية تنافس للسيطرة على شمال إفريقيا، كما رغب السلطان سليمان في أن يقوم بتحصيف الضغط على خير الدين باربروس، الذي أصبح سداً قوياً لدولته^(٤). هذا بالإضافة إلى أنه صار على قناعة تامة من أنه لابد من السيطرة على تونس ذات الموقع الجغرافي المتميز لوقوعها في منتصف الساحل الشمالي لإفريقية، ووقوعها بين كل من طرابلس العرب والجزائر، ولعربها من إيطاليا^(٥)، ولمجاورتها جريدة مالطة معر فرسان القديس يوحنا حلفاء شارل الخامس (شارلوكا)^(٦)، ولأن مواسي تونس ستوفر له إمكانات ضخمة صحمة عن طريق التحكم بالمواصلات البحرية في البحر الأبيض المتوسط، كما ستضمن له تثبيت الأمن والاستقرار في مصر^(٧).

فما كان من خير الدين باربروس سوى أن قام بإعداد الأسطول بشكل جيد، بعد أن زوده السلطان سليمان القانوني بثمانيه الاف جندي^(٨)، ثم توجه للسيطرة على تونس وطرد الإسبان

^١ - انتر، مرجع سابق، ج ١، ص ١٠٩

^٢ - عامر، تاريخ المغرب الحديث (الجزائر وتونس)، ص ٢٤

^٣ burak sansal, Impero ottoman, all about turkey, 2010, s 2

^٤ - انتر، المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٩

^٥ - طغوش، مرجع سابق، ص ٢٢١

^٦ burak sansal, -Impero ottoman, all about turkey, 2010, s 2

^٧ - انتر، المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٩

^٨ - انتر، المرجع نفسه، ج ١، ص ١١٠

منها، وذلك سنة ٩٤١هـ/١٥٣٤م^(١)، وجدير بالذكر أنه في العام ذاته كان السلطان سليمان القانوني يعبر الأناضول للهجوم على الدولة الصفوية^(٢).

أما بالنسبة لخير الدين باربروس فقد تمكن من السيطرة انذاك على المناطق الشرقية والجنوبية في تونس، كما نجح بالاستيلاء على أربع وعشرين سفينة إسبانية^(٣)، ثم استطاع أن يدخل مدينة تونس دون مقاومة^(٤)، بعدما تمسحب السلطان الحفصي إلى الجنوب أي إلى الصحراء وطلب المساعدة من الإسبان، خاصة بعد أن سمع أن احاء رشيداً قام لاستلام الحكم بدلاً عنه^(٥)، ولكن عندما علم سكان تونس أن الرشيد لن يأتي ونهم سيخضعون للحكم العثماني، تخوفوا كثيراً لأنهم اعتادوا على حكم الحفصيين* ويبدو أنهم فصلوا حكم الأسرة الحفصية على الدولة العثمانية، لذلك أرسلوا إلى حاكم تونس الحفصي مولاي حسن طالبيين منه اللجوء إلى إحدى القبائل، ووعدهم بأنهم سيقومون بمساعدته للعودة إلى سدة الحكم^(٦)، وهذا ما شجع مولاي حسن بدوره للتوجه نحو تونس ومهاجمتها، ولكن بعد قتال قصير ذهب صحبته حوالي ثلاثمائة من جنوده، فتمسحب مولاي حسن نحو القيروان وهناك استطاع أن يجمع عند لا بأس به من الرجال الذين وقفوا إلى جانبه وارتدوا^(٧).

وما أن علم خير الدين باربروس بذلك حتى توجه إلى القيروان لملاقته، فتمت هذه المواجهة العسكرية في الصحراء، وما إن انطلقت بيري مدافع خير الدين باربروس حتى هرب

موار، مرجع سابق ص ٦٨

^١ الصباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية 'الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين، ص ١٣٥

^٢ أورتوب، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٩١

الصباغ، مصدر سابق، ص ٦٤

^٤ أورتوب، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩١.

* الحفصيون، أولهم أبو محمد بن عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص ولي إمارة تونس في ١٠/أشوال ٦٠٣هـ/ وتوفي سنة ٦١٨هـ خلفه ابنه ركريا يحيى، وفي سنة ٦٤٧هـ تسلم الحكم أبو عبد الله محمد ولقب بالنصر روعي بأمير المؤمنين واستمرت هذه العائلة مملكة على إقليم تونس إلى أن دخلها العثمانيون. هريد بك، مصدر سابق، ص ٢٣٢

^٦ عامر، تاريخ المغرب الحديث (الجزائر وتونس) ص ٤٣

^٧ التر، مرجع سابق، ج ١، ص ١١٣

مولاي حسن مرة أخرى، ولكنه لجأ هذه المرة إلى الإسبان^(١)، إلا أن إسبانيا آنذاك لم تعر أهمية كبيرة لاستيلاء العثمانيين على مناطق متعددة من تونس، إلا أن الوضع كان مختلف فيما يخص مدينة تونس نفسها، فقد كانت لها أهمية كبيرة بالنسبة إليها، كون أنها كانت تواجه جبهة صقلية^(٢).

أما بالنسبة للسلطان سليمان القانوني الذي كان بحوص غمار الحرب مع الصفويين، فقد كانت تصله كل أخبار وإنجازات الرئيس حير الدين باربروس^(٣)، في الوقت الذي كان فيه البابا يحارل أن يستغل فرصة فتشعال السلطان سليمان بحروبه الخارجية^(٤)، وذلك لتحريض الإمبراطور شارل الخامس (شارلوكا) لاغتنام تلك الفرصة الذهبية من أجل إعادة السيطرة على تونس والجزائر، موضحاً له أن وجود العثمانيين في الجزائر سيؤثر على نشاطهم الاقتصادي والسياسي، كما يبين له أن دخول العثمانيين إلى تونس يشكل صبراً كبيراً بالمسيحيين عامة وإسبانيا خاصة، عندها نبى الإمبراطور شارل الخامس (شارلوكا) مهمة الدفاع عن السلطان الحفصي باعتباره السلطان الشرعي للبلاد، صد الدولة العثمانية المعصية ببطره^(٥)، لينقل بذلك العداء الذي كان بين الإسبان والجزائريين في الشمال الإفريقي^(٦) إلى السلطان سليمان القانوني والإمبراطور شارل الخامس (شارلوكا)^(٧)، كل هذه التهديدات دفعت بالإمبراطور شارل الخامس (شارلوكا) في أن يقوم بنفسه بالإعداد للحمة، خاصة أنه تلقى مساعدات من ملك البرتغال ومن إيصالي^(٨)، ومن فرسان القديس يوحنا، وبالفعل استطاع شارل الخامس (شارلوكا) الحمص (شارلوكا) أن يقوم بإعداد جيش وأسطول ضخم، بحسب له ألف حساب^(٩).

^١ - عامر، تاريخ المغرب الحديث (الجزائر وتونس)، ص ٤٣

^٢ - أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٩١

^٣ - هريد بك، مصدر سابق، ص ٢٢٢

^٤ - Yavuz Bahadır Oğlu, KAUNAK GEÇEN, s130

^٥ - أورتونا، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩٢

^٦ - أتر، مرجع سابق، ج ١، ص ١١٣

^٧ - Yavuz Bahadır Oğlu, KAUNAK GEÇEN, s132.

^٨ - كلو، مرجع سابق، ص ١٣٤

^٩ - أتر، المرجع السابق، ج ١، ص ١١٤

وقرر أن يفود هذا الجيش بنفسه^(١)، كما عين أندريا دوريا القائد الإسباني البحري الشهير والدوق ألب كمساعدين له في تلك الحملة^(٢)، وفي سنة ٩٤١هـ/١٥٣٥م/ تطلق الأسطول من مدينة برشلونة* ورما بالقرب من حلق الواد*^(٣)، وقد كن اللو* سنان رئيس يقوم بحماية بحماية قلعة حلق الواد، أما خير الدين باربروس فكان متواجداً في مدينة تونس ومعه حوالي اثني عشر ألف جندي^(٤).

وأثناء وجوده في تونس قام بترميم أسوار القلعة وأقام التحصينات الضرورية استعداداً لمثل هذا اليوم^(٥)، وبالفعل جرى القتال بدلية في حلق الواد^(٦)، والتي تعرضت لعصف شديد من قبل المدافع البحرية التابعة للأسطول أندريا دوريا فكانت النتيجة سقوط حلق الواد بيد الإسبان^(٧)، وهذا ما عرض خير الدين باربروس إلى خطر كبير، عندئذ أمر الإمبراطور شارل الخامس (شارلكان) بالزحف نحو مدينة تونس التي عمت فيها الفوضى والرعب الشديد، على الرغم من محاولاته خير الدين باربروس من صبط الأمور، إلا أنه لم يتمكن من ذلك^(٨)، فما كان منه سوى الانسحاب أمام تقدم القوات الإسبانية، وذلك لعدم التكافؤ بين الطرفين سواء كان بعدد الجنود أو من حيث الأسلحة^(٩)، وإبان دخول الإسبان لتونس^(١٠)،

أرسلا، مصدر سابق، ص ١٥٦

^٢ عامر، تاريخ المغرب العربي لحدث (الجزائر - تونس)، ص ١٤٢.

*برشلونة، تقع في الشمال الشرقي لشبه جزيرة إسبانيا على شاطئ البحر المتوسط. فريد بك، مصدر سابق، ص ٢٣٣.

*حلق الواد هو ميناء العاصمة تونس. فريد بك، المصدر نفسه، ص ٢٣٣

^٢ - التر، مرجع سابق، ج ١، ص ١١٤

^٣ - أورثونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٩٢

^٥ عامر، تاريخ المغرب العربي لحدث (الجزائر - تونس)، ص ١٤٣

^٦ ككو، مرجع سابق، ص ١٣٤

أورثونا، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩٢

^٨ عامر، تاريخ المغرب العربي لحدث (الجزائر - تونس)، ص ١٤٣

^٩ أورثونا، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩٣.

^{١٠} - ياعي، مرجع سابق، ص ٦٧

وبجاحهم بالاستيلاء عليها/٩٤٢هـ/١٥٣٥م^(١)، استباحوها لأنفسهم فقاموا بأعمال السلب والنهب^(٢)، وقتلوا الكثير من سكان المدينة^(٣)، وقد عرف الإسبان بوحشيتهم وبطشهم، هذا بالإضافة إلى أنهم قاموا بهدم المساجد وأحرقوا الكثير من الكتب القيمة^(٤)، فأصبحت شوارع المدينة وأزقتها ممتلئة بالقتلى من الشيوخ والأطفال والنساء^(٥).

وعلى الرغم من كل هذه الجرائم التي ارتكبتها الإسبان بحق سكان تونس، قدم السلطان حس الحفصي إلى الإمبراطور شارل الخامس (شارلوكا) ثم جثا أمامه على قدميه وهو يقدم له فروع الطاعة^(٦)، ثم قام بتوقيع معاهدة مع الإمبراطور الإسباني^(٧)، وكانت هذه المعاهدة تنص على مايلي.

- ١- إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين الموجودين في تونس^(٨).
- ٢- السماح للمسيحيين بممارسة شعائرهم الدينية^(٩).
- ٣- تسليم المدن التي كانت بحوزة خير الدين باربروس إلى الإمبراطور شارل الخامس (شارلوكا) مباشرة مثل (بنزرت* - حلق الواد)^(١٠).
- ٤- يتوجب على السلطان حس أن يقوم بتقديم اثني عشر حصاناً واثني عشر مهرأ مستوياً للإمبراطور^(١١).

إسحاق، مرجع سابق، ص ٥٩

٢ - التز، مرجع سابق، ج ١، ص ١١٨

٣ - كرو، مرجع سابق، ص ١٣٤.

٤ - حصون، مرجع سابق، ص ٦٦

٥ - التز، المرجع السابق، ج ١، ص ١١٨

٦ - أورنود، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٩٣

٧ - طفوش، مرجع سابق، ص ٢٢٢

٨ - التز، المرجع السابق، ج ١، ص ١١٨

٩ - حصون، المرجع السابق، ص ٦٦

١٠ - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر تونس)، ص ١٤٦

١١ - بنزرت، تقع شمال تونس، وهي ميناء حربي هرب بك، مصدر سابق، ص ٢٣٣ .

١ - هرب بك، المصدر السابق، ص ٢٣٣

٥- كما يتوجب على السلطان حسن أن يسند حوالي اثني عشر ألف دوقة* سبواً، للاتفاق على الجنود الإسبان في حلق الواد.

٦- إبقاء عشرة آلاف جندي إسباني وعشرة سفن حربية في تونس بشكل دائم^(١).

٧- إذا نقص السلطان حسن إحدى هذه الشروط، فسيغرم بدفع خمسين ألف دوقة، وفي المرة الثانية مئة ألف دوقة، أما المرة الثالثة فسيتم أخذ البلاد منه^(٢).

إبان توقيع هذه المعاهدة، تعهد مولاي حسن بالالتزام بشروطها وتنفيذها، وبعد أن إطمأن الإمبراطور شارل الخامس (شارلوكا) على سلامة الأوضاع في تونس، عاد إلى بلاده وسط استقبال كبير من قبل شعبه، كما وصلته المباركات من قبل البابا على انتصاراته وإعادته تونس إلى سيطرتهم^(٣).

ولكن يبدو أن الحكم الإسباني برعامة مولاي حسن، كان قد أثبت فشله على كافة الأصعدة^(٤)، فمارس مولاي حسن الظلم والتعدي على الأهالي، وأرهقهم بالصرائب الكثيرة التي فرضها عليهم، الأمر الذي جعل السكان يلغون حول ابنه حميدة^(٥) الذي استطاع أن يدخل مدينة تونس وينتزعها من والده، على الرغم من محاولة مولاي حسن استعادة مدينة تونس من ابنه، لكنه لم يتمكن من ذلك على الرغم من المساعدة التي قدمها له الإمبراطور شارل الخامس (شارلوكا)^(٦)، لينتهي أمر مولاي حسن على يد ابنه حميدة الذي فقأ عينيه، فما كان منه سوى الهرب، ثم اللجوء إلى الإمبراطور شارل الخامس (شارلوكا) الذي أرسله بدوره إلى إيطاليا ليقتضي ما تبقى من عمره فيها^(٧).

* دوقة، وهي عملة فلورنسية (نسبة إلى مدينة فلورنسة) وهي تعادل درهمين عثمانيين. الفتر، مرجع سابق، ج١، ص ١١٩

١- أورثونا، مرجع سابق، ج١، ص ٢٩٤

٢- الفتر، مرجع سابق، ج١، ص ١٢٠

٣- عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر و تونس)، ص ١٤٧

٤- مظهر، مرجع سابق، ص ٢٢٢

٥- عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر و تونس)، ص ١٤٧

٦- الفتر، المرجع السابق، ج١، ص ٢٢٧-٢٢٨

٧- أورثونا، المرجع السابق، ج١، ص ٢٩٤

بعد فشل الحكم الإسباني في تونس أعقبه فشل آخر، تمثل بالأسيرة الحفصية أيضاً إذ تبين أن حميدة كان كوالده يمارس الظلم والتعدي على السكان، كما كان يعمل أيضاً لصالح الإسبان، مما أدى إلى ظهور معارضة شعبية جديدة ضد هذا الوضع القائم، فطمت العديد من الثورات ضد الحكم الإسباني وبمساعدة عثمانية ولكن دون جدوى، وبالمقابل أتركت القوات الإسبانية صعوبة موقفها وطالبت بالمزيد من الإمدادات والمساعدات لمواجهة هذه الفوضى، ولكن يبدو أن هذه المبادرة فشلت أيضاً^(١).

أما بالنسبة للشعب التونسي فقد رأى أن خلاصه سيكون على يد القوات العثمانية التي كانت متواجدة في الجزائر آنذاك بقيادة خير الدين باربروس، إلا أن خير الدين باربروس لم يتمكن من إنقاذهم نتيجة تدخل شارل الخامس (شارلوك)^(٢)، فما كان منهم سوى أن لجؤوا إلى الحل الأخير، حيث قاموا بتشكيل لجنة تونسية مصغرة لمعالجة السلطان سليمان القانوني وطلب المساعدة منه، وكان ذلك سنة ٩٧١هـ/١٥٦٣م/ على أمل أن يكون مقدمهم من هذا الوضع المتردي الذي كان معروصاً عليهم سواء كان من الإسبان أو من الأسرة الحفصية^(٣).

وبهذا يمكن القول إن الأوصاع في تونس كانت قلقة طيبة عهد السلطان سليمان القانوني، وكانت تونس عبارة عن قصب سباق بين العثمانيين والإسبان ولكن كانت العلية في النهاية للعثمانيين^(٤).

ج السيطرة العثمانية على طرابلس الغرب/٩٥٨هـ/١٥٥١م/:

لقد برزت القوة الإسبانية بشكل قوي على الساحة الدولية في القرن الخامس عشر، حاصلة بعد أن تبلورت الوحدة الإسبانية بزواج كل من فرديناند ملك أراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة، وللدین كانا يتطلعان إلى التوسع الخارجي لتحقيق أهدافهما المتمثلة بالقضاء على

^١ - مطفوش، مرجع سابق، ص ٢٢٣

^٢ - عامر، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر و تونس)، ص ١٤٨

^٣ - التر، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٢٨.

^٤ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ١٤

المسلمين والسيطرة على شمال إفريقيا، والذي شجعهما على ذلك اضطراب الأوضاع الداخلية في تلك المناطق^(١).

وبالعمل نجحت إسباني باحتلال طرابلس العرب، وذلك سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م/ بعد أن انتزعتها من أيدي الأسرة الحفصية^(٢)، وعلى الرغم من المقاومة العنيفة التي وجهت القوات الإسبانية، إلا أنها استمرت في تواجدها في طرابلس العرب، وفي ظل الظروف التي كانت قائمة آنذاك، والتي كانت ممثلة بمرور الدولة العثمانية كحامية للمسلمين، ووجودها في شمال إفريقيا والذي كان ممثلاً بحير النير باربروس ألقى إسبانيا برعاً ما^(٣)، التي بدلت تحشيتي على رعاياها في المنطقة، ولذلك ونكي تصمر سلامتهم من جهة ولصد هؤلاء العثمانيين من جهة أخرى، ولتخفيف الضغط أيضاً على قواتها المتواجدة في شمال إفريقيا^(٤)، رحب الملك الإسباني بطلب فرسان القديس يوحنا بالجوء إلى طرابلس العرب، بعد أن طردهم السلطان سليمان القانوني من جزيرتهم رودس، ولكنه اشترط عليهم أن يقوموا بمساعدته في قتال المسلمين^(٥).

وبعد موافقة الفرسان على شرط شارل الخامس (شارلوكا)، نجح فرسان القديس يوحنا بالميطرة على طرابلس الغرب/٩٢٦هـ/١٥٣٠م/، واعتبروها مقرهم العسكري، أما جزيرة جربة مألطة فكانت تعد المقر الروحي لهذه المنظمة^(٦)، ومنذ ذلك الوقت انصرف فرسان القديس يوحنا إلى تثبيت وجودهم في طرابلس الغرب، وتعيد لتعاقدهم المبرم مع الملك الإسباني والإمبراطور شارل الخامس (شارلوكا) في قتال المسلمين^(٧).

- محمود علي عامر، محمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى - ليبيا)، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ١٩٩٩م ص ١٤٨
٢ - حسون، مرجع سابق، ص ٦٤

٣- Yavuz Bahadır Oğ u , KAUNAK GEÇEN,S134.

٤ - عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى - ليبيا)، ص ١٥٤

٥ - جويت، مصدر سابق، ح ٥، ص ٤١٧

٦ - عبد الرحيم مصطفى، مرجع سابق، ص ٩٣

٧ - عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى - ليبيا)، ص ١٥٣

٨ - حرب، مرجع سابق، ص ٩٩

وفي الواقع حول الفرس في بداية الأمر إقامة علاقات ودية مع سلطان تونس مولاي حسن بعية التحالف معه، إلا أن ذلك لم ينجح نتيجة ضعف موقفه، فلجأ بعدها فرس القديس يوحنا إلى إقامة حكومه مسيحية متعصبة ستهدف القضاء على الإسلام والمسلمين، إلا أن مشروعه لم ينجح لأنهم اصطدموا بمقاومة إسلامية عيفة من قبل السكان في طرابلس العرب، فكانت ردة فعل الفرسان أضعف، إذ قاموا بتطبيق نظام العرامات والرهائن مما أدى إلى ريادة بقية الشعب على هؤلاء المحتلين وقرروا طردهم من البلاد^(١).

إلا أنهم أدركوا أن إمكانياتهم العسكرية كانت ضعيفة أمام تلك القوة الصليبية المدعومة من قبل أقوى دولة أوروبية آنذاك وهي إسبانيا، ولذلك كان لابد من وجود قوة عسكرية واقتصادية معنوية داعمة تساندهم أمام هذا الخطر المحدق بهم.

فشكّلوا وهداً صغيراً توجه سنة ٩٢٦هـ/١٥٣٦م/ إلى السلطان سليمان القانوني طالبين منه المساعدة^(٢)، فأكرم السلطان سليمان الوفد ثم رده إلى بلادهم برفقة جيش بقيادة مراد آغا لقتال فرس القديس يوحنا^(٣)، وبالفعل ما أن وصلوا إلى طرابلس الغرب حتى توجه مراد آغا إلى قرية تاجوراء (شرقي مدينة طرابلس) ثم فرض حصاراً على طرابلس العرب، ولكنه لم يتمكن من دخولها بسبب إمكانياته العسكرية القليلة^(٤)، عدها لجأ سكان طرابلس العرب (الليبيون) إلى تاجوراء خوفاً من بطش فرسان القديس يوحنا، وعندما أدركوا عجزهم عن مواجهتهم، لذا قرروا اللجوء مرة ثانية إلى السلطان سليمان القانوني لإطلاعه على ظروفهم السيئة التي كانوا يعيشونها^(٥).

في تلك الأثناء كان مراد آغا قد نجح بتحصيل تاجوراء، واتخذها مقراً لإمارته، كما أنه قام مع مجموعة من السكان المحليين بإعداد جيش صغير، يقوم بشن هجمات متعقدة ضد

^١ طغوش، مرجع سابق، ص ٢٢٤

^٢ - حصون، مرجع سابق ص ٦٤

^٣ - علمر - فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى - ليبيا)، ص ١٦٠

^٤ - حصون، المرجع السابق، ص ٦٤.

^٥ - Yavuz Bahadır Oğ u, KAUNAK GEÇEN, S145.

الفرسان^(١)، واستطاع سنة/٩٥٠هـ/١٥٤٣م/ أن يصم مدينتي ترهونة ومسلاته وألحقها سنة/٩٥١هـ/١٥٤٤م/ بصم مدينتي غريز وبنى الويد^(٢)، وكان في الوقت نفسه يُعلم استبول بأوصاعهم السيئة ويطالبهم بالإسراع في تقديم العون وإرسال الأساطيل، لأن الفرسان باتوا يسرفون بالقتل والتعذيب، فما كان من الرئيس طرغوث* سوى أن ذهب بنفسه لمقابلة السلطان سليمان لإطلاعه على الوضع في طرابلس العرب، وعن جرائم فرسان القديس يوحنا، ولبيان له أن المسلمين هناك ينظرون دعمه وإبقائهم من الاصطهاد والظلم المعروف عليهم^(٣).

كما نكّره بمدى أهمية مناطق شمال إفريقية اقتصادياً وعسكرياً، ومدى الفائدة التي ستجنيها الدولة العثمانية في حال تمت السيطرة على طرابلس العرب وغيرها من مناطق شمال إفريقية^(٤).

من الواضح أن الرئيس طرغوث قد لجأ إلى أسلوب الترغيب على أمل أن يحجب السلطان سليمان القانوني ويدعجه إلى الإسراع في الدفاع عنهم، وهو أسلوب ذكي يرمع بياهة هذا الشخص، كما يبين لنا اهتمامه الواضح في الدفاع عن سكان شمال إفريقية بشكل عام وطرابلس العرب بشكل خاص.

وفي النهاية استجاب السلطان سليمان القانوني، لنداء الاستعثة من قبل سكان طرابلس العرب (الليبيين)^(٥)، فأصدر السلطان سليمان أوامره إلى القبطان سنان باشا لكي يتم إعداد الأسطول والانطلاق نحو طرابلس العرب لطرد فرسان القديس يوحنا منها^(٦)، كما أوكل إلى

^١ أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣١١

^٢ - عامر، فارس، تاريخ العرب العربي الحديث (العرب الأقصى - ليبيا)، ص ١٦٠
* طورغوثجه أو طورغود أو طرغوث هو من مشاهير قادة البحر العثمانيين، أسسه من الأصول. شارك في الكثير من المعارك البحرية، يعرف عدد الأوروبيين باسم دارغوث، وقع أسيراً في إحدى لمعرك البحرية التي كانت بين أندريا دوريا، الرئيس حيز الدين باربروس، ثم تمكن الرئيس خير الدين من إنقاذه عندما أغار على مدينة جبوة سنة /٩٥٧هـ/١٥٥٠م/. مرهك، مصدر سابق، ص ٩٦

^٣ - ISMAIL HAKKI UZUN ÇARŞILI, KAUNAK GEÇEN, 5450

^٤ - كئو، مرجع سابق، ص ٢٠٠

^٥ - طغوش، مرجع سابق، ص ٢٤٢

^٦ - مرهك، المصدر السابق، ص ٩٦

الريس طرغوت بقيادة بعض من المصطفى الأخرى^(١)، وبالفعل انطلق الأسطول سنة/٩٥٨هـ-١٥٥١م/ إلى طرابلس الغرب^(٢).

ولما علم فرسان القديس يوحنا بتلك الحملة الصخمة أصابهم الهلع والذعر^(٣)، وفور وصوله قرر القبطان سنان أن يقوم باحتلال جزيرة مالطة، ولكنه ذهب عند وصوله من صخامة حصونها ومتانتها، مما جعله يترجع عن قراره ويكتفي بتحرير طرابلس الغرب^(٤)، في تلك الأثناء ورعته أنباء معادها أن أندريا دوريا قائد الأسطول الإسباني الشهير قادم لتقديم المساعدة لفرسان، فما كان من القبطان سنان إلا أن ذهب إلى طرابلس وأنزل قواته في تاجوراء، ثم وجه رسالة إلى قائد الفرسان^(٥) وحاكم طرابلس الغرب جاسباري دي فاليري طالباً منه الانسحاب، ولكن حاكم طرابلس رفض بشدة هذا الطلب وبيّن له أنه مصمم على الدفاع عن حكمه ومقره^(٦).

مما دفع بالقبطان سنان باشا أن يقوم بفرص حصار على طرابلس الغرب^(٧)، وبمساعدة السكان المحليين ورغم مقاومة الفرسان نجح العثمانيون في طرد فرسان القديس يوحنا^(٨)، الذين لم يتمكنوا من الصمود كثيراً أمام هذا الحصار^(٩) بسبب قلة المياه، بالإضافة إلى نجاح القوات العثمانية آنذاك بتوجيه مدافعها باتجاه القلعة^(١٠)، فعندت للمسافة الفاصلة بينهما صعيقة، وهذا ما أرعب الفرسان الذين أصبحوا يبحثون عن وسيلة للهروب إلى جزيرة صقلية، على الرغم من محاولة قائداهم دي فاليري في إقاعهم عن العنول عن رأيهم، ولكن كل هذا لم

عامر، فارس، تاريخ العرب العربي الحديث (المغرب الأقصى - ليبيا)، ص ١٦١

^١ - سرهك، مصدر سابق، ص ٩٦

^٢ - عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى - ليبيا)، ص ١٦١.

^٣ - Yavuz Bahadır Oğ u, KAUNAK GEÇEN, S134

^٤ - عزيز سامح انتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ج ٢، ت: الحاج عبد السلام أدهم، بيروت، ١٩٦٩م، ج ٢، ص ٥١

^٥ - أورتنوا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣١١

انتر، المرجع السابق، ج ٢، ص ٥١

^٦ - أورتنوا، المرجع السابق، ج ١، ص ٣١١

^٧ - حرب، مرجع سابق، ص ٩٩

^٨ - طلوش، مرجع سابق، ص ٢٢٤

يكن له أي فائدة لأن العرسان انسحبوا فعلياً، وتخلوا عنه، فوجد دي لا فيير نفسه وحيداً مما دفعه إلى الاستسلام ورفع الراية البيضاء^(١).

وفي الوقت ذاته قنع إلى القبطان سنان رسولان يعرضان عليه أن يتم إخلاء المدينة من العرسان، ولكن بشرط ضمان حملة أفراد الحامية، وأن يتم نقلهم سالمين إلى جزيرة صقلية أو مالطة، وكان رد القبطان سنان هو الموافقة وقبول هذه الشروط^(٢)، وبذلك تم ضم طرابلس العرب إلى الدولة العثمانية^(٣)، سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م^(٤).

وعند بعدها سنان باشا إلى تعيين مراد آغا والياً على طرابلس الغرب، وقد استمر والياً عليها حتى وفاته سنة ١٥٥٦م^(٥).

على الرغم من أن السلطان سليمان القانوني كان قد وعد الرئيس طرغوت بإمارة طرابلس العرب، إلا أن الصدر الأعظم رستم باشا شقيق سنان باشا، كان قد تحلل لصالح مراد آغا وصمم له تولي حكم طرابلس العرب، بعد أن أقنع السلطان سليمان القانوني عن العدول عن رأيه^(٦)، لتتحول بذلك طرابلس العرب إلى ولاية عثمانية ابتداءً من الخامس عشر من اب عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م^(٧).

إذاً يمكن القول إن الدولة العثمانية نجحت أخيراً بيمط جناحيها على شرق البلاد وغربها، واستطاعت أن تراجعه إسبانيا تلك الدولة الأوروبية التي كانت ادّعت في قمة مجدها وقوتها، والتي كانت تسعى بكل ما أوتيت من قوة إلى استغلال موارد وضائق البلاد في شمال إفريقيا، أما الدولة العثمانية فصحيح أنها وقعت أمام الدول الأوروبية الطامعة في تلك المصالح، ولكن عندما أخضعت تلك البلاد لنعوذ لم يكن بدافع اقتصادي، وإنما كان بدافع ديني، لأنها كانت ترفع شعار حماية الإسلام والمسلمين، هذا بالإضافة إلى أنها خشيت أنه في حال دخلت تلك

^١ - عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى - ليبيا)، ص ١٦٢

^٢ - Yavuz Bahadır Oglu, KAUNAK GEÇEN ,S134

^٣ - أرسلان، مصدر سابق، ص ١٦١

^٤ - أوزلي، مرجع سابق، ص ٣٢٢

^٥ - أورتونا، مرجع سابق، ج ١، ص ٣١٢

^٦ - عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى - ليبيا)، ص ١٦٣

^٧ - أورتونا، المرجع السابق، ج ١، ص ٣١١

القوى الصليبية إلى غرب الوطن العربي، فإنها ستشكل خطراً على شرق الوطن العربي وباقي أجزاءه.

وبالعمل نجحت الدولة العثمانية بالوقوف صد هذه القوى الصليبية الخطيرة، ولكن الحق يقال إن هذا النجاح لم يكن ليتحقق لولا جهود وبطولات آل باربروس، الذين قنعوا بدافع المصلحة خدمتهم للدولة العثمانية، بعية الحصول على السلطة والحكم في شمال إفريقيا

إذاً المصلحة المشتركة يمكن أن يجعلها العنوان الرئيس، وبالتالي كانت الدافع والمحرك لكلا الطرفين في توسعاتهم وموجهتهم للقوى الأوروبية المعادية للإسلام، والراضة بتقوية اقتصادها المتنامي لتذاك.

وحقيقة الأمر هو أن الدولة العثمانية كانت تبحث عن المجد والشهرة، بالإضافة إلى كسب ثقة المسلمين أينما كانوا، بينما كان آل باربروس يبحثون عن قاعدة بهم تمكنهم من ممارسة نفوذهم ونشاطاتهم الاقتصادية والسياسية في شمال إفريقيا، وفي كلا الحالتين كانت الفائدة بالنهاية تنصب لصالح سكان تلك المناطق، وقد تحقق ذلك من خلال التعاون الذي تم بين كلا من آل باربروس والدولة العثمانية، حيث كانت هناك محارلات كثيرة بعية تنطيم الشمال الإفريقي الذي كان يعيش فوضى داخلية سوء كان ذلك في (الجزائر أو تونس أو ليبيا).

كما استطاعت الدولة العثمانية نوعاً ما أن تبلور النظام السيممي و الإداري في ولايات الشمال الإفريقي إلا أن السياسة التي اتبعتها في الشمال الإفريقي بولاياته الثلاث (الجزائر، تونس، ليبيا) كانت معادية تماماً عن بقية الولايات الأخرى.

وهناك عدة مسوغات دفعتها إلى اتخاذ تلك الإجراءات المعادية من أهمها :

١- أن الشمال الإفريقي من أبعد الولايات العثمانية عن العاصمة استتبول مركز الدولة العثمانية، وبالتالي كان أي تدخل من قبل الحكومة المركزية يحملها تكاليف باهظة.

٢- كان لابد من وجود قوة عسكرية كبيرة تستطيع حماية الشمال الإفريقي، نتيجة تعرضه للتهديد الدائم من قبل الدول الأوروبية الطامعة بها، وهذا ما فرض عليها إحكام سيطرتها على الأهالي دون العودة إلى السلطان.

٣- فصلت الدولة العثمانية الشمال الإفريقي إلى ثلاث أوجقات كانت مرتبطة بالعاصمة استنبول، ولكنها منفصلة عنها عسكرياً وإدارياً ومالياً^(١).

كما عهدت الدولة العثمانية إدارة ولايات الشمال الإفريقي إلى أشخاص ممن اشتهروا بالبحر، وقد نجحوا بإدائ الأمر في إدارة هذه الولايات إدارة حسنة، وقد انعكست هذه الإدارة الناجحة على السكان الذين شعروا بالاستقرار، خاصة بعد أن شهدوا لزيادة قوة الأسطول البحري الذي شكل خطراً حقيقياً على معقل الأوربيين وجعل ملوك أوربية يسعون لكسب وسهم^(٢).

كما صيقت الدولة العثمانية النظام بحذافيره، وفرضت عقوبات بحق كل من أظهر ميلاً للإحلال بالنظام^(٣)، ولكن يبدو أن الإدارة العثمانية تركت لحيودها حرية التصرف بشؤون الولاية^(٤)، وهذا ما أدى إلى الإحلال بالنظام العثماني والذي كان سببه الرئيسي شعب الإنكشاريين الذين عرصوا البلاد لصعوبات كثيرة^(٥)، تمثلت بثورات متكررة من قبل الأهالي، وعلى الرغم من اعتراف السكان بالسيادة العثمانية، إلا أن هذا الاعتراف كان مزعزعاً وغير ثابت حاولت فيها الدولة العثمانية ولعدة مرات فرض سيطرتها المباشرة على البلاد، وساد هذا الاعتراف العداء أحياناً والفتور أحياناً أخرى^(٦).

إن الثورات المتكررة، بالإضافة إلى قسوة المناخ والصحراء الكبرى والجبال التي كانت إحدى الصعوبات التي واجهت العثمانيين في الشمال الإفريقي، في الوقت الذي تصعصع فيه تفوق أسطولهم البحري في البحر المتوسط^(٧).

^١ - عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى - ليبيا)، ص ١٦٥

^٢ - عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر و تونس)، ص ٤٩

^٣ - انظر، مرجع سابق، ج ١، ص ١٣٧

^٤ - عامر، فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى - ليبيا)، ص ١٦٤

^٥ - انظر، المرجع السابق، ج ١، ص ١٣٧

^٦ - طغوش، مرجع سابق، ص ٢٢٣

^٧ - باغي، مرجع سابق، ص ٧٥

كل هذه الأحداث الدائرة على الساحة الإفریقیة، وبصاف إليها للحسائر التي تعرض لها السلطان سليمان التي أثرت به بشكل كبير ، من فقدان أسطوبه وموت خيرة قاداته ، لاسيما بعد أن فشلت قواته في الإستيلاء على جزيرة مالطة سنة ١٥٦٥م وطرده فرسان القديس يوحنا منها^(١)، ليعدل بذلك السلطان سليمان القانوني المستارعن العصر الأخير من حياته سنة ١٥٦٦م تاركاً الحكم لابنه سليم الثاني.

الخاتمة:

صحيح أن للقبيلة الهاربة من صعط المعول استطاعت بعد دخولها الأنصول بشهور أن تؤكد وجودها وبغفود أن تجعل بورصة عاصمة لها، وقرن ونصف أن تصبح إمبراطورية يخافها الشرق والغرب، ويتوافد الملوك إلى عاصمتها استبول لكسب ودها والحصول على إذن دخول إلى ممالكها أو للتجار في ولاياتها.

لقد فرصت الإمبراطورية العثمانية نظمها على ولاياتها المتناثرة في ثلاث قارات آسيا وأروبة وإفريقية، وأن تعثمن نظمها الإدارية بكل شجاعة واطمئنان، وبوصول السلطان سليمان الأول القانوني تأكدت العظمة ونعتت القوايس التي أقرها هذا السلطان الذي ما عرف التاريخ سلطاناً توج بالألقاب الرمزية والدينية مثلاً له.

فهو ذلك القائد المعاصر الذي استطاع أن يصل إلى أروبة وأن يهد عرش ملوكها، وهو الذي تصد للدولة الصفوية التي كانت تعد دولة منافسة له ويحسب لها حساب.

وهو الحاكم الذي تمكن من أن يفرض بنفسه ويحدد شروط صلحه مع أي دولة منافسة له، لقد استطاع في فترة ما أن يحقق نظرية الحاكم الذي لا يقهر، ونجح في منح الدولة العثمانية هالة من العظمة حولها من دولة إلى إمبراطورية كانت لها مكانها ودورها الفعال على الساحة الدولية لنداك سواء على الصعيد العسكري أو السياسي أو الإقتصادي أو الإداري.

ولا ننكر الدور الذي لعبه السلطان سليمان في سعيه لإعادة لحة الوحدة العربية لجميع سكن الوطن العربي، ومحاولته تجميع قراها تحت راية واحدة، فهو الذي وقف إلى جانب بلاد شمل إفريقيا، التي كانت تواجه خطر صليبي كبير، متمثلاً بالخطر الإسباني والبرتغالي الذي لم يكن خطراً عابراً إنما كان خطراً كبيراً، وكاد يعصف بالوطن العربي من مشرقه إلى مغربه، وبصاف إلى ذلك الخطر انصوي، إذ يمكن التأكيد أن السلطان سليمان كان قد استطاع أن يمسح الكماشة الصليبية (البرتغالية والإسبانية) من الإطباق على العالم العربي.

وبالمقبل لقد أثبت السلطان سليمان للعالم بأسره بأنه إداري ناجح وذلك بإصداره للقوانين التي نظمت دولته وكما هو معوم ليس بالأمر السهل ولا البسيط أن يتم إخصاع وإدارة وتنظيم

رقعة شاسعة من الأراضي بقصبتها أنماط مختلفة من السكان، ولكنه أثبت بأنه قادر على ذلك، إذ تم في عهده إدارة أعظم دولة بأرقى شكل إداري.

ولكي لا ننظر إلى نصف الكأس الممتلئ بالماء فقط، كان لابد من اتخاذ الموضوعية والحياد في طرح أبرز النقاط التي توصل إليها البحث ملية كانت أو إيجابية، فصحيح أن المصادر العثمانية أطبت بصفاته وشجاعته تحت تأثير دافعين الدافع الأول حقيقة توسع أملاك الدولة وتأكيد الهيمية عليها واعتراف جميع القوى بكل أطرافها بقوة شخصيته ومهابتها التي سبغت اسمه إلى الولايات وهذه حقيقة لا اختلاف عليها، وثانيها أن السلطان سليمان طاهرة إدارية لم تتكرر في تاريخ الإمبراطورية العثمانية.

ولكن ما وصل البحث إليه أن السلطان سليمان استمد قوته من كنفوا يحيطون به فقد كان عصره عصر الأقوياء من القادة والأمراء أمثال إبراهيم باشا وحير الدين باربروس وسنان باشا وبيالي باشا وعروج باشا وطرحوت باشا فهم الذين صنعوا هذا المجد الذي عم الأفق، وحصد السلطان سليمان ثماره.

فصلاً عن ذلك فإن السلطان سليمان القانوني لم يصنع مجداً كان صائعاً ولا عرشاً كان مضطرباً فأزال بصره به وثبت دعائمه، فلقد ورث ملكاً كان قرياً، وبين طبيقته وعلى حدوده قادة كبار وعظام حققوا وبجهودهم ما تناولته أقلام المرحلة بالمديح لدرجة عطلت كثيراً من عيوبه، ولقد لقادت الأقلام الغيرة من أمثال رسافور في بعض مجلداته أن السلطان سليمان كان قوياً في طاهره ضعيفاً في باطنه ولا سيما أمام النساء، وبما فعلته زوجته روكسلانه بمسيرته التي لا تستحق مديح يفوق الوصف، هذه المرأة التي كان لها التأثير الكبير في السلطان سليمان وكان للأسف تأثير سلبي أكثر منه إيجابياً، وقد يكون السبب في أصولها اليهودية، التي جعلت منها إنسنة حاكمة وتحمل الصعينة اتجاه الإسلام والمسلمين.

أما بالنسبة لسلطان سليمان فصحيح أنه حقق انتصارات عسكرية ولكن أغلبها كان في مناطق العالم الإسلامي، فلماذا فشل أمام أسوار فيينا ثلاث مرات، ولماذا واطب السلطان سليمان في ش حملته على إيران لو لا أنه أراد أن يصنع نفسه في موقع المنافس مع حكامها بهدف إثبات قوته، ولماذا قتل قتل صديقه ورفيق دربه وفتح العراق سنة ١٥٣٤م إبراهيم

باشا، ولماذا أسد إليه رستم باشا منصب الصدر الأعظم ولماذا أسد عليه قيادة الجيوش، وهل الإنكشارية تعرف أباً أو وطناً أو دستوراً إلا السلطان الحاكم، فلماذا غاب عنهم، ألم يكن كل ذلك ليفصي كل أوقاته مع روكسلاته وغيرها من النساء، وليهرب من واجباته اتجاه دولته التي يبدو أنها أرهقته ولم يعد يحفل بها.

ولماذا أهان وجرح قلب زوجته كليهار (ورد الربيع) وقتل ابنها مصطفى، وأرسل أخاه أويس باشا لليمس ليموت وهو يدرك أن مجرد نحوبه إلى اليمس كان يعني فقدانه إلى الأبد، كما أسهم في قتل ابنه بيريد، ألم يكن كل ذلك بسبب حوقه من أن يفقد الكرسي الذي استطاع من خلاله أن يحقق مايرغب به، ومنها الراحة كل منافسيه، من خلال تحليل ما هو محرم وليس هذا فحسب بل تحويله إلى قانون، وهذا القانون هو قتل الإحوة والأبناء من أجل الحكم أو العرش وهذا ما يدعو للاستعرب.

فصلاً عن ذلك لماذا قام اتفاقية مع الملك الفرنسي ومنحه الامتيازات، وتجاهلت إدارته الام الرعية نتيجة ممارسات التجار الأجانب الذين عاثوا فساداً في ولاياته الإسلامية، وطبعاً يستطيع أن يجرم أن هذه الامتيازات لم تكن سوى إيا أصاب الدولة العثمانية وليست دواءً كما طر السلطان سليمان القانوني، والدليل على ذلك أن هؤلاء التجار الأجانب لم يمارسوا هذا الفساد إلا في الولايات العربية وكل هذا كان مدروم من قبل الحكومات العربية بهدف السيطرة وشل الاقتصاد في الولايات العربية، ومن ثم طرح البصائع الاجنبية كخطوة أولى أمام تحقيق الهدف الأكبر وهو الاستعمار والسيطرة على الأراضي والحيارات في بلادنا العربية بواسطة الدولة العثمانية.

أهذه الأعمال تصنع عن رجل قوي وعاقل وراشد ويضاف إلى ذلك كله أنه حاكم وسلطان، هذه التساؤلات طرحت في أثناء البحث في مرحلة السلطان سليمان القانوني، لكن الاستنتاجات العلمية فررت نفسها كحقيقة لا يمكن تجاهلها، وقد وصل هذا البحث إلى حقيقة هي أن هذا السلطان الشجاع والإداري إنما كان يحمل في شخصه العديد من التناقضات التي انعكست على دولته، ويمكن القول إنه كان شخصاً أنانياً بشكل كبير ومبالغاً فيه فمن أجل العرش صحن بأعلى ما عنده، وكل هذا كان له نتائج وخيمة عانت على الدولة العثمانية بالصعب فهي للصحية الأولى والأخيرة. فالسلطان سليمان وغيره من السلاطين الذين سبقوه

أعطوا هذه الدولة أسياب النجاح ثم عملوا على إزالة كل ما هو عامل مساعد على نجاح هذه الدولة.

من ناحية أخرى ترى هل قرأ المؤرخون مرحلة السلطان سليمان القانوني بدقة وحلوا النتائج التي انتهت على الإمبراطورية بعد وفاته، فكيف يعهد إلى ابنه سليم الثاني ولاية العرش وهو يدرك أنه قطعة لهو ومجون بلمتبار، ولكن الإجابة واضحة تتلخص بكلمة واحدة هي (روكسلانه) التي استطاعت بنجاح أن تحقق كل ما رعبت به مستعلة ضعف هذا الرجل أمامها ولأم كل النساء .

إن البحث أعطى سليمان حقه في المواقف التي بذل فيها جهده كحاكم محصل لدولته، وتجنب الإشارة إلى سقطاته في أثناء البحث، غير أن النتائج رفعت بشدة القبول بالمديح فقط طرحت نفسها كحقيقة وأكدت أن ما تعرضت إليه الإنكشارية من فساد وما واجهته الدولة العثمانية بعد وفاته كانت بسبب بصرفاته التي لم يعلم بها وإنما وقع عليها، لأن رسم باشا زوج مهرماه وحملته روكسلانه هما اللذان أقرّا هذه الإجراءات التي أسهمت في انهيار الدولة العثمانية .

ويبقى القول إن السلطان سليمان العثماني هو إنسان، والإنسان ليس معصوماً عن الخطأ، كما أنه ليس كاملاً لأن الكمال لله، ولكن منحنا رب العالمين العقل الذي هو ربة الإنسان وهو الذي يميز بين ما هو خطأ وما هو صواب، ولكن يبدو أن السلطان سليمان وفي أغلب القرارات المصيرية التي اتخذها والتي تخص دولته كانت تحركه عواطفه التي كانت تديرها بنجاح زوجته روكسلانه، وهذا ما أدى إلى رجحان كفة الأخطاء إن صح للقول على كفة الإنجازات.

الملحق (١)

السلطان العثمانيون

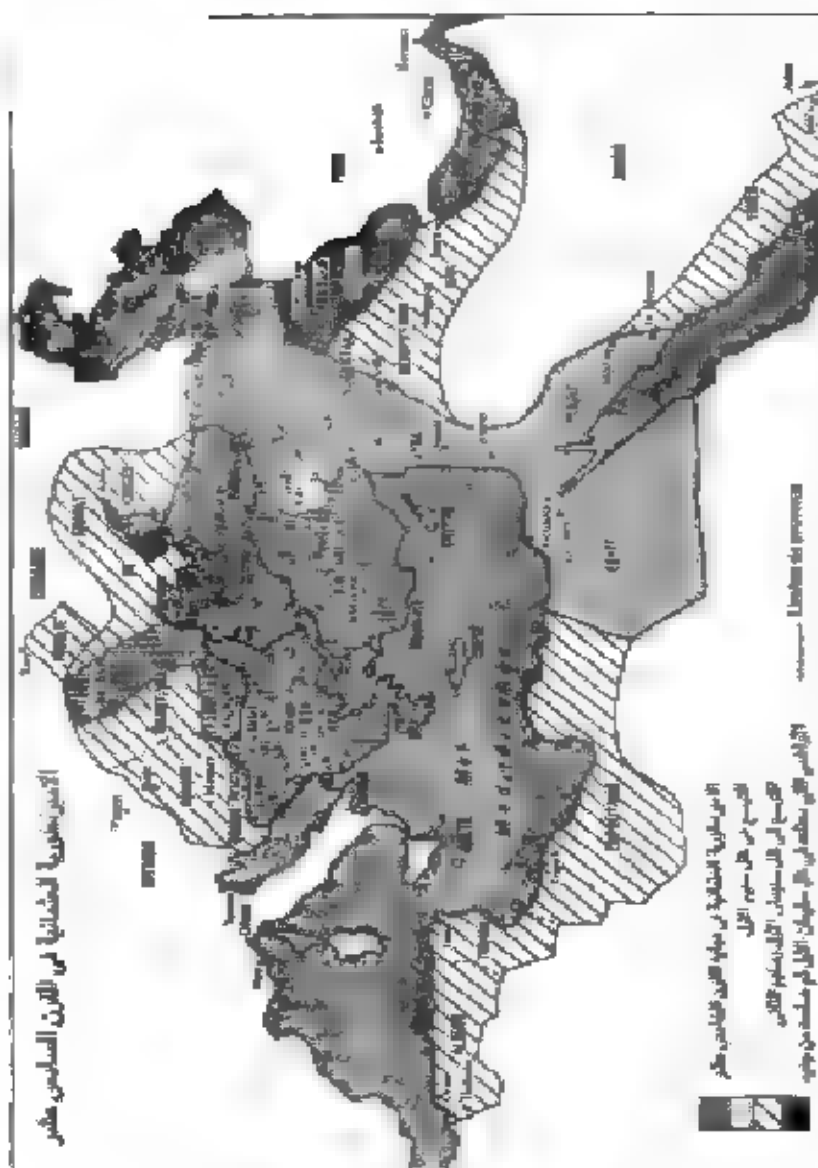
- ١ - عثمان بن ارطغرل ١٢٩٩ - ١٣٢٦
- ٢ - أورخان بن عثمان ١٣٢٦ - ١٣٦٠
- ٣ - مراد خدابايدگار ابن أورخان ١٣٦٠ - ١٣٨٩
- ٤ - بايزيد الأول بيلدرم ابن مراد ١٣٨٩ - ١٤٠٣ قتل أخاه الأصغر يوم تولى العرش لكي لا يفسد عليه أمره .
وهنا حدثت فترة ملوك طوائف ثم جاء :
- ٥ - محمد الأول جلبي ابن بايزيد ١٤٠٣ - ١٤٢١ قتل أخوته الأربعة حرباً
- ٦ - مراد الثاني ابن محمد ١٤٢١ - ١٤٥١ قتل عمه مصطفى وأخاه مصطفى
- ٧ - محمد الثاني الفاتح ابن مراد ١٤٥١ - ١٤٨١ قتل أخاه الرضيع
- ٨ - بايزيد الثاني ابن محمد الثاني ١٤٨١ - ١٥١٢ تنازل عن الملك لابنه سليم
- ٩ - باوز سليم بن بايزيد ١٥١٢ - ١٥٢٠ قتل خمسة من أولاد أخوانه وقتل أخاه كركود ، وأخوه أحمد قتل وهو بحاربته
- ١٠ - سليمان القانوني الأول ابن سليم ١٥٢٠ - ١٥٦٦ قتل بعض أولاده وبعض أحفاده بدسيسة زوجته
- ١١ - سليم الثاني ابن سليمان ١٥٦٦ - ١٥٧٤
- ١٢ - مراد الثالث ابن سليم الثاني ١٥٧٤ - ١٥٩٥ قتل إخوته الخمسة
- ١٣ - محمد الثالث ابن مراد ١٥٩٥ - ١٦٠٣ كان له ١٩ أخاً خنقهم قبل ذلك أيه ودفنهم معه تجاه اياصوفيا
- ١٤ - أحمد الأول ابن محمد الثالث ١٦٠٣ - ١٦١٧ حُجِر عن أخيه ولم يفتله .

- ١٥ - مصطفى الأول أخو أحمد الأول ١٦١٧ - ١٦١٨
- ١٦ - عثمان الثاني ابن أحمد الأول ١٦١٨ - ١٦٢٢ قتل أخاه محمداً، خلع ثم قتل
- مصطفى الأول (ثانية) ١٦٢٢ - ١٦٢٣ خلع ثانية
- ١٧ - مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأول ١٦٢٣ - ١٦٤٠
- ١٨ - إبراهيم الأول ابن السلطان أحمد الأول ١٦٤٠ - ١٦٤٨ خلع ثم خنق
- ١٩ - محمد الرابع ابن إبراهيم الأول ١٦٤٨ - ١٦٨٧ خلع
- ٢٠ - سليمان الثاني ابن إبراهيم الأول ١٦٨٧ - ١٦٩١
- ٢١ - أحمد الثاني ابن إبراهيم الأول ١٦٩١ - ١٦٩٥
- ٢٢ - مصطفى الثاني ابن محمد الرابع ١٦٩٥ - ١٧٠٣
- ٢٣ - أحمد الثالث ابن محمد الرابع ١٧٠٣ - ١٧٣٠
- ٢٤ - محمود الأول ابن مصطفى الثاني ١٧٣٠ - ١٧٥٤ .
- ٢٥ - عثمان الثالث (لم يذكر اسم أبيه) ١٧٥٤ - ١٧٥٧
- ٢٦ - مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث ١٧٥٧ - ١٧٧٤
- ٢٧ - عبد الحميد الأول ابن أحمد الثالث ١٧٧٤ - ١٧٨٩
- ٢٨ - سليم الثالث ابن مصطفى الثالث ١٧٨٩ - ١٨٠٧ خلع
- ٢٩ - مصطفى الرابع ابن عبد الحميد الأول ١٨٠٧ - ١٨٠٨ خلع ثم قتل
- ٣٠ - محمود الثاني ابن عبد الحميد الأول ١٨٠٨ - ١٨٣٩ .
- ٣١ - عبد الحميد الأول ابن محمود الثاني ١٨٣٩ - ١٨٦١
- ٣٢ - عبد العزيز بن محمود الثاني ١٨٦١ - ١٨٧٦ خلع وقتل مسموماً
- ٣٣ - مراد الخامس ابن عبد المجيد الأول ١٨٧٦ - ١٨٧٦ خلع لخلل في عقله
- ٣٤ - عبد الحميد الثاني ابن عبد المجيد الأول ١٨٧٦ - ١٩٠٩ خلع ومات ١٩١٧
- ٣٥ - محمد رشاد الخامس ابن عبد المجيد الأول ١٩٠٩ - ١٩١٨
- ٣٦ - محمد وحيد الدين السادس ابن مراد الخامس ١٩١٨ - ١٩٢٢ تنازل عن العرش ومات ١٩٢٦
- ٣٧ - عبد المجيد - بن عبد العزيز الثاني ١٩٢٢ - ١٩٢٤ خلع

نقلًا عن فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية

الملحق (٢)

الامبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر



نقلًا عن أندريه كلو، السلطان سليمان القانوني

الملحق (٣)

الإمبراطورية العثمانية في عام ١٥٦٦ م

الإمبراطورية العثمانية سنة ٩٧٣ هـ / ١٥٦٦ م



نقلاً عن روبرت مانتيران، تاريخ الدولة العثمانية

الملحق (٤)

الإمبراطورية العثمانية في أوج اتساعها



نقلًا عن الموقع الإلكتروني اسلام ويب

الملحق (٥)

رسالة موجهة من السلطان سليمان القانوني إلى ملك فرنسا فرانسوا الأول.

الله الملأ المعطي المحي المنس .

بمنايه حصرة عزة الله حلت فنسوته وعلت كلمته ومعجرات سيد ربه الأنبياء

وقدوة فرقة الأصمياء محمد المصطفى ﷺ الكثيرة البركات ، وعمودية قدس
أرواح حمايه الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ،
وجميع أولياء الله ، أن سلطان السلاطين وهراف الحواقيق متوج سلواه طل الله في
الأرضين سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والأندلس والرومي وقرم
اروم وولاية دني القدوة ودار بكر وكردستان ، الفريجان والعجم والشام
وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن وممالك كثيرة
أبصار ، التي فتحها بني الكرام وأجدادي العظام بقوتهم القاهرة ، أمد الله برأسيهم ،
وبلاد أخرى كثيرة افتتحها بذجلاتي بسيف الظفر ، أن السلطان سليمان خان بن
المسلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان ، إلى فرسيس ملك ولاية فرسا وصل إلى
أعتاب ملجأ السلاطين المكتوب التي أرسلتموه مع تابعكم فرسان الشهد مع
بعض الأخبار التي أوصتموه بها شفاهياً وأعلم أن هذوكم امتدوا على بلادكم
وأنتكم الآن محبوسون وتنتهون من هذا الخراب مدد العدة مخصوص خلاصكم ،
وكل ماقلتوه عرض على أعتاب سرير سادتنا الموكاتية وأحاط به علمي الشريف
على وجه التخصيص فصار يتماهى معلوماً ، فلا عجب من حبس الملوك وفيهمهم فكي
مشروح المصدر ولا تكن مشعوب الحاطر فإن ابائي الكرام وأجدادي العظام هو الله
مرافهم لم يكونوا ، بخالين من الحرب لأجل فتح البلاد ورذ العدو وحس أيضاً
سالكون على طريقهم وفي كل وقت تمتع البلاد الصبية والقلاع الحصينة رحبت
ببلاً وسهراً مسروجة وسيوها مسبوقة فالحق سبحانه وتعالى يسر الخير بأرادته
ومشيته وأما باقي الأحوال والأخبار تفهموها من تابعكم المذكور فليكن مبلوكم
هذا تحريراً في أوائل شهر احر الرعن سنة ثنتين وثلاثين وتسعمائة

مقدم دار السلطنة العلية

القسططبية المحروسة محمية

نقلًا عن فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية.

الملحق (٦)

قانون نامة - السلطان سليمان

قانون نامة السلطان سليمان

الحمد لله الملك الحق الذي يأمر بالعدل والاحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر، والذي جعل السلاطين سبب نظام العالم، أحكامهم نافذة على كافة الأمم من أهل الومر والمدن، والصلوة والسلام على وأضع الشئ سيدنا محمد المصطفى خير البشر، وعلى آله وأصحابه المتحلين بمكارم الأخلاق وحسب السير، أما بعد

فقد صدر الحكم الجليل القدر والفرمان النافذ بماذا القضاء وانقدر، بجمع مراسم وقواعد الملك السلطاني وقوانين العرف العثماني في مجلد يحتويها، ويضم كل نوحيها، فجمعتها، امتثالا لأمر العالي وبودتها، وقسمت كل باب منها على عدة فصول:

الباب الأول في الجنايات وما يترتب عليها من عقوبات (غرامات)
وسياسات مما يشترك فيه السباهي والرعية، ولا يشذ عنه شريف ولا وصيغ ولا دنيء ولا رفيع، فمن يقترب نكراً بماقرب عليه بما ينص عليه القانون ويتقسم هذا القانون إلى أربعة فصول.

فصل الأول في بيان ما يترتب من عقوبات على الزنا.
الفصل الثاني في بيان العقوبات المترتبة على الصرب والشتم وقتل النفس
الفصل الثالث في بيان العقوبات المترتبة على شرب الخمر والسرقه والغصب والاعتداء

الفصل الرابع في بيان سياسة المجرد
الباب الثاني في بيان ما يتعلق بالسباهي وبيت المال والرسوم المترتبة على الرعية والمخصصة للسباهية، ويتألف من سبعة فصول

الفصل الأول السباهي.
الفصل الثاني الحقوق التي يتمتع بها السباهي في تيماره.
الفصل الثالث في الباج وبيت المال ومال الخائب ومال المفقود
الفصل الرابع في رسوم الجفت والبنك ورسوم الطواحين وعادة الأغنام وغير ذلك

الفصل الخامس في الأعشار

الفصل السادس في أطيرات (بادهوا).

الفصل السابع في نياي ونسلم.

الباب الثالث في أحوال اربعيه وهو في سبعة فصول.

الفصل الأول في وضع الرعية.

الفصل الثاني في أوضاع الكفار

الفصل الثالث في قانون العرب.

الفصل الرابع في البيوروك والخيمايه

الفصل الخامس في الأفلاق

الفصل السادس في الددع المرفوعة.

الفصل السابع في القامور الحص بالخطب

الباب الأول : في العقوبات والسياسات المترتبة على الجنايات

الفصل الأول

العقوبات المترتبة على الزنا

إذا زنى مسلم وثبت عليه شرعاً، وكان الرائي محصناً، وقدرته المالية ألف أقة أو أكثر، يغرم مبلغ ثلثمائة أقة، فإن كان متوسط الحال وقدرته مالية ستمائة أقة يعزم مائتي أقة، فإن كان فقيراً وقدرته المالية أربعمائة أقة يغرم مائة أقة، فإن كان أكثر فقراً يغرم خمسين أقة، فإن كان شديد الفقر يغرم أربعين أقة

وإذا كان الرائي بالغاً وغنياً وقدرته المالية ألف أقة أو أكثر يغرم مبلغ مائة أقة، وإن كان متوسط الحال يغرم خمسين أقة، وإن كان فقيراً وقدرته المالية أربعمائة أقة يغرم أربعين أقة، فإن كان شديد الفقر يغرم ثلاثين أقة

الفصل الثاني

الضرب والمشتم والقتل

إذا أخذ رجلان بتلاييب بعضهما فتمزقت، عزرهما القاضي ولم يغرمهما.
 وإن نتف رجل شعر رجل آخر أو لحيته وثبت ذلك عليه وكان الفاعل غنياً، يغرم عشرين أقة. وإن كان فقيراً عشر أقات، والكافر والمسلم في غرامة النتف سواء، فإن نتف كافر غني لحية آخر أو شعره يغرم عشرين أقة.
 ويغرم من شج رأس أحد فادمه ثلاثين أقة فمن برز العظم إثر الشج واحتاج الشجيج للتداوي واستصعب، وكان الذي شجه غنياً يملك ألف أقة أو أكثر يغرم مائة أقة، وإن كان يملك ستمائة أقة يغرم خمسين أقة، ويؤخذ منه غرامة مقدارها أربعون أو ثلاثون أقة، مراعاة لفقره.
 وإن قتل نفساً ولم يقاصص عليها، وكان يملك ألف أقة أو أكثر يعزم أربع مائة أقة، ويغرم مائتي أقة إن كان يملك ستمائة أقة، وإن كان أكثر فقراً يغرم مائة أقة، وإن كان شديد الفقر يغرم خمسين أقة.
 ومن جرح أحداً بسهم أو سكين فاضطر لجريح أن يلازم الفراش يغرم المعتدي إن كان غنياً يملك ألف أقة أو أكثر مبلغ مائتي أقة وإن كان متوسط الحال مائة أقة، وإن كان شديد الفقر خمسين أقة.
 ومن فحأ عين أحد أو كسر سنه ولم يقاصص وكان غنياً يغرم مائتي أقة، وإن كان متوسط الحال مائة أقة، وإن كان شديد الفقر أربعين أو ثلاثين أقة.
 وإن تضارب أو تقاثل الصبيان فلا غرامة عليهم.
 ويغرم إنكافر الذي يقتوف هذه الجنائيات نصف ما يغرم المسلم في حالتي الغنى والفقر.

وان زنت امرأة مسلعة محصنة وثبت ذلك عليها شرعاً، وكانت غنية تغرم غرامة الزاني الغني، فان كانت متوسطة أو فقيرة تغرم غرامة من هو في مثل حالها من الرجال،

وان زنت أرملة تغرم غرامة البالغ في حالتي الغنى والفقر.

وان قتل الزوج الزوجة الزانية [بعد الثبوت والغرامة] يغرم غرامة الديانة ومقدارها مائة أقة [إذا كان غنياً]، وخمسون أقة فقط إذا كان فقيراً، وأربعون أو ثلاثون أقة إذا كان أكثر فقراً.

والحاكم حر في تقدير عدد الجلدات للمرأة القوادة، وتغرم أقة عن كل جلدة.

ويغرم الرجل المحصن الذي يدخل بيتاً بقصد الرنا غرامة الزاني المحصن، ويغرم البالغ الذي يدخل بيتاً بقصد الزنا غرامة البالغ الزاني.

وان زنى عبد أو زنت جارية، وقع عليها نصف غرامة الحر أو الحرة مع مراعاة وضعها في حالتي العس والفقر على حسب العادة والقانون.

وان تعرض رجل بزوجة رجل آخر فقبلها أو راودها عن نفسها مزه القاضي، ويغرم عن كل جلدة أقة واحدة.

وان اتهمت امرأة أو بنت رجلاً بأنه زنى بها، وأنكر الرجل ذلك، فلا اعتبار لقولهما، ويقع على الرجل اليمين، ويعزر القاضي المرأة، وتغرم عن كل جلدة أقة واحدة.

وان قال رجل لامرأة إني قد زيت بك فأنكرت ذلك فيقع عليها اليمين، ويقع على الرجل التعزير، ويغرم عن كل جلدة أقة واحدة.

وان وقف امرؤ على الزنا فكنم فلا عقوبة عليه. ولكنه يغرم عشر أقجات من اطلع على سرقة فكنمها ولم يخبر القاضي بذلك.

وان زنى كافر يعرم نصف غرامة المسلم حسب حالته من الغنى والفقر.

الفصل الثالث

في بيان غرامات شرب الخمر والسرقة والغصب والاعتداء

يعزر القاضي من يشرب خمرًا ويغرم عن كل جلدتين أقة
ومن يسرق بطلاً أو إوزاً أو دجاجة يعزره القاضي ويغرمه عن كل جلدتين
أقة.

وتقطع يد من سرق دابة، ويغرم مائتي أقة أن تجاوز [أهل الحق]
عن قطع يده.

وتقطع يد سارق الياجوق (جلس الدابة) وخاطف الدستار (العمامة)
فإن تجاوز [أهل الحق] عن قطع يده عزه القاضي، وغرمه عن كل جلدتين
أقة واحدة.

ويعامل الكافر في هذه الحالات (من حيث العقوبة والغرامة) كما
يعامل المسلم.

وإن سرق أحد محصول آخر، وكان غنياً عرم مائة أقة، وإن كان متوسط
الحال عرم عشرين أقة، وإن كان شديد الفقر عرم عشر أقجات
وإن سرق ابن أباه أو أمه، أو سرق الأب ابنه، أو الأخ أخاه، أو سرقت
الزوجة زوجها أو الزوج زوجته عزهم القاضي، وغرموا عن كل جلدة أقة
واحدة.

ومن وجد في الفلاة (يوند) دابة وحشية أو ثوراً أو غنماً ولم يدلل عليها
لغرم ثلاثين أقة إن كان غنياً، وعشرين أقة إن كان متوسط الحال وعشر
أقجات إن كان شديد الفقر. فلن أعطاها لدلال فنادى عليها ولم يجد صاحبها
سلمها إلى القاضي أو احتفظ بها، فإن ضلت أو ضاعت وهي في حوزته فلا غرامة
عليه. والعمل في هذا الوضع هو على ما يقتضيه الشرع.

وإن اعتدى عابر سبيل على أحد فأخذ منه خبزاً أو لبناً ظلماً عزره
القاضي، وغرمه عن كل جلدة أقة واحدة. ويغرم الكافر في مثل هذه الحرائم
نصف غرامة المسلم مع مراعاة حالته من الفقر والغنى.

وان دخلت دابة أو دخلت بغلة أو بقرة أو حمار زرع أحد عزير صاحبها،
وصرب عن كل رأس منه، خمس عصي، وغرم عن كل عصا أقجة

وان دخل زرع أحد بقر ضرب صاحبه عن كل رأس منها دخل الزرع
أربع عصي، وغرم عن كل عصا أقجة، وان دخل عجر زرع أحد ضرب صاحبه
عصا واحدة وغرم عن كل عصا أقجة، وان دخلت عنم زرع أحد ضرب صاحبها
عن كل رأسين عصا، وغرم عن كل عصا أقجة، وان دخل زرع أحد ثور ضرب
صاحبه عصاتين، وغرم عن كل عصا أقجة.

ويكتب للقاضي حجة يتعهد بها صاحب المواشي أن يمنع مواشيه من
دخول زرع أحد، فإن سم يصغ لئحجة ولم يمنع دوابه من دخول زرع الناس
وأمر بمزروعاتهم عزز وغرم على نحو ما سبق تفصيله وحمل صان الخسارة.
وعليه أن يحفظ مواشيه ودوابه من أن تضر بزرع الرعايا.

وينبغي على صاحب الزرع أن يقيم سياجاً حول أرضه ان كانت في معزل
عن أراضي القرية أو قرب ماء تسقي الناس منه مواشيتها.

الفصل الرابع

في بيان سياسة المجرد

إذا خطف أحد صبياً أو بنتاً أو دخل بيت أحد بخيانة فخطف بنتاً أو
امراً قطع [ايجمكه] (١).

ومن خطف امرأة أو صبية وعقد عليها الكاح غصباً، أجبر على طلاقها،
وحلقت ذقن من عقد العقد، وضرب ضرباً مبرحاً.

ومن قنض عليه مع امرأة يطبق عليه حكم الشرع، ومن قتل نفساً عمداً
يقتل

١. «يجبكي لعله يلصق به «نكره» فالقواميس أغفلت الكلمة

و يصيب من سرق عبداً أو أضليه أو فتنح دكبا بقصد السرقة وتكررت سرقاته.

و يطبع على حبين الفواد.

و يهدد من قتل بجوارهم أحد أو سرق بالقرب منهم مال حتى يدلوا عن القاتل أو السارق وإذا لم يفعلوا ذلك يسجنون، و يكتب بشأنهم إلى الأعتاب ابعالية و يعمل بمقتضى فرمان الذي يصدر بحقهم بعد.

وان قتل أحد قرب حي أو قرب قرية أو نهبت قافلة ولحقت بها أضرار أو وقعت سرقة بين قريتين أو بين عدة قرى أحبر أهلها على إبعاد القاتل أو السارق فان لم يفعلوا تنفع عليهم الدية والغرامة

وان وجد مال مسروق في بيت أحد أو في يده وكان قد اشتراه، أجبر على أن يدل على البايح، وان لم يفعل وقعت عليه التهمة وعذب إلا إذ، در عليه حين وجده فجاء به إلى القاضي أو أثبت أن المال المسروق كان قد لقيه. وليحتاطوا في التعذيب كي لا يكون سبب هلاك المتهم قبل ثبوت التهمة وتحققها ولا دعوى من مات تحت التعذيب.

ينبغي على (الكروان سرائي) أن يكون أميناً معتمداً، لا يفتح أبواب الكروان سرائي ليغادره المقيمون فيه إلا بعد أن يتحقق من أنه لم يفقد أي من المقيمين شيئاً، ولم يسرق منه مال أو رزق. فان راعى الكرابان سرئي الشروط وأذن لأبناء السبيل فخرجوا وجاء بعده أحد المقيمين فيه وأدعى ضياع أو سرقة رزق لا يستجاب به. فان لم يعم الكرابان سرئي بالواجب على وفق ما سبق ذكره، وتحقق أنه سرق لأحد المقيمين رزق ترتب على الكرابان سرائي ضمان المسروق، نظراً لتقصيره في واجبه

وان نقيب حائط الخان وسرق مال لأحد المقيمين أنقي القبض على المشبهين، ومددوا حتى يدلوا على السارق ويعيدوا لأموال المسروقة، فيحكم بها لصاحبها.

وان حصلت مظنة في أن هناك قولا وتفاقيا بين من في داخل الكرابان سرائي وللصوص في الخارج يلقي القبض على من يظن بهم من أهل الداخل ويفتشون حسب ما يقتضيه الشرع والعرف، و يهددون حتى يجدر للصوص،

فمن لم يجدوهم وكان الكاربان سراي داخل حي مسكون طبقت أحكام السرقة في الحي المسكون، ونفذت نفس الأحكام داخل الكاربان سراي.

تقطع يد قاصع الطريق، ويد من عتد بج (طعن) الناس بالسكين، فإن لم يكن اطعن من مادته تفرر في كل من ذراعيه سكين ويضاف به بالأسواق. وبنفذ حكم الشرع في من قتل أباه أو أمه أو أحد أقاربه.

وان وضع أحد ناراً في منازل قرية أو مدينة بهدف حرق أموال الناس وبيوتهم، وتعمد اثبات الفاعل شرعاً، وأمكن اسناد تهمة على مظنة، هددوه بهدف العثور على الفاعل. فمن وجدوه يشنقوه. ويحكم على من رافقه (أو ساعده) بالنفي والخروج عن البلد.

وان كان السارق سباهيا وقع عليه السجن وتعرض قصيته على الاعتبار العالية.

وان ثبت على أحد سرقة بالعرف، يكتب القاضي لأهل العرف حجة لكي يصلحوه إذا كان، حسب الحجة، قد استحق الصلب، ويقصعوا أحد أعضائه إذا كن، حسب الحجة، يستحق القطع. ولا يجوز للقاضي أن يحول دون ذلك، ولا ينبغي القاضي منع [أهل العرف] من تنفيذ حكم القانون والشرع، ولا التأخير في السياسة (الصلب) فيصلب الجاني في المكان الذي اقترف فيه الجريمة.

وان أقر اللص بالسرقة تحت الضرب والعذاب ودلت على فعلته ببعض الإمارات أخذ إقراره بعين الاعتبار.

وان قال سارق معروف بالصوصية: شريكي فلان وكان هذا لولدا (أرعر) ومتهما عذبه، وان كان شخصاً لم تقع عليه تهمة فلا يجب أن يعذبه لمجرد قول سارق.

وانا دخل سارق أراضي يابا أو مسلم أو يوروك أو طوغانجي (بازي) أو أرض وقف أو ملك ينبغي عليهم إحضاره أن طلب منهم ذلك فان لم يسلموه غرموا الخرامة المترتبة عليه وضموا ما سرق. وان كان السارق واحداً من الفئات السالفة الذكر فجزاؤه وسياسته مثل السارق العادي.

نقلًا عن خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني

بحوث ووثائق وقوانين.

الملحق (٧)

فرمان صدر عن السلطان سليمان القانوني أثناء وجود القوات العثمانية في

جزيرة مالطة

أ- النسخة العربية

تعريب الوثيقة رقم ٨

كتب

أعطى للكنخدا عادل، كنخده حص بنا المشار اليه

حكم في مير مرآه جزائر الغرب:

نظرا للحاجة الماسة لحفظ وحراسة اطراف جزيرة مالطة فقد امرنا ان تقوم بمهمة حفظ

وحراسة صراف الجزيرة بثلاثين قدرة من الفرغات الخاصة بسفن اللوند الذين قدموا معك

من الجزائر وكذلك كل من هو تحت قيادتك من الفس الجزائرية وامرنا ان تكون على يقظة

وبصيرة من امره وان تقوم ليلا ونهارا على حفظ وحراسة حراكي واطراف الجزيرة المذكورة

بالقدرة العارة الذكر وسفن اللوند وان تشمر عن ساعد الجد فلا تففل عن استقصاء لجزر

العدو والتجسس عليه فتستخير عن تسفرت عليه اراؤهم الكفنة وحيالاتهم الفاسدة وان لا

تتواني عن ابلاغنا بما طلعت عليه من الاخبار الصحيحة وان تقوم بهذه المهمة بحسن فهم

ولا تمكن احدا من الاحياء ان يطرق ارض الجزيرة، وجد وانزل في مثل ذلك قساري جهلك.

ويهر بقيادتك ويضع لك كل من في الفرغات والسفن التي وضعت تحت قيادتك سواء في ذلك

رؤساء السفن والانكشارية والجدد التي تقلهم فيلتمر بامرك وينتهي بهيك كبيرهم وصغيرهم

ووصيهم ورعيهم، ينفذون لك ولا يتجاوزون عن قولك والحيد باقه قيد درة، ولك ان تجاري

من يعارض ويحلف قولك بما يليق به من جزاء وان نكتب وان ترفع عرضا بما نرى انه

بحقاج العرض وان قولك مسوع وشكوكك سوف تلقى اذنا صاغية وفيها مجدية ومثمرة ونسا

سلحو بالعباية وبحقق آمل ولحلام كل من شكرت منهم. فاصبر وجد في دفع كيد الأعداء

الساكنين واتمهم وانزل قساري جهلك في حفظ وصيالة ارجاء الجزيرة.

يوم الاربعاء في ٢٣ محرم سنة ٩٧٣هـ (٢٥ آب/أوت ١٥٦٥م)

للهة نفسه، ص ١١١.

ب- النسخة العثمانية

وثيقة رقم ٨

بازلندي

مشار إليه حسن باشا نيك كتحديسي عايد كتحديه ويرلندي

جزاير غرب بكنر بكيسنه حكم كه

حاليا جزيره مائه طرفك حفظ وحراستي هر وجهه لازم ولابد ولماين خاصه قدره
لندن فوتور پاره قدره وجزيردن سنك ليله كلان لوند كميلري وساير سكا تابع اولان
جزاير كميلري ليله جزيره منكره اطرافك حفظ وحراستي سكا امر ايليوب بيوروم كه.

بربابده كمال بصيرت وانتبه ورره لولوب ذكر بولنان قدره لر ولوند كميلري ايله كچه
وكوندورده جزيره مزبورده نك اطراف وجوانبي لوكت وجهه حفظ وحراسي ايليوب راعدا
جانبين غلقت ورره لولمايوب دايم فكر فاسد وخيال كاستلري نه نك اورنه اولدرغس تتبع
وتجسس كتررب هر وجهه بحار صحيحه لوب بوجانبه اعلام امكنن خالي اولميه سر
بالجمله بپ محافظه ده نوع مساعلي جميلك وجوده كتررب اعدا جانبدر جزيره
منكره به بر فرد كتورتمبوب كلي اقدام واهتمام ورره اولاس ومنكور خاصه قدره سر
وساير جزير كميلريك بالجمه حاليا سكا قوشلان جمعه كميرك نكر ولمايلري وكر وساير
يوندلشليدر وكر ايچنده اولان عسكرك خلفي در وضيعي ورهيعي وصغيري وكبيرى سالي
بوابده باش درغ بوب هر وجهه سركه مثبعت والقييد ايليوب لعود بالله دره نكلو مخالفت

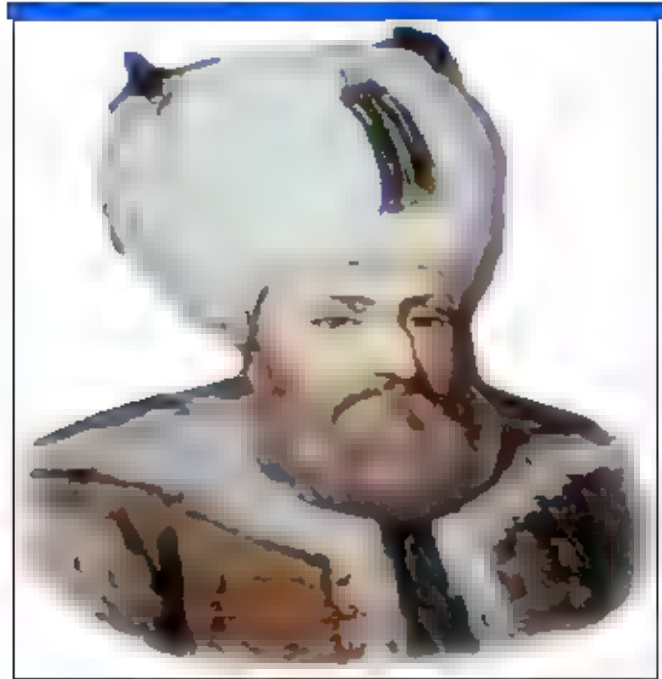
ومعايرت كوسترميه شويله كه امركه مخالفت وسوزكه مغايرت كوستره لر كناملرينه كوره
حقارندن كلوب جزا رسالرين ويره سن ومحتاج عرض اولاني يازوب بوجانبه بلدره سن.
ومنكرلر خصوصنده شكر وشكايك هر وجهه مئمر ومؤثردر هر قنصنك داخلي خدمتن
ويولدا شلعيين عرض ايلنه سن انواع غنيتمله برمراد ومحصل لامل اولانر اكا كوره مقيد
بولوب ادعاي بي ديك نفع رفعمده وجزيره منكره نك حفظ وحراسي اعدا انواع اهتمامك وجوده
كتوره سن.

يوم السبت في ٢٨ محرم سنة ١٢٧٣هـ (٢٥ اب/لوت ١٥٦٥م)

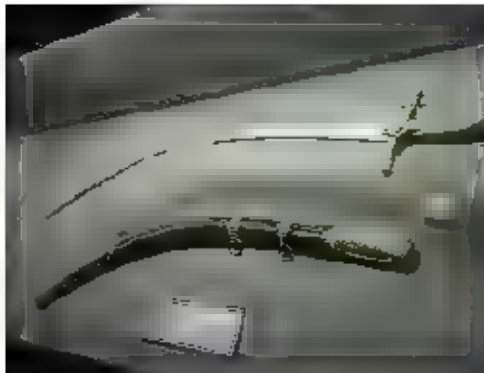
نقلًا عن خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني

بحوث ووثائق وقواتين.

الملحق (٨) الصور



السلطان سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦م



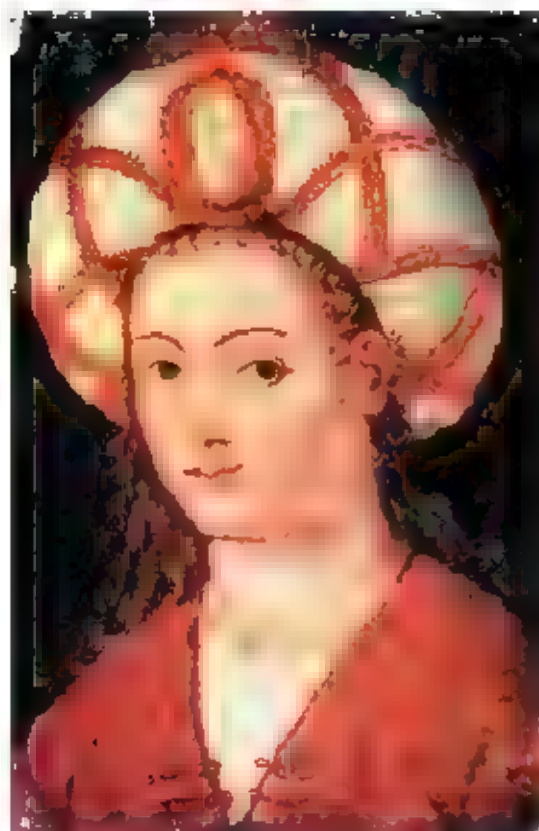
سيف لسلطان سليمان



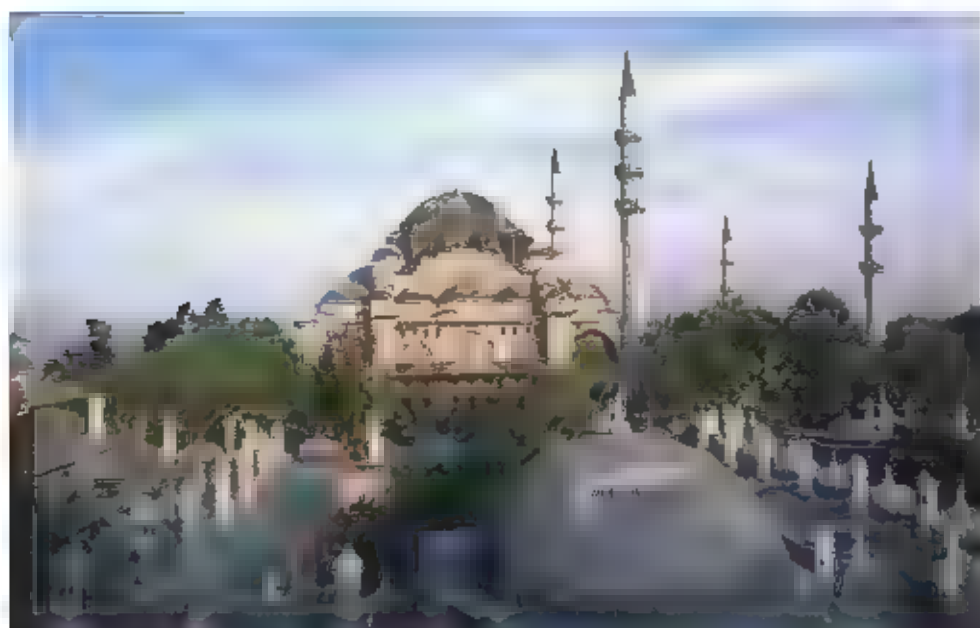
طغراء السلطان سليمان القانوني



سلطان الخوارزمي أو سليمان الأكبر



روكسلانا



مسجد السليمانية

برباروس حير الدين باشا في مجلس
لسلطان سليمان



برباروس حير الدين باشا في مجلس
لسلطان سليمان (صورة من كتاب تاريخ)



برباروس حير الدين باشا في مجلس
لسلطان سليمان (صورة من كتاب تاريخ)

تقديم تاج مملكة المجر للسلطان
سليمان القانوني بعد فتحه لها



علا عن لکمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً- الوثائق غير المنشورة:

أرشيف رئاسة الوزراء، مجلات الديوان الهاشمي، سجل رقم ٣٧٥.

ثانياً- المصادر العثمانية :

- ١- آصف، يوسف بك ، تاريخ سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، تقديم محمد زبيهم محمد عرب، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٥م.
- ٢ بجوي باشا، تاريخ بجوي، سنة إجراء، استنبول، ١٣٣٧هـ، ج١.
- ٣ جونت باشا، أحمد ، تاريخ جونت، ١١ أجزاء، ١٣٠٨ هـ ، ج١.
- ٤ جفي، أولياء، وقعة نويس، استنبول، ١٣١٨ هـ .
- ٥- رفيق، أحمد، عثمانلي تاريخي، ٦ أجزاء، استنبول، ١٣٢٧هـ ج٣.
- ٦- صولاق باشا، تاريخ صولاق، ٤ أجزاء، استنبول، ١٣٢٣ هـ ، ج٣
- ٧ عطا باشا، تاريخ عطا، ٦ أجزاء، استنبول، ١٣٠٣ هـ.
- ٨ لطفي باشا، تواريخ آل عثمان، ٦ أجزاء، استنبول، ١٣٤١م.
- ٩ مراد، أحمد، عثماني تاريخي، ٦ أجزاء، استنبول، ١٣٣٤ هـ، ج٣.
- ١٠- نور، رضا، عثماني تاريخي، ٨ أجزاء، استنبول، ١٩٢٤م، ج٢.

ثالثاً- المصادر العربية :

- ١- ابن أجا، محمد بن محمود الجلي، العراق بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير .
- ٢- ابن زبيل، أحمد الرمال، احرة للمماليك/ ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م/، تحقيق عبد المعصم عامر، القاهرة، ١٩٦٢م.
- ٣- ابن طولون، محمد بن علي، مملكة الحلا في حوائث الرمال، نشره محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٦٢م
- ٤- أرسلان، شكيب ، تاريخ للدولة العثمانية، جمع أصوله وحققه حسن السمحي سويدس، بيروت دار ليل كثير، ط١، ٢٠٠١م.

- ٥- جاويش، سليمان بن خليل بن بطرس ، التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية، بيروت، دار صانر، ط٢، ١٩٩٥م.
- ٦- حليم، إبراهيم بك ، تاريخ الدولة العثمانية العلية التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العثمانية، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٩٨٨م.
- ٧- الحوري، أمين، القنن الأساسي، بيروت، مطبعة الآداب، ١٩٠٨م.
- ٨- الدوادار، يشبك بن مهدي ، صنعة محمد أحمد دهمان، دمشق، دار الفكر ط١، ١٩٨٦م.
- ٩- زاده، طشكبير ي، الشقائق العثمانية في علماء الدولة للعثمانية.
- ١٠- زيدل، جرجي، مصر العثمانية، تحقيق د. محمد حرب، بيروت، دار الهلال، ١٩٩٤م.
- ١١- سرهك، الميرالاي اسماعيل، تاريخ الدولة العثمانية، تقييم ومراجعة حسن الرين، بيروت، دار الفكر الحديث، ١٩٨٨م.
- ١٢- الإسبيلي، ابن محمد للحمي، الدر المصان في سيرة المطهر سليم حان، تحقيق هانس أرسنت، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢م.
- ١٣- المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق احسان حفي، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٩٨١م.
- ١٤- مجموعة من المؤلفين، عصر السلطان عبد الحميد وأثره في الاقطار العربية، دمشق، المطبعة الهاشمية ، ط٢، ج٢.

رابعاً - المراجع العربية :

- ١- أباطة، فاروق عثمان، الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢-١٩١٨م، المكتبة العربية، دط، ١٩٨٦م.
- ٢- أبو زيدون، ونيع، تاريخ الإمبراطورية من التأسيس إلى السقوط عمان، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٣م.
- ٣- أبو غنيم، زياد ، جوانب مصيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، عمان، دار العرفان للنشر، ط٢، ١٩٨٦م.
- ٤- برجاي، سعيد أحمد ، الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، دط، ١٩٩٣م.
- ٥- بركات، مصطفى ، الألعاب العثمانية من حلال الوثائق والمحفوظات (١٥١٧-١٩٢٤م) القاهرة، دار العربي، دط، ٢٠٠٠م.
- ٦- جمعة، بديع الخولي أحمد ، تاريخ الصعويين وحصارهم، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ٧- حرب، محمد، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دمشق، دار القلم، ط٢، ١٩٩٩م.
- ٨- حصون، علي ، تاريخ الدولة العثمانية، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٤، ٢٠٠٢م.
- ٩- الحويري، محمود محمد، تاريخ للدولة العثمانية في العصور الوسطى، القاهرة، المكتب المصري لتوزيع المصنوعات، ط١، ٢٠٠٢م .
- ١٠- رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون ١٥١٦-١٩١٦م، دمشق، ط١، ١٩٧٤م.
- ١١- رافق، عبد الكريم، المشرق في العهد العثماني، دمشق، مطبعة المدينة، ط١، ١٩٩٩م.
- ١٢- رافق، عبد الكريم ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون، دمشق، ط٢، ١٩٦٨م.
- ١٣- رمضان، عبد العزيز، تاريخ أوروبا والعالم الحديث من ظهور البرجوارية إلى الحرب الباردة، ج٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧م .
- ١٤- السيد، محمود محمد، تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، دط، ٢٠٠٠م
- ١٥- شلبي، أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، ١٩٨٦م.

- ١٦- الشناوي، عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة اسلامية معترى عليها، ج٢، القاهرة، مكتبة الأنكلو المصرية.
- ١٧- الصباغ، عباس اسماعيل، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية "الحرب والسلام بين العثمانيين والصقويين"، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٩٩٩م.
- ١٨- الصيفة، حسن، الدولة العثمانية الثقافة المجتمع والسلطة، بيروت، دار المنتخب العربي، ط١، ١٩٩٧م.
- ١٩- طقوش، محمد سهيل، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، بيروت، دار النفائس، ط٢، ٢٠٠٨م.
- ٢٠- العصار، عدنان، الدولة العثمانية من الميلاد إلى السقوط، دمشق، دار وحي القلم، ط١، ٢٠٠٦م.
- ٢١- العبدروس، محمد حسن، السياسة العثمانية اتجاه الخليج العربي، أبو ظبي، دار المتنبى للطباعة والنشر، ط١، دت.
- ٢٢- عامر، محمود علي، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، دمشق، دار الرحاب، ط١، ٢٠٠١م.
- ٢٣- عامر، محمود علي، تاريخ الامبراطورية العثمانية دراسة تاريخية واجتماعية، دمشق، دار الصفاي، ط١، ٢٠٠١م.
- ٢٤- عامر، محمود علي، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، دمشق، دار الصفاي، ط١، ٢٠٠٣م.
- ٢٥- عامر، محمود علي، تاريخ المغرب العربي الحديث "الجزائر وتونس"، مطبعة قمحة إخوان، ط٣، ٢٠٠١م.
- ٢٦- عامر، محمود علي، فارس، محمد خير، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الأقصى - ليبيا)، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٩م.
- ٢٧- عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن، فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للشباب، ١٩٩٠م.
- ٢٨- عط، زبيدة، بلاد الترك في العصور الوسطى بربطة وسلاجقة الروم والعثمانيون، دار الفكر العربي، ط١، دت.
- ٢٩- فواز، عبد العزيز سليمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار الفكر العربي، دت.
- ٣٠- فازان، نزار، سلاطين بني عثمان بين قتال الأحرار وهتة الإنكشارية، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط١، ١٩٩٢م.

- ٣١- محمد، عبد الرحمن فهمي، النقود العربية ماضيها وحاضرها، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ٣٢- محمد، نجاح ، تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث، دمشق، مطبعة المحبة، ط١ ٢٠٠٣م.
- ٣٣- المصري، حسين مجيب، صلات بين العرب والفرس والترك، القاهرة، الدار الثقافية للنشر، ط١، ٢٠٠١م.
- ٣٤- مصطفى، أحمد عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، القاهرة ، دار الشروق ط٢، دت.
- ٣٥- مصطفى، نادية محمود، العصر المملوكي (تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية)، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٦م.
- ٣٦- مؤنس، حسين، الجارية روكسلانة تتزوج السلطان سليمان القانوني، الإسكندرية، دار ومطابع المستقبل، د ت .
- ٣٧- نوار، عبد العزيز، تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٨م.
- ٣٨- هريدي، محمد عبد اللطيف، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحمار المد الإسلامي عن أوروبا، القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٧م.
- ٣٩- ياغي، اسماعيل أحمد، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، ط٢، ١٩٩٨م.

خامساً- المراجع الأجنبية المترجمة :

- ١- النر، عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ٢ ج، ت: محمود علي عامر، بيروت، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨٩م، ج١.
- ٢- النر، عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ٢ ج، ت: الحاج عبد السلام أدهم، بيروت، ١٩٦٩م، ج٢.
- ٣- إنالجيك، خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ت محمد م. الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
- ٤- أوزتونا، يلماز، المدخل إلى التاريخ التركي، ٢ ج، ت: أرشد الهرمزي، الدار العربية للموسوعات، ط١، ٢٠٠١م.
- ٥- أوزتونا، يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ٢ ج، منشورات مؤسسة الفصيل لتمويل، استنبول، ١٩٨٨م.
- ٦- أوزجان، مصطفى، سليمان القانوني، استنبول، ١٣٣٤هـ.
- ٧- أوغلي، خليل ساحلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني (بحوث ووثائق وقوانين)، استنبول، مركز الأبحاث لتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ٢٠٠٠م.
- ٨- أوغلو، أكمل الدين إحسان، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية صالح السعداري، ٢ ج، استنبول، مركز الأبحاث لتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستنبول، ١٩٩٩م.
- ٩- أوغلو، مدحت سرت ، التاريخ العثماني المصور، أنقره، ١٩٥٨م.
- ١٠- باربارو، نيقولو، الفتح الإسلامي للقسطنطينية (يوميات الحصار العثماني) ١٤٥٣م، ت: حاتم عبد الرحمن الطحاوي، ط١، ٢٠٠٢م.
- ١١- بروكلمان، كارل ، تاريخ الشعوب الإسلامية، ت: نبيه أمين فارس- منير البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٦٥م.
- ١٢- بيثروسيان، إيرينا، الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية، تقديم ومراجعة قسم الدراسات والنشر بالمركز، دبي، مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث، ٢٠٠٦م.
- ١٣- ترامب، هارلود، سلطان الشرق العظيم سليمان القانوني، ت: شكري نديم، الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٧م.
- ١٤- تولينشتي، فريدون، عشق السلاطين، بيروت، دار الروائع، د.ت.
- ١٥- ريمون، اندريه، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ت: لطيف فرج، القاهرة، دار الفكر للدراسات، ط١، ١٩٩١م.

- ١٦- زامباور، معجم الأنساب والأميرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، بيرق، دار الرائد العربي، ١٩٨١م.
- ١٧- كلر، أندري، السلطان سليمان القانوني، تعريب محمد الرزقي، تونس، دار التركي للنشر، د.ط، ١٩٩١م.
- ١٨- كوبريللي، محمد فؤاد، قيام الدولة العثمانية، ت: أحمد السيد سليمان، القاهرة، ١٩٦٨م.
- ١٩- كوليس، بول، الاندفاع العثماني في أوروبا، ت: يوسف نعيسة وسليمان الحاج محمد، د.ط.
- ٢٠- كونز، أحمد آق - لوزتورك، سعيد ، الدولة العثمانية المجهولة، استانبول، مكتبة amro turan، ٢٠٠٨م.
- ٢١- لويس، برنارد، استقبول حضارة الخلافة الإسلامية، تعريب سيد رضوان علي، الدار السعودية، ط٢، ١٩٨٢م.
- ٢٢- مانتران، روبير، تاريخ الدولة العثمانية، ج٢، ت: بشير السباعي، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٣م، ج١.

سادساً - المراجع الفارسية :

- ١- جعفري، حسين مير، زندكاي القاص ميرزاي صفوي، مجلة بررسياهي تاريخي، شماره ٥، تهران، سال يازدهم.
- ٢- دوست، منوچهر بارسا، زمينه تاريخي لاختلافات ايران وعراق، تهران، ١٣٦٤هـ.ش.
- ٣- مهدي، عبد الرضا هوشنك، تاريخ روابط خارجي ايران، تهران، مؤسسة انتشارات امير كبير، ١٣٦٩هـ.ش.

سابعاً - الرسائل المنشورة :

- ١- ابراهيم، علي محمد، النظم الإدارية في الدولة العثمانية ١٥٢٠-١٦٨٧م (دراسة وثائقية تحليلية)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ الدولة العثمانية، إشراف أ. د محمود علي عامر، ٢٠٠٧م .
- ٢- عباس صباغ، العلاقات العثمانية الصفوية ٩٠٧-١١٤٨هـ/ ١٥٠١-١٧٣٦م، رسالة أعدت لنيل شهادة الدكتوراة، إشراف د حسان حلاق، بيروت، ١٩٩٦م.

ثامناً - المراجع التركية :

- 1- ismail Hakki UZUN ÇARŞILI, sarag teskilati, ankara, 1987.
- 2- İSMAİL HAKKİ UZUN ÇARŞILI, OSMANLI TARİHİ, 3BASKI, ANKARA, TÜRK TARİH KURUMU BASIMEVİ, 1975 .
- 3- midhat Sert Oglu, resimli Osmanli Tarihi, Ankara, 1983.
- 4- Yavuz Bahadır Oglu, Kanuni Sultan Suleyman, Istanbul, 2009.
- 5- zeki Velidi Togan, Umumi Tarihi, Istanbul, 1981.

تاسعاً - المراجع الأجنبية :

- 1- Colin Imber, The Ottoman Empire 1300-1650, new yourk, 2002 .
- 2- David Nicolle, Angus McBride, Armies of the Ottoman Turks 1300-1724.
- 3- Miriam Greenblatt, Suleyman The magnificent and The ottoman Empire, new York, 2003.
- 4- N.iorga, voyageurs français dans l'orient,
- 5- Patrick Kinross, The ottoman centuries (the rise and fall of the Turkish empire, new York.
- 6- S.n.fisher , a history of the middle east, New York, 1959.

عاشراً - انترنت :

1. Assemblea di Wikimedia di italia, Guerra ottoman-asburgica, Pistoia, 20,marzo,2010
2. Impero ottoman, all about turkey – burak sansal, 23,2, 2010.